كتاب

التعازي والمراثي

تأليف

أبي العبّاس محمّد بن يزيد
المعروف بالمبرّد
المتوفى سنة ٢٨٦ هـ



دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

كتاب
التعازي والمراثي

تأليف

أبي العبّاس محمّد بن يزيد
المعروف بالمبرّد
المتوفى سنة ٢٨٦ هـ

وضع حواشيه

خليل المنصور

دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

الطبعة الأولى

١٤١٧هـ - ١٩٩٦م

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان

العنوان : رمل الظريف، شارع البحتري، بناية ملكارت

تلفون وفاكس : ٣٦٤٣٩٨ - ٣٦٦١٣٥ - ٦٠٢١٣٣ (١ ٩٦١) ٠٠

صندوق بريد: ٩٤٢٤ - ١١ بيروت - لبنان

DAR al-KOTOB al-ILMIYAH

Beirut - Lebanon

Address : Ramel al-Zarif, Bohtory st., Melkart bldg., 1st Floore.

Tel. & Fax : 00 (961 1) 60.21.33 - 36.61.35 - 36.43.98

P.O.Box : 11 - 9424 Beirut - Lebanon

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

هذا كتاب التعازي والمراثي لمحمد بن يزيد بن عبد الأكبر بن عمير بن حسان بن سليمان بن سعد بن أبي عبد الله بن زيد بن مالك بن الحارث بن عامر ابن عبد الله بن بلال بن عوف بن أسلم الثمالي الأزدي «أبو العباس» المعروف بالمبرد إمام العربية ببغداد في زمانه وأحد أئمة الأدب والأخبار مولده في البصرة ووفاته ببغداد من أشهر كتبه «الكامل» و «المذكر والمؤنث» مخطوط و «المقتضب» و «التعازي والمراثي» و «شرح لامية العرب» مع شرح الزمخشري و«إعراب القرآن» و «طبقات النحاة البصريين» و «نسب عدنان وقحطان» و «المقرب» مخطوط قال الزبيدي في شرح خطبة القاموس: المبرّد بفتح الراء المشددة عند الأكثر وبعضهم بكسر.

قال ابن الكلبي في نسبه: عوف بن أسلم هو ثمالة والأسد هو الأزد الثمالي الأزدي البصري المعروف بالمبرّد النحوي أخذ الأدب عن أبي عثمان المازني وأبي حاتم السجستاني وأخذ عنه نفطويه وغيره من الأئمة. كان المبرد وأبو العباس أحمد بن يحيى الملقب بثعلب صاحب كتاب «الفصيح» عالمين متعاصرين قد ختم بهما تاريخ الأدباء وفيهما يقول بعض أهل عصرهما من جملة أبيات وهو أبو بكر بن أبي الأزهر:

أيا طالبَ العلم لا تجهلنْ ... وعُذْ بالمبرّدِ أو ثعلبِ
تجدْ عند هذين علمَ الورى ... فلا تكُ كالجمل الأجربِ
علومُ الخلائقِ مقرونةٌ ... بهذينِ في الشَرقِ والمغربِ

وكان المبرد يحب الاجتماع في المناظرة بثعلب والاستكثار منه وكان ثعلب يكره ذلك ويمتنع عنه.

وكان المبرد كثير الأمالي حسن النوادر، طلب بعض الأكابر من المبرد معلماً لولده فبعث شخصاً وكتب معه قد بعثت به وأنا أتمثل فيه:

إذا زرتُ الملوكَ فإن حسبي شفيعاً عندهم أن يخبروني

وقال أبو العباس المبرد: ما تنادر أحد عليَّ ما تنادر به سذاب الوراق فإني اجتزت يوماً به وهو قاعد بباب داره فقال لي: إلى أين؟ ولاطفني وعرض عليَّ القرى فقلت له: ما عندك؟ فقال: عندي أنت وعليه أنا يشير إلى اللحم المبرّد بالسذاب.

كانت ولادة المبرد يوم الاثنين عيد الأضحى سنة عشر ومائتين وقيل سبع ومائتين وتوفي يوم الاثنين لليلتين بقيتا من ذي الحجة وقيل ذي القعدة سنة ست وثمانين وقيل خمس وثمانين ومائتين ببغداد ودفن في مقابر باب الكوفة في دار اشتريت له وصلى عليه أبو محمد يوسف بن يعقوب القاضي رحمه الله تعالى ولما مات نظم فيه وفي ثعلب أبو بكر الحسن بن علي المعروف بابن العلاف أبياتاً سائرة وكان ابن الجواليقي كثيراً ما ينشدها وهي:

ذهبَ المبرّدُ وانقضتْ أيامُهُ وليَذْهَبَنْ إثرَ المبرّدِ ثعلبُ
بيتٌ من الآداب أصبحَ نصفُهُ خَرِباً وباقي بيتها فسيَخربُ
فابكوا لما سلبَ الزمانُ ووطنوا للدهر أنفسكم على ما يسلبُ
وتزوّدا من ثعلب فبكأسِ ما شربَ المبرّدُ عند قريب يشربُ
وأرى لكم أن تكتبوا أنفاسَهُ إن كانتِ الأنفاسُ مما يكتبُ

لعل في ما أوردناه عن المبرّد كفاية للتعريف بأحد عمالقة الأدب العربي ومدخلاً إلى كتابه الذي نحن بصدده وقد جمع فيه عيون الشعر ودرر الخطب في التعازي والمراثي بأسلوبه الشائق ومعناه الرائق نقدمه للطالب الراغب مختصر الحواشي والتذييلات بما لا يضر بفائدة ولا يفلت شاردة.

والله الموفق للصواب

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين

الحمدُ للَّهِ الذي يرثُ الأرضَ ومنْ عليها، وهو خيرُ الوارثين، الذي كتبَ على عبادهِ الفَناءَ، واستأثرَ بالبقاءِ، وصلى الله على مُحمد عبده ورسوله، وعلى آله الطيِّبين الأخيار وسلّم كثيراً.

قال أبو العباس محمّد بن يزيد (الأَزْدي) النّحوي، المعروف بالمُبرّد رحمه الله تعالى:

دعانا إلى تأليف هذا الكتابِ واجتلابِ محاسن من تكلم في أسباب الموت من المواعظ والتَّعازي والمراثي على قدر ما يحضر، فإنا ابتدأناه عن غير خَلْوةٍ بفِكْرِ ولا تمييز لكتُب، وإنما اقتضبناه اقتضاباً ثِقَةً بالله وتَوَكلاً عليه مصابُنا برجل استخفَّنا لذلك وبعثنا عليه، وهو أبو إسْحَاق القاضي إسْمَاعيل بن إسحاق بن إسماعيل بن حماد بن زيد بن درهم[1]. وإنما نسَبْناه التماساً للتنويه باسم سلفه الصالحين.

ولقد كانَ ـ رحمةُ اللَّهِ عليه ـ في أكثر الأمور أنجع وأنفع. ولو عُدَّ كاملٌ لا سقطةَ فيه لكان إياه، لكن الله جل ثناؤه جعل في المخلوقين النقصَ، وجعلَهم ضُعفاءَ، وحَكم بأنهم لم يؤتَوا من العلم إلا قليلاً. ولقد كانت أَنْصِباؤه في ذلك القليل كالمحتويةِ على أكثرَه ـ رحمة الله عليه ـ مع ما جمع اللَّهُ جلَّ وعزّ فيه من حكمٍ عادلٍ، ورأيٍ فاصلٍ وأدبٍ بارعٍ، وَلُبٍّ ناصعٍ، وتَصرُّفٍ في العلوم، وحِلم يُربيَ على الحلوم، وفي اللَّهِ تعالى ذِكْرُه خَلَفٌ من كل هالكٍ وعزاءٌ من كلّ مصيبةٍ. وبرسول اللَّهِ ﷺ الأسْوَةُ والقُدْوَةُ، وكلّ خَطبٍ، إذا ذُكرتْ وفاتُه، صغيرٌ، وكل رزءٍ حقير؛ عليه رحمة الله وبركاته.

---

(١) إسماعيل بن إسحاق بن إسماعيل بن حماد بن زيد الجهضمي الأزدي: فقيه مالكي جليل التصانيف من بيت علم وفضل كان من نظراء المبرد ولي قضاء المدائن وبغداد والنهروانان ثم قضاء القضاة توفي فجأة ببغداد وكان موته سبب تأليف كتاب التعازي والمراثي (٢٠٠ ـ ٢٨٢ هـ) (الأعلام: ج ١، ص ٣١٠).

يروى عن عليّ بن أبي طالب ـ عليه السلام ـ من وجوهٍ، سمعنا ذلك وبعضُها يزيدُ على بعض، أنه قال: لما توفي رسولُ الله ﷺ تولّى غسله العباسُ، وعليّ، والفضل، فقال عليّ: لم أره يعتاد فاهُ في الموتِ ما كنتُ أراه في أفواهِ الموتى. ثم لما فرغ عليٌّ من غسلهِ وأدرجهُ في أكفانه، كشفَ الإزارَ عن وجههِ، ثم قال: بأبي أنت وأمي، طِبْتَ حَياً، وَطِبْتَ ميْتاً، انقطع بموتك ما لم ينقطع بموتِ أحدٍ ممن سواكَ من النبوةِ والإنباء، خَصِصْتَ حتى صِرْتَ مُسَلِّياً عمَّن سِواك، وَعَمَمْتَ حتى صارت المصيبةُ فيك سواء. ولولا أنك أمرتَ بالصبرِ ونهيتَ عن الجزعِ لأنفذْنا عليك الشؤونَ ولكنّ ما لا يُدْفَعُ كَمَدٌ وإدبارٌ محالفان (وهما داء الأجَلِ، وَقَلاً لك. بأبي أنت وأمي). أُذكُرْنا عند ربك، واجعلنا من همّك. قال: ثم نظر إلى قَذَاةٍ في عينه فَلقَطَها بلسانه ثم رَدَّ الإزارَ على وجهه.

وقال رسولُ اللّهِ ﷺ: «تعزَّوْا عَنْ مَصَائِبِكُم بي».

وهذا كلامٌ تلقَّاهُ عنه المؤمنون ثم أدَّوْه إلى مَنْ بعدهم من إخوانهم المؤمنين، فاحتذى هذا المثالَ يقيناً وإيماناً جماعةٌ كلُّهم سَلَكَهُ فاهتدى، وَوَصَفَهُ فأحْسَنَ، فمنهم عبد الله بن أَراكَةَ الثَّقَفِيّ، فإنه أُصيبَ بابنٍ له فأسرفَ أخوه عبد الله بنُ عبد اللّهِ في البكاءِ فوعظهُ وعزَّاه فقال:

[الطويل]

وَقُلْتُ لِعَبْدِ اللّهِ إذْ جَدَّ بَاكِياً: ... تَعَزَّ وَماءُ العَيْنِ مُنْهَمِلٌ يَجْرِي
لَعَمْري لَئِنْ أَتْبَعْتَ عَيْنَيْكَ مَا مَضَى ... بِهِ الدَّهْرُ أَوْ ساقَ الحِمَامُ إلى القَبْرِ
لَتَسْتَنْفِدَنْ مَاءَ الشُّؤونِ بِأَسْرِهِ ... وَلَوْ كُنْتَ تَمْرِيهِنَّ مِنْ ثَبَجِ البَحْرِ
تَأَمَّلْ! فَإِنَّ البُكا ردَّ هَالِكاً ... على أَحَدٍ، فَاجْتَهِدْ بكَاكَ عَلى عَمْرِو
وَلا تَبْكِ مَيْتاً بَعْدَ مَيْتٍ أَجَنَّهُ ... عَلِيٌّ وَعَبَّاسٌ وَآلُ أَبي بَكْرِ

بابٌ من التعازي

وهو أكثرُ ما تكلم فيهِ الناسُ، لأنه لم يَعْرَ أحدٌ من مصيبةٍ بحميم، ذلك قضاءُ الله على خَلْقِهِ. فكلٌّ تكلم إمّا متعزياً وإمّا معزياً، وإمّا متصبراً محتسباً.

قال أبو الحسن المدائني[1]: كانت العربُ في الجاهليةِ ـ وهم لا يرجون ثواباً ولا يخشَوْن عقاباً ـ يَتحاضُّون على الصبر، ويَعرِفون فضلَه، ويُعَيِّرونَ بالجَزَع أهلَه، إيثاراً لِلْحَزْمِ وتَزَيُّناً بالحِلْم، وطَلَباً للمروءة، وفراراً من الاستكانة إلى حُسنِ العَزاء، حتى إن كانَ الرجل منهم ليَفْقِدُ حميمَهُ فلا يُعْرَفُ ذلكَ فيهِ. يُصدِّقُ ذلك ما جاءَ في أشعارهم، ونُثِيَ مِنْ أخبارهم. قال دُرَيْدُ بن الصِّمَّة[2] في مَرْثِيَتِهِ أخاه عبد الله:

[الطويل]

قَلِيلُ التَّشَكِّي لِلْمُصِيباتِ حَافِظٌ ... مَعَ اليَوْمِ أَدْبَارَ الأَحادِيثِ فِي غَدِ

صَبَا مَا صَبا حتَّى إذَا شَابَ رَأْسُهُ ... وَأَحْدَثَ حِلْماً قالَ لِلْبَاطِلِ ابْعُدِ

قال أبو عبيدة[3]: كان يونس بن حبيب[4] يقول: هذا أشعر ما قيل في هذا الباب.

وقال أبو خِراش الهُذَليّ[5]:

[الطويل]

---

(١) أبو الحسن المدائني: علي بن محمد بن عبد الله بصريّ انتقل من المدائن إلى بغداد فعُرِفَ بالمدائني عالم إخباري. (١٣٥ ـ ٢٢٥ هـ) (الأعلام: ج ٤، ص ٣٢٣).

(٢) دُرَيْدُ بن الصمّةِ الجشميّ البكريّ: شاعر فارس من قبيلة هوازن أدرك الإسلام ولم يسلم (.../٨ هـ) (الأعلام: ج ٢، ص ٣٣٩).

(٣) أبو عُبيدة: معمّر بن المثنى إمام اللغويين في البصرة (١١٠ ـ ٢٠٩ هـ) (الأعلام: ج ٧، ص ٢٧٣).

(٤) يونس بن حبيب الضبيّ: كنيته «أبو عبد الرحمن» إمام النحاة في البصرة (٩٤ ـ ١٨٢ هـ) (الأعلام: ج ٨، ص ٢٦١).

(٥) أبو خِراش الهُذَلي: خُويلد بن مرّة مضريّ من بني هذيل شاعر فارس أسلم في زمن عمر (ـ/ ١٥ هـ) (الأعلام: ج ٢، ص ٣٢٥).

تَقُولُ أَرَاهُ بَعْدَ «عُرْوَةَ» لاَهِياً ... وَذَلِكَ رُزْءٌ لَوْ عَلِمْتِ جَلِيلُ
فَلاَ تحسبي أَنّي تَنَاسَيْتُ عَهْدَهُ ... وَلكِنّ صَبْرِي يَا أُمَيْمَ جَمِيلُ

وقال أبو ذؤيب(1):

[الطويل]

وَإِنّي صَبَرْتُ النَّفْسَ بَعْدَ ابن عَنْبَسٍ ... وَقَدْ لَجَّ مِنْ مَاءِ الشُّؤُونِ لَجُوجُ
لأُحْسَبَ جَلْداً أَوْ لِيُنْبَأَ شَامِتٌ ... وَلِلشَّرِّ بَعْدَ القَارِعَاتِ فُرُوجُ

وقال أَوْسُ بنُ حَجَر(2):

[المنسرح]

أَيَّتُها النَّفْسُ أَجْمِلي جَزَعا ... إنَّ الَّذِي تَحْذَرِينَ قَدْ وَقَعَا

وقال أبو ذؤيب:

[الكامل]

وَتَجَلُّدِي لِلشَّامِتِينَ أُرِيهِمُ ... أَنّي لِرَيْبِ الدَّهْرِ لاَ أَتَضَعْضَعُ

والشيء يُذكر بالشيء: يروى أن الحسين بن عليّ بن أبي طالب ـ عليهما السلام ـ دخل على معاوية وهو في عِلّةٍ له غليظة، فقال معاوية: ساندوني ثم تمثل بهذا البيت:

وَتَجَلُّدي للشامتينَ أُرِيهُم ... أني لِرَيْبِ الدهرِ لا أَتَضَعْضَعُ

فَسَلَّمَ الحسينُ عليه السلام ثم تمثل:

وَإذا المَنِيَّةُ أَنْشَبَتْ أَظْفارَهَا ... أَلْفَيْتَ كُلَّ تَمِيمَةٍ لاَ تَنْفَعُ

(فاستُظرِف الجوابُ كون البيتين من قصيدة واحدة).

وقال عَمْرو بن مَعْدي كَرِب(3):

[مجزوء الكامل]

---

(1) أبو ذؤيب: خويلد بن خالد مضريّ من بني هذيل شاعر مخضرم شارك في فتوح أفريقيا وتوفي عائداً في مصر (ـ/ ٢٧ هـ) (الأعلام: ج ٢، ص ٣٢٥).

(2) أوْس بن حَجَر بن مالك التميميّ: أبو شُريح شاعر جاهلي من قبيلة تميم وهو زوج أم زهير بن أبي سُلمى. (٩٨ ـ ٢ ق هـ) (الأعلام: ج ٢، ص ٣١).

(3) عمرو بن معدي كَرِب بن ربيعة بن عبد الله الزبيدي: أبو ثور فارس شاعر وفد على رسول الله وأسلم وارتد بعد وفاته ثم عاد إلى الإسلام شهد اليرموك والقادسية حيث قتل هناك (ـ/ ٢١ هـ) (الأعلام: ج ٥، ص ٨٦).

كَـــمْ مِـــنْ أَخٍ لـــيَ صَـــالـــحٍ ... بَـــوَّأْتُـــهُ بِـــيَـــدَيَّ لَـــحْـــدا
مـــا إِنْ هـــلـــكـــتُ لِـــفَـــقْـــدِهِ ... لَـــيْـــسَ الـــبُـــكَـــاءُ يَـــرُدُّ زَنْـــدا
أَلْـــبَـــسْـــتُـــهُ أَثْـــوابَـــه ... وَخُـــلِـــقْـــتُ يَـــوْمَ خُـــلِـــقْـــت جَـــلْـــدَا

وقال حارِثَة بن بَذر الغُداني[1]:

[البسيط]

الـصَّـبْـرُ أَجْـمَـلُ وَالـدُّنْـيـا مُـفَـجِّـعَـةٌ ... مَـنْ ذَا الَّـذِي لَـمْ يُـجَـرَّعْ مَـرةً حَـزَنـا؟

وما جاء في هذا أكثر مِنْ أَنْ يُؤتى على غابره.

وتعزيتُك الرجل تسليتُك إيَّاه. والعَزاء هو السلوُّ وحسن الصبر على المصائب وخيرٌ من المصيبة العوضُ منها والرِضى بقضاء الله والتسليم لأمره تَنَجُّزاً لما وعَدَ من حسن الثواب، وجَعلَ للصابرينَ من الصلاةِ عليهم والرحمة. فإنه يقولُ تباركَ وتَعالى: ﴿**وبَشِّرِ الصَّابرينَ الذين إذا أصابَتْهُمْ مُصيبَةٌ قالوا إنّا للَّهِ وإنّا إليه راجعون أُولئكَ عَلَيهِمْ صَلواتٌ مِنْ رَبِّهِمْ ورحمَةٌ وأُولئكَ هُمُ المُهْتَدُون**﴾ [البقرة: ١٥٥]. وقال: ﴿**وبَشِّرِ المُخْبِتِينَ الذينَ إذا ذُكِرَ اللَّهُ وجِلَتْ قُلوبُهُمْ والصَّابرينَ على ما أَصابَهُمْ**﴾ [الحج: ٣٤]. وقال تبارك اسمُه: ﴿**ما أَصابَ من مُصيبَةٍ إلاَّ بإذْنِ اللَّهِ وَمن يُؤمِنْ باللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ**﴾ [التغابن: ١١] ـ يقول الاسترجاع. خَبَّرني بذلك غيرُ واحدٍ من الفقهاء.

وروى أبو الحسن عن الفضلِ بن تميم قال: قيل للضحاك بن قيس[2] من قالَ عند المصيبةِ: إنا لله وإنَّا إليه راجعون، كانَ ممن أخذَ بالتقوى وأدّى الفرائضَ؟ فقال: نَعمْ، أولئكَ عليهم صلواتٌ من ربهم ورحمة.

قال الأصمعي عن بعض العلماء: لو وُكِّلَ النَّاسُ بالجزع لَلَجؤوا إلى الصبر.

وَرُويَ عن الحسن[3] أنه كانَ يقول: الحمدُ لله الذي أجَرَنا على ما لا بُدَّ لنا

---

(١) حارِثَة بن بَدْر بن حُصين التميميّ الغُداني: شاعر بصريّ مات غرقاً في حربه مع الخوارج (ـ/ ٦٤ هـ) (الأعلام: ج ٢، ص ١٥٨).

(٢) أبو بحر الضحّاك بن قيس بن معاوية التميميّ: الأحنف سيد بني تميم موصوف بالحلم والدهاء (٣ ق هـ ـ ٧٢ هـ) (الأعلام: ج ١، ص ٢٧٦).

(٣) الحسن بن يسَار البصريّ أبو سعيد: أحد علماء وفقهاء البصرة (٢١ ـ ١١٠ هـ) (الأعلام: ج ٢، ص ٢٢٦).

منه، وأثابَنا على ما لو كَلَّفنا غيرَهُ لصِرنا فيه إلى معصيتِهِ.

قال الأصمعي وأبو الحسن: جزعَ سليمانُ بن عبد الملك على ابنِهِ أيوب فقالَ له رجلٌ من القُرّاء: يا أميرَ المؤمنين إنَّ حدَّث نفْسَهُ بالبقاء في الدنيا وظن أنه يَعْرَى من المصائب فيها لغَيْرُ جيِّدِ الرأي. فكان ذلك أوَّلَ ما تسلَّى به.

وكان عليُّ بن أبي طالبٍ رضوانُ اللَّهِ عليه يقول: عَليكم بالصبرِ، فإنَّ بهِ يأخذُ الحَازِمُ وإليهِ يَعودُ الجَازِعُ.

ورُوي عن أبي الحسن، عن أبي عمرو بن المبارك قال: دخلَ زيادُ بن عثمان بن زياد على سليمان بن عبد الملك، وقد تُوفي ابنهُ أيّوب، فقال: يا أمير المؤمنين، إن عبد الرحمن بن أبي بكرة[1] كانَ يقولُ: مَنْ أَحبَّ البقاءَ فلْيُوَطِّنْ نفسَه على المصائبِ.

قال أبو الحسن عن علي بن سليمان بن الحسن: الخيْرُ الذي لا شرَّ فيه الشُّكْرُ معَ العافيةِ، والصَّبرُ عندَ المصيبةِ. فكَمْ مِنْ منْعَمٍ عليه غَيرُ شاكرٍ، ومِنْ مُبْتلى غيرُ صابرٍ.

قال: ومِنْ أحسنِ التَّعْزيةِ إبلاغٌ في إيجاز. قال أبو الحسَن: ومِنْ أحسنِ ما سمعنا في ذلكَ عن أبي الحكم الليثي عن شَيبَة بن نِصاح[2] قال: لما قُبضَ النبيُّ ﷺ صرختْ أَسماءُ بِنْتُ عُمَيْس[3]، فنادى مُنادٍ من ناحية البيت، يسمعونَ حسَّه ولا يَرونَ شخصَه: السلامُ عليكم أهلَ البيت ورحمةُ اللَّهِ وبركاته، أَعلى رسولِ اللَّهِ تبكون، أمْ على رسولِ اللَّهِ تصرخون؟ فقالت أسماءُ: ما على رسولِ اللَّهِ ﷺ نبكي ولا على رسولِ اللَّهِ نصرخ، ولكنْ على انقطاعِ الوحي عنّا. قال: ثمَّ نادى الثانية: ﴿**كُلُّ نَفْسٍ ذائِقَةُ المَوْتِ، وإنمَّا تُوَفَّوْنَ أُجورَكُمْ يَوْمَ القِيامَةِ فَمنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وأُدْخِلَ الجنَّةَ فَقدْ فازَ ومَا الحَياةُ الدُّنيا إلاّ مَتاعُ الغُرُورِ**﴾ [آل عمران: ١٨٥]. إن في الله عزاءً من كلِّ مصيبةٍ، وعِوَضاً مِنْ كلِّ مَرْزِئةٍ، ودَرَكاً مِنْ كُلِّ فائتٍ،

(١) عبد الرحمن بن أبي بكر الثقفي: من أعيان التابعين توفي في البصرة (ـ/ ٩٦ هـ) (الأعلام: ج ٣، ص ٣٠٢).

(٢) شَيْبَة بن نِصاح المخزوميّ المدني: قاضي وإمام المدنية في القراءات ومن رجال الحديث (ـ/ ١٣٠ هـ) (الأعلام: ج ٣، ص ١٨١).

(٣) أسمَاءُ بِنتُ عُمَيْس: صحابية تزوجها بعد جعفر بن أبي طالب أبو بكر ثم تزوجها بعده علي بن أبي طالب (ـ/ ٤٠ هـ) (الأعلام: ج ١، ص ٣٠٦).

وخَلَفاً مِنْ كلِّ هالكٍ، فَباللَّهِ فثقوا، وإيَّاهُ فارْجوا. المَحْبُورُ مَن حَبَرهُ الثوابُ، والخائبُ من أَمِنَ العِقابَ.

قال أبو الحسن عن الحسنِ بن دينار[1] عن علي بن زَيْد[2] عن أنس بن مالك[3] أن رسول الله ﷺ وضع إبراهيم في حِجْرِهِ وهو يجود بنفسه فقال: «لولا أن الماضي فَرَط الباقي وأن الآخر لاحِقٌ بالأول لَحزنّا عليك يا إبراهيمُ». ثم دمعت عينُه فقال: «تدمعُ العينُ ويحزَنُ القلبُ ولا نقولُ إلا ما يرضي الربَّ، وإنا بك يا إبراهيم لمحزونون».

قال أبو الحسن: أُخبرنا عن مسلمة عن أبان عن أنس بن مالك أن رسولَ الله ﷺ قال: «لأنْ أُقدِّمَ فَرَطاً أحَبُّ إليَّ من أنْ أدَعَ مئة مُستلئمٍ». وجاء عنه ﷺ أنه قال: «من عَزَّى مُصاباً فله مثلُ أجرِهِ»[4].

قال أبو الحسن عن بعض أصحابه قال: عَزَّى أبو بكر عُمَر على طفلٍ له، فقال: «عَوَّضَكَ الله منه ما عَوَّضَهُ منك».

تفسير هذا أنه يقال: إن الطفل يُعوَّضُ من أبَويْهِ الجَنَّةَ.

قال أبو الحسن عن أبي بكر[5] عن أبي المَليح[6] قال: قال رسول الله ﷺ: قال الله جل ذكره: «إذا أخذتُ صَفيَّ عبدي فَصَبَرَ لم أرضَ له ثواباً دونَ الجنة»[7].

---

(١) أبو سعيد الحسن بن دينار البصريّ: اسم أبيه واصل ولكنه نسب إلى زوج أمه دينار كان قدرياً روى عن الحسن البصري وروى عنه سفيان الثوري. (لسان الميزان: ج ٢، ص ٢٠٣) (البيان والتبيين: ج ٢، ص ٤٩).

(٢) أبو الحسن عليّ بن زَيْد بن جدعان: فقيه بصري ضرير من حفاظ الحديث (ـ/ ١٢٩ هـ) (الأعلام: ج ٤، ص ٢٨٩).

(٣) أنسُ بن مالك بن النضر بن ضمضم البخاري الخزرجي الأنصاري «أبو ثمامة ـ أو أبو حمزة» خادم رسول الله ولد بالمدينة وتوفي بالبصرة (١٠ قبل الهجرة ـ ٩٣ هـ) (الأعلام: ج ٢، ص ٢٤).

(٤) أخرجه الترمذي وأبو ماجه في السنن.

(٥) أبو بكر الهذلي: في البيان والتبيين اسمه «عبد الله بن سَلْميّ» وفي التهذيب «سلمى بن عبد الله بن سلمى وقيل اسمه روح» وهو من خطباء هذيل. (البيان والتبيين: ج ١، ص ٢٣٧).

(٦) أسامة بن عمير: كما جاء في البيان والتبيين واسمه في التهذيب عامر أو زيد بن أسامة وهو من خطباء هذيل. (البيان والتبيين: ج ١، ص ٢٣٧).

(٧) أخرجه الترمذي وابن ماجه في السنن.

باب من الشعر

مراثي الجاهليةِ المشهورةُ المستحسنةُ المستجادةُ المقدمةُ معلومةٌ موسومةٌ. منها قصيدةُ متّممِ بن نويرة[1] في أخيه مالكٍ، على أن سائر أشعاره غير مذموم، وإن تقدمتهن العينية التي أولها.

[الطويل]

لَعَمْرِي وَما دَهْري بِتَأْبِينِ هالِكٍ وَلا جَزَعٍ مِمّا أَصابَ فَأَوْجَعا

ومنها قصيدةُ دُريدٍ في أخيهِ عبد الله التي أوّلها.

[الطويل]

أَرَثَّ جَدِيدُ الحَبْلِ مِنْ أُمِّ مَعْبَدِ بِعاقِبَةٍ وأَخْلَفَتْ كُلَّ مَوْعِدِ

ومنها قصيدةُ كَعْبِ بن سَعْدٍ الغَنَوي[2] يرثي فيها أخاه، وهي التي أوّلها:

تَقولُ سُلَيْمَى مَا لِجِسْمِكَ شَاحِباً كَأَنَّكَ يَحْمِيكَ الشَّرَابَ طَبِيبُ

ومنها قصيدةُ أَعشى باهلَة، أَبي قُحافَة[3] وهي التي أولها:

إِنِّي أَتَتْني لِسَانٌ لاَ أُسَرُّ بِهَا مِنْ عَلْوَ لاَ عَجَبٌ مِنْهَا وَلاَ سَخَرُ

ومراثي الخنساءِ ومراثي ليلى الأَخيليَّة، وسنذكرُ من ذلك طرفاً ومن مراثي أَوس بن حَجَر في فَضالَةَ بن كَلَدَة الأسَدي[4]، ومراثي لُبيد في أخيهِ أَرْبَد،

---

(١) متمّم بن نويرة بن جمرة بن شداد اليربوعي التميمي «أبو نهشل» شاعر فحل صحابي اشتهر في الجاهلية والإسلام كان قصيراً أعوراً أشهر شعر، رثاؤه لأخيه «مالك» سكن في المدينة (../٣٠ هـ) (الأعلام: ج ٥، ص ٢٧٤).

(٢) كعب بن سعد بن عمرو الغَنَوي: شاعر جاهلي من بني غَنِيّ قتل أخواه في ذي قار ومنزله في «رملة إنسان» موضع شرقي «الرجام» وهو اسم جبل (.../١٠ ق هـ) (الأعلام: ج ٥، ص ٢٢٧).

(٣) عامر بن الحارث بن رياح الباهلي: شاعر جاهلي من همدان يكنى «أبا قحفان» (.../...) (الأعلام: ج ٣، ص ٢٥٠).

(٤) فضالةُ بن كَلَدة: شاعر جاهلي من بني أسد وصديق أوس بن حجر التميمي (.../...)=

وعَدي المهلهل فيمنْ بكاهُ من قومِه اختياراتٍ بارعةً ونُنَبِّهُ على ما فيها ولمن اخْتيرَتْ ثم ننحطُّ إلى شعرِ الإسلام منْ قَديم ومُحْدَثٍ وما بينهما إن شاءَ الله. ونَفصِلُ ذلكَ بالمواعظِ كلاماً وشعراً والتعازيَ على ما يَحْضُرُ ونُوفَّقُ لهُ إنْ شاءَ اللَّه.

فمما اختَرنا من قصيدةِ مُتَمِّم وكان الذي تولى قتلَ أخيه بأمرِ خالدِ بن الوليد بن المُغيرةِ - ضِرارُ بن الأزْوَر الأسَدي وحدثَنا التَّوَّزي[1] في إسنادٍ أنَّ ضِراراً هذا أتى رسولَ الله ﷺ ليُسْلِمَ ففعَلَ وقال:

تَـرَكْـتُ الـخُـمُـورَ وَضَـرْبَ الـقِـدَا ... حِ وَالـلَّـهْـوَ تَـصْـلِـيَـةً وابْـتِـهَـالا
وَكَـرِّي الـمـحـبَّـرَ فـي غَـمْـرَةٍ ... وَشَـدِّي عَـلَـى الـمُـشْـرِكـيـنَ الـقِـتَـالا
فَـيَـا رَبِّ لاَ أُغْـبَـنَـنْ صَـفْـقَـتِـي ... فَـقَـدْ بِـعْـتُ أَهْـلِـي وَمَـالِـي بِـدالا

فقال رسول الله ﷺ: ما غُبِنْتَ صَفْقَتَكَ يا ضرار.

ثمَّ نرجعُ إلى اختيارنا من العينيةِ، ففِيها من حُرِّ الكلام وصادقِ المدحِ قولهُ:

[الطويل]

إذَا ابْـتَـدَرَ الـقَـوْمُ الـقِـداحَ وَأُوقِـدتْ ... لَـهُـمْ نـارُ أَيْـسَارٍ كَفى مَنْ تَـضَجَّـعا[2]
بِـمَـثْـنَـى الأيَـادِي ثُـمّ لَـمْ تُـلْـفِ مَـالِـكـاً ... عَلَى الفَرْثِ يَحْمِي اللّحْمَ أَنْ يُتَمَزَّعا[3]

وقَوله:

وَكُـنَّـا كَـنَـدْمَـانَـيْ جَـذِيـمَـةَ[4] حِـقْـبَـةً ... مِـنَ الـدَّهْـرِ حَـتَّـى قِـيـلَ لَـنْ نَـتَـصَـدّعَـا
وعِـشْـنَـا بِـخَـيْـرٍ فـي الـحَـيَـاةِ وَقَـبْـلَـنَـا ... أَصَـابَ الـمَـنَـايَـا رَهْـطَ كِـسْـرَى وتُـبَّـعَـا
فَـلَـمَّـا تَـفَـرَّقْـنَـا كَـأَنِّـي وَمَـالِـكـاً ... لِـطُـولِ اجْـتِـمَـاعٍ لَـمْ نَـبِـتْ لَـيْـلَـةً مَـعَـا

وفيها مما يُختار:

= (الأعلام: ج ٥، ص ١٤٦).

(١) عبد الله بن محمد بن هارون «التَّوزّي» من «توز» بلدة بفارس من كبار علماء اللغة توفي سنة ٢٣٨هـ رغبة الأمل: ج ١، ص ١٦٩).

(٢) الأيسار: مفردها يسر (المجتمعون على الميسر) وتضجّع في الأمر: لم يقم به.

(٣) يتمزع: يفرق.

(٤) ندمانا جذيمة: نديمان لجذيمة الأبرش وهما مالك وعقيل قتلهما بعد أن نادماه دهراً (الأعلام: ج ٥، ص ٢٧٤) ترجمة متمم بن نويرة.

أَقُولُ وَقَدْ طَارَ السَّنا في رَبابِهِ ... وَغَيْث يَسُحُّ المَاءَ حَتَّى تَرَيَّعا[1]
سَقى اللّهُ أَرْضاً حَلَّها قَبْرُ مَالِكٍ ... ذِهابَ الغَوَادِي المُدْجِنَاتِ فَأَمرَعا[2]
وَآثَرَ بَطْنَ الوَادِيَيْنِ بِدِيمَةٍ ... تُرَشِّحُ وسْمِيّاً مِنَ النَّبْتِ خِرْوَعا[3]
تَحِيَّتَهِ مِنّي وَإِنْ كَانَ نائِياً ... وَأَضْحَى تُرَاباً فَوْقَهُ الأَرْضُ بَلْقَعا
فَمَا وَجْدُ أَظْآرٍ ثَلاثٍ رَوائِمٍ ... رَأَيْنَ مَجَراً مِنْ فَصِيلٍ وَمَصْرَعا[4]
يُذَكِّرْنَ ذَا الوَجْدِ القَدِيمِ بِوَجْدِهِ ... إِذَا حَنَّتِ الأُولَى سَجَعْنَ لَهَا مَعَا
بِأَوْجَدَ مِنّي يَوْمَ فَارَقْتُ مَالِكاً ... وَنَادَى بِهِ النَّاعِي السَّمِيعُ فَأَسْمَعَا

يريدُ بالسميعِ: المسْمع.

ومما يُستَحسنُ من شعرهِ فيه:

[الطويل]

كُهُولٌ وَمُرْدٌ مِنْ بَنِي عَمِّ مَالِكٍ ... وَأَيْفَاعُ صِدْقٍ لَوْ تَمَلَّيْتُهُمْ رِضَى
سُقُوا بِالْعُقَارِ الصِّرْفِ حَتَّى تَتَابعوا ... كَدَأْبِ ثَمُودٍ إذ رَغا سَقْبُهُمْ ضُحَى[5]
إِذَا الْقَوْمُ قَالُوا: مَنْ فَتىً لِعَظِيمَةٍ؟ ... مـا كُلُّهُمْ يُغْنَى وَلَكِنَّهُ الفَتَى

وهذا يشبهُ قولَ طَرفة:

إِذَا القَوْمُ قَالُوا: مَنْ فَتَى؟ خِلْتُ أَنَّنِي ... عُنِيتُ فَلَمْ أَكْسَلْ وَ لَمْ أَتَبَلَّدِ

ومن ذلكَ قولهُ في أُخرى:

[الطويل]

وَكُلُّ فَتىً فِي النَّاسِ بَعْدَ ابْنِ أُمِّهِ ... كَسَاقِطَةٍ إِحْدَى يَدَيْهِ مِنَ الْخَبْلِ[6]
وَبَعْضُ الرِّجَالِ نَخْلَةٌ لا جَنَى لَهَا ... وَلاَ ظِلَّ إِلاّ أن تُعَدَّ مِنَ النَّخْلِ

وهذا منْ جيّدِ الكلامِ لصحّةِ معنَاه، ولأَنه وافقَ حقاً. قال رسولُ الله ﷺ:

---

(١) الرَّبَابُ: السحاب والتَرَيّع: التردد.
(٢) الذِهَابُ: مفردها ذِهبة: السحابة الغزيرة.
(٣) الوسميّ: أول النبات والخِرْوَع: اللين من كل شيء.
(٤) الآظار: جمع ظئر المرضعة لغير ولدها من الناس والإبل والروائم: التي تعطف على الرضيع وتدرّ له.
المجر والمصرع: مصدران من الجرّ والصرع.
(٥) السَقْبُ: ولد الناقة.
(٦) الخَبْلُ: قطع اليد أو الرجل.

«الناس كإبلٍ مِئةٍ، لا تكادُ ترى فيها راحلة» وقد قال الآخر لشجراتٍ ضربَ بِهنّ مثلاً:

إذا لَمْ يَكُنْ فِيكُنّ ظِلٌ ولاَ جَنىً ... فَأبْعَدَكُنّ اللّهُ مِنْ شَجَراتِ

والرجلُ ـ رحمَهُ الله ـ الذي أنشأنا هذا الكتابَ بسببهِ، ومنْ أجلِ وفاتهِ، نأمنُ أن يلحقَ وصفنَا إياهُ تزيُّدٌ أو تكلف لإجماعِ العامةِ فيهِ على قولِ الخاصةِ. فكأن شيءٌ وقعَ إلهاماً، وكأنَ مادحَه يستملي مدحَه من قولِ القائلِ:

جَلّتْ مُصيبتُهُ فَعَمّ مُصابُهُ ... فالنّاسُ فِيهِ كُلُّهُمْ مأجُورُ

والنّاسُ مَأتَمُهُمْ عَلَيْهِ واحِدٌ ... في كُلِّ دارِ رَنّةٌ وَزَفِيرُ

تَجري عَلَيْكَ دُمُوعُ مَنْ لَمْ تُولِهِ ... خَيراً لأنّكَ بالثّناءِ جَدِيرُ

ويشاكلُ هذا المعنى قولَ عمارةِ بن عقيل[1] لخالدِ بن يزيد بن مَزْيَد[2]:

أرَى النّاسَ طُرّاً حامِدِينَ لِخالِدٍ ... وَمَا كُلّهُمْ أفْضَتْ إليْهِ صَنَائِعُهْ

قال: النصبُ في «كلَهمْ» أحبُ إليَّ، والرفعُ جيّد.

وَلَنْ يَتْرُكَ الأقْوامُ أن يَحْمَدُوا الفَتَى ... إذا كَرُمَتْ أعْراقُهُ وطَبائِعُهْ

فَتًى أمْعَنَتْ ضَرّاؤهُ في عَدوّهِ ... وَخصّتْ وَعَمّتْ في الصّديقِ منافِعُهْ

وإن سَلِم أحدُ من أن يكونَ له عَدُوٌ فإسماعيلُ بن إسحاق القاضي رحمةُ الله عليه، ذلكَ الرجل. ولكن مَنْ سَلِمَ مِنْ أن يُعادَى لجنايةٍ فَغيْرُ سَالمٍ من حَاسدٍ باغٍ.

وحدثني الرياشي[3] قال: حدثني محمد بن عبد الله الأنصاري[4] في إسناد قال: صلّى أبو بكرٍ رحمةُ الله عليه صلاةَ الصُبْح يوماً، فلما انفتلَ قامَ مُتَمّمُ بنُ نُويْرة في آخرِ الناسِ، وكان رجلاً أعورَ دميماً، فاتكأ على قوسهِ ثم قال:

---

(١) عُمارة بن عَقيل بن بلال بن جرير بن عطية: من أحفاد جرير الشاعر سكن بادية البصرة ومدح الخلفاء العباسيين أخذ عنه النحويون وعمي قبل موته (١٨٢ ـ ٢٣٩ هـ) (الأعلام: ج ٥، ص ٣٧).

(٢) خالد بن يزيد بن مَزْيَد الشيباني: أمير ووالٍ عباسي جواد وهو ممدوح أبي تمام توفي سنة ٢٣٠ هـ (الأعلام: ج ٢، ص ٣٠١).

(٣) أبو الفضل العباس بن الفرج بن علي بن عبد الله الرياشيّ البصري: لغوي وراوية عالم بأيام العرب قتل في فتنة الزنج في البصرة (١٧٧ ـ ٢٥٧ هـ) (الأعلام: ج ٣، ص ٢٦٤).

(٤) أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن المثنى بن أنس بن مالك: ففيه تولّى قضاء البصرة ثم بغداد أيام الرشيد رجع إلى البصرة وتوفي فيها (٢١٥ هـ) (تاريخ بغداد: ج ٣، ص ٤٠٨).

نِعْمَ القَتيلُ، إذا الرِّياحُ تَناوَحَتْ خَلْفَ البُيُوتِ، قَتَلْتَ يا بْنَ الأَزْوَرِ
أَدَعَوْتَهُ بِاللهِ ثُمَّ غَدَرْتَهُ لَوْ هُوَ دَعَاكَ بِذِمَّةٍ لَمْ يَغْدِرِ

وأومأ إلى أبي بكر، فقال أبو بكر رضي الله عنه: والله ما دعوتهُ ولا غدرتُ بهِ، ثم اتكأ متممُ على سِيَةِ قوسهِ حتى دمعتْ عينهُ العوراءُ، ثمَّ أتمَ شعرَهُ فقالَ:

لاَ يُمْسِكُ العَوْرَاءَ تَحْتَ ثِيابِه حُلْوٌ شَمائِلُهُ عَفِيفُ المِئْزَرِ
وَلَنِعْمَ حشْوُ الدِّرْعِ كُنْتَ وَحاسِراً وَلَنِعْمَ مَأْوَى الطَّارِقِ المُتَنَوِّرِ

فقامَ إليهِ عمرُ فقال: لَوَدِدْتُ أنك رَثَيْتَ أخي بما رثيت بهِ أخاك. فقال له: يا أبا حفصٍ، لو أعلمُ أن أخي صارَ حيثُ صارَ أخوكَ ما رثيتهُ يقول: إن أخاكَ قُتِلَ شهيداً. فقالَ عمر: ما عزّاني أحدُ بمثلِ تعزيتِكَ.

وفي حديثٍ آخر أنه رثى زيدَ بن الخطّاب[1] فلم يُجِدْ، فقال له عمر: لم أركَ رثيتَ زيداً كما رثيتَ أخاك مالكاً، فقال: إنه واللهِ يُحرّكني لِمالكٍ ما لا يحرّكني لِزيَدٍ. وقالَ له عمرُ يوماً: إنك لَجَزْلٌ فأينَ كانَ أخوكَ منكَ؟ فقالَ: كان، واللهِ، أخي في الليلةِ ذاتِ الأزيزِ والأصواتِ والصُّرّادِ، يركبُ الجمَلَ الثَّفالَ بين المَزادَتَيْنِ المُتَلَونتَيْنِ، ويَجْنُبُ الفَرسَ الجَرُورَ[2]، وعليه الشَّمْلةُ الفَلوتُ[3]، وفي يدهِ الرمحُ الثقيلُ حتى يصبحَ متهلّلاً، ولقد أُسِرْتُ مرةً في بعضِ أحياءِ العربِ فمكثتُ فيهم سنةً أحدثهم وأغنّيهم، فما أطلقوني. فلما كانَ بعدُ، وقفَ عليهِمْ مالكٌ في شهرٍ من الأشهرِ الحرمِ، فحادثَهم ساعةً ثم استوهبني منهمْ وهم لا يعرفونَه فوهبوني لهُ، فعلمتُ أن ساعةً من مالكٍ أكثرُ من حَوْلٍ مني.

قال: وأمّا مرثيةُ دُريدِ بن الصمّةِ فكانَ الأصمعيُّ يقدمُها جِداً، وهي أهلُ ذاك. وكانَ سببُ هذه المرثيةِ أنّ أخاهُ عبد اللهِ بن الصمّة أحدَ بني جُشَم بن بَكر ابن هَوازِن، غزا قبائلَ غطفان بن سعد بن قيس بن مُرَّة، وفزازة وأشجع وعبْس بن بَغيض. فاكتسحَ أموالَهم وانصرفَ، فلم يجاوزْ بعَيداً حتى أناخَ وأمرَ بالإبلِ تُنْحَرُ، فقالَ له أخوهُ دُريد: يا أبا فُرعان، إنَّ غطفان غيرُ نائمةٍ عنْ أموالها فتقدم شيئاً ثم

(١) زيد بن الخطاب: قتل في اليمامة وكانت الراية معه فحزن عليه عمر كثيراً كان زيد أسن منه وأسلم قبله (../١٢ هـ) (الأعلام: ج ٣، ص ٥٨).
(٢) الفرس الجرور: الذي لا يكاد ينقاد مع من يجنبه وإنما يجر الحبل.
(٣) الشملة الفلوت: التي لا تكاد تثبت على حاملها.

أَنخ. فقال: لا والله لا أَريمُ حتى آخذ مِرْباعي[1] وأنتقعُ نقيعتي، فأمر بالإبل فنُحِرَتْ، وأجلسوا رَبيئتَهُمْ[2] فلمّا سطعتِ الدواخنُ قالَ له الربيئةُ: إني أرى عَبرةً قد ارتفعتْ أكثرَ من هذه الدواخنِ. قالوا: فتأملْ ماذا ترى. قال: أرى قوماً على خيلِهم كأنَهُم الصبيان. قالوا: هذه فزازة، لا بأس، فتأملْ. قال: أرى قوماً كأنهم غُمِسوا في الجَأبِ[3] فقالوا: تلك أشجعُ ولا بأس، تأملْ. قال: أرى قوماً كأنما يتقلّعون من صخر، يقلعون دوابَهم ببَوادِّهم. قالوا: تلك عبسٌ والموت. فلم ينشَبوا أن التقى القومُ فاقتتلوا شيئاً، ثم نادوا: أُردي، واللهِ، فارسٌ هو أبو فُرعان، فأقبل دريدٌ فإذا به صريعاً، وأصابَ دريداً جراحاتٌ. وله خبر في ذلك اليومِ ليسَ من هذا. ففي ذلك يقولُ في كلمتهِ هذه:

وَقُـلْـتُ لِـعَـارِضٍ وَأَصْـحَـابِ عَـارِضٍ ... وَرَهْـطِ أَبـي الـسَّـوْدَاءِ وَالـقَـوْمُ شُـهَّـدي
أَمَـرْتُـهُـمُ أَمْـرِي بِـمُـنْـعَـرَجِ الـلِّـوَى ... فَلَـمْ يَسْتَبِينوا النُّصْحَ إلاَّ ضُحى الغَدِ
فَلَـمَّا عَـصَـوْني كُنْـتُ مِنْـهُمْ وَقَدْ أَرَى ... غَـوَايَـتَـهُـمْ وَأَنَّـنـي غَـيْـرُ مُـهْـتَـدِ
فَـمَـا أَنَـا إلاَّ مَـنْ غَـزِيَّـةَ إنْ غَـوَتْ ... غَـوَيْـتُ وَإنْ تَـرْشُـدْ غَـزِيَّـةُ أَرْشُـدِ
فَـقُـلْـتُ لَـهُـمْ: ظُـنُّـوا بِـأَلْـفَـيْ مُـقَـاتِـلٍ ... سَـرَاتُـهُـمُ فـي الـفَـارِسِـيِّ الْـمُـسَـرَّدِ
فَـنَـادَوْا وَقَـالُـوا: أَرْدَتِ الْـخَـيْـلُ فَـارِساً ... فَـقُـلْـتُ: أَعَـبْـدُ الـلَّـهِ ذَلِـكُـمُ الـرَّدِي؟
فَـجِـئْـتُ كَـأُمِّ الـبَـوِّ رِيـعَـتْ فَـأَقْـبَـلَـتْ ... إلـى جِـذَمٍ مِـنْ جِـلْـدِ سَـقْـبٍ مُـقَـدَّدِ[4]
فَـمَـا رَاعَـنـي إلاَّ الـرِّمَـاحُ تَـنُـوشُـهُ ... كَوَقْعِ الصَّيَاصِي في النَّسِيجِ المُمدَّدِ[5]
فَـإنْ يَـكُ عَـبْـدُ الـلَّـهِ خَـلَّـى مَـكَـانَـه ... فَـمَـا كَـانَ وَقَّـافـاً ولا طَـائِـشَ الـيَـدِ
كَـمِـيـشُ الإِزَارِ خَـارِجٌ نِـصْـفُ سَـاقِـهِ ... بَـعِـيـدٌ مِـن الـسَّـوْءَاتِ طَـلاَّعُ أَنْـجُـدِ
قَـلِـيـلُ الـتَّـشَـكِّـي لِـلْـمُـصِـيـبـاتِ حـافِـظٌ ... مَـعَ الـيَـوْمِ أَدْبَـارَ الأَحَـادِيـثِ فـي غَـدِ
وَهَـوَّنَ وَجْـدِي أَنَّـنـي لَـمْ أَقُـلْ لَـهُ: ... كَـذَبْـتَ، وَلَـمْ أَبْـخَـلْ بِـمَـا مَـلَـكَـتْ يَـدِي

وأَشعارُ الجاهليةِ مشهورةٌ معروفةٌ، وإنما نملي منها العيونَ. ألا ترى إلى قوله «قليلُ التشكي للمصيباتِ» ثم وصله بقوله «حافظٌ مع اليوم أدبارَ الأحاديثِ

---

(١) المرباع: ربع الغنيمة والنقيعة ما نحر من النهب قبل القسمة.

(٢) الربيئة: العين والحارس.

(٣) الجأب: طين أحمر يُصبغ به.

(٤) جِذَم: قطع.

(٥) صياصي: مفردها صِيصِيَة: شوكة الحائك التي يسوي بها السداة واللحمة.

في غدِ» كيف قَرَنَ فيه معنًى طريفاً بآخرَ مثلَه في الظرافةِ التي لا يَمتَنِعُ اللبيبُ من قَبولِها واستحسَانِها والمعرفةِ بحقيقةِ ما فيها كما قلنا في الذي قبلَه.

وكذلكَ قولُ كعب بن سَعْد الغَنَوي:

وَدَاعٍ دَعَا: يَا مَنْ يُجيبُ إلى النَّدَى؟ فَلَمْ يَسْتَجِبْهُ عِنْدَ ذَاكَ مُجيبُ
فَقُلْتُ: ادْعُ أُخْرى وَارفَعِ الصَّوْتَ رَفْعَةً لَعَلَّ أَبَا المِغْوَارِ[1] مِنْكَ قَريبُ

ألا ترى ما وصفَه بِهِ منَ الجودِ الذي هو عادة يُجتمع عليها ثم لم يَعدلْ به أحداً؟.

وكذلكَ قولُ أعشى باهِلَة في مرثيتِهِ المُنْتَشِرَ بن وَهْب حيث يقول في جَلدِهِ، إذ كان جُلّ ما فيه مِما يُمدح به فيما مكان به موصوفاً:

مَا يَغْمِزُ السَّاقَ مِنْ أَيْنٍ وَمِنْ وَصَبٍ وَلاَ يَعَضُّ عَلَى شُرْسُوفِهِ الصَّفَرُ[2]
مَاضِي العَزِيمِ عَلَى العَزَاءِ مُنْصَلِتٌ بِالقَوْمِ لَيْلَةَ لاَ مَاءٌ وَلاَ شَجَرُ[3]
كَأَنَّهُ عِنْدَ صِدْقِ القَوْمِ أَنْفُسَهُمْ بِاليَأْسِ تَلْمَعُ مِنْ قُدَّامِهِ البُتُرُ

ولا نعلمُ بيتاً في هذا المعنى مِنْ يُمنِ النقيبةِ وبركَةِ الطلعةِ أبرعَ من هذا، فإنما نملي هذا الضربَ منَ العيونِ. ومثل ذلك قوله:

لاَ يَتَأَرَّى لِمَا فِي القِدْرِ يَرْقُبُهُ وَلاَ تَرَاهُ أَمَامَ القَوْمِ يَقْتَفِرُ[4]

قالَ أبو العباس: وحدثنا الرِّياشيُّ في إسنادِ ذكرَه قال: أنشَد مُنْشِدٌ أبا بَكرٍ الصدِّيق (رضي الله عنه) قولَ زهير في هَرِمِ بن سِنان:

أَنْ نِعْمَ مُعْتَرَكُ الجِيَاعِ إِذَا خَبَّ السَّفِيرُ وَسَابِئُ الخَمْرِ[5]
وَلَنِعْمَ حَشْوُ الدِّرْعِ أَنْتَ إِذَا دُعِيَتْ: نَزَالِ وَلُجَّ فِي الذُّعْرِ
وَمُرَهَّقُ النِّيرَانِ يُحْمَدُ فِي الـ لأَواءِ غَيْرُ مُلَعَّنِ القِدْرِ[6]

فجعلَ أبو بكرٍ يقولُ عندَ كلِّ بيتٍ: هكذا كانَ رسولُ الله ﷺ حتى أنشدَهُ:

---

(١) أبو المغوار: أخو كعب الذي يرثيه.
(٢) الشُرْسُوف: رأس الضلع مما يلي البطن.
(٣) المنصلت: الماضي في الحوائج.
(٤) يتأرى: ينحبس ويقتفر: يتعرق العظم.
(٥) معترك الجياع: موضع اجتماعهم والسفير: ورق الشجر تطيره الريح. وسابىء الخمر: مشتريها.
(٦) مُرَهَّقُ النيران: موقدها ليلاً ليعشو إليها الضيف.

وَالسِّتْرُ دونَ الفاحِشَاتِ وَمَا ... يَلْقَاكَ دُونَ الخَيْرِ مِنْ سِتْرِ

فقال: هكذا، واللَّهِ، كانَ رسولُ الله ﷺ. ثم قال: أَشْعَرُ شعرائِكم زُهير.

ويُروى من غيرِ وجهٍ ـ حدثناه مسعود بن بشر وغيره ـ أنه لما مات مَخْلدُ بن يزيد بن المهلب[1]، حضره عمر بن عبد العزيز وصلى عليه ثم قال:

[الكامل]

بَكُّوا حُذَيْفَةَ لاَ تُبَكّوا مِثْلَهُ ... حتَّى تَبِيدَ قَبائلٌ لَمْ تُخْلَقِ

ثم قال: لو أرادَ اللَّهُ بيزيدَ خيراً لأبْقَى له هذا الفتى. فهذا من الأبيات الجامعةِ كنحو ما ذكرنا.

ولقد أحسنتِ الكِنْدِيَّةُ في قولها في إخوتها:

[الطويل]

أَبَوْا أَنْ يَفِرُّوا وَالقَنا فِي نُحورِهِمْ ... فَماتُوا وَأَطْرافُ القَنا تَقْطُرُ الدَّمَا
وَلَوْ أَنَّهُمْ فَرُّوا لَكانوا أعِزَّةً ... وَلَكِنْ رَأَوْا صَبْراً عَلى المَوْتِ أَكْرَما
هَوَتْ أُمُّهُمْ مَاذا بِهِمْ يَوْمَ صُرِّعُوا ... بِجَيْشَانَ مِنْ أَسْبَابِ مَجْدٍ تَصَرَّما[2]

والقائل:

[الوافر]

أَلاَ لَهْفَ الأَرامِلِ وَاليَتامى ... وَلَهْفَ الباكِياتِ عَلى قُصَيٍّ
لَعَمْرُكَ ما خَشِيتُ عَلى قُصَيّ ... مَنِيَّةَ بَيْنَ سَلْعٍ وَالسُّلَيِّ[3]
وَلَكِنّي خَشِيتُ عَلى قُصَيٍّ ... جَرِيرَةَ رُمْحِهِ في كُلِّ حَيِّ

فأحسنُ الشعرِ ما خلطَ مدحاً بتفجعٍ، واشتكاءً بفضيلةٍ، لأنه يجمعُ التوجّعَ الموجعَ تفرّجاً، والمدحَ البارعَ اعتذاراً من إفراط التفجّع باستحقاقِ المرثيّ. وإذا وقعَ نظمُ ذلكَ بكلامٍ صحيحٍ ولهجةٍ معربةٍ ونظمٍ غيرِ متفاوتٍ فهو الغايةُ من كلامِ المخلوقينَ.

---

(١) مَخلد بن يزيد بن المهلّب بن أبي صفرة: أمير للأمويين مات بالشام (ـ/ ١٠٠ هـ) قال فيه عمر بن عبد العزيز: هذا فتى العرب. (الأعلام: ج ٧، ص ١٩٤).

(٢) جَيْشَان: مدينة وكورة باليمن ينسب إليها الخُمُر السود (معجم البلدان: ج ٢، ص ٢٠٠).

(٣) سَلْع والسُّلَيّ: سلع جبل في ديار هذيل والسّلي موضع في بلاد عام (معجم البلدان: ج ٣، ص ٢٣٧) و (ج ٣، ص ٢٤٤).

واعلمْ أنَّ قولَ الخنساءِ من أجملِ الكلام حيثُ تقول:

[البسيط]

وَإِنَّ صَخْراً لَوَالِينا وَسَيِّدُنا ... وَإِنَّ صَخْراً إذا نَشْتُو لَنَحَّارُ

وَإِنَّ صَخْراً لَتَأْتَمُّ الهُدَاةُ بِهِ ... كَأَنَّهُ عَلَمٌ فِي رَأْسِهِ نارُ

فجعلته مَوضعاً للسؤددِ ومَعْنِيّاً بأمرِ العشيرة لقوله: «لوالينا وسيدّنا»، وجواداً مُفضِلاً نحاراً في وقت الإقتار والشَّتوة، ثم قالت: «وإن صخراً لتأتمُ الهداةُ به» فجعلتهُ إمامَ الأئمةِ، ثم جعلتهْ عَلَماً - والعَلَم: الجبل -، فلم تقتصر على ذلكَ حتى جعلتْ في رأسِهِ ناراً، شُهْرَةً في الكَرمِ، وناراً على عَلمٍ في الهِداية.

وقول اللَّهِ عزّ وجلّ: ﴿ولهُ الجَوَاري المُنْشَآتُ في البَحْرِ كالأعْلامِ﴾[1] إنما هي الجبالُ. وقال جرير:

إذا قَطَعْنَ عَلَماً بَدَا عَلَمْ

ومن عجيبِ ما قيلَ قولُ النابغة في حِصْنِ بن حُذَيْفَةَ[2] إكباراً لشأنه، واستعظاماً لموتهِ، وتعجّباً من ذهابِ مثلهِ:

[الطويل]

يَقُولُونَ حِصْنٌ ثُمَّ تَأْبى نُفُوسُهُمْ ... وَكَيْفَ بِحِصْنٍ وَالجِبالُ جُنُوحُ؟

وَلَمْ تَلْفِظِ المَوْتَى القُبُورُ وَلَم تَزَلْ ... نُجُوم السَّماءِ وَالأَدِيمُ صَحِيحُ

فَعَمَّا قَلِيلٍ ثُمَّ جاءَ نَعِيُّهُ ... فَظَلَّ نَدِيُّ الحَيِّ وَهْوَ يَنُوحُ

وذكرنا أَوْساً ومراثيه في فَضالَةَ بنِ كَلَدَةَ الأسديّ. وكان من خبره معه أنه قصدَه من أرضِ بني تديم، فلما قاربَ منزلَه، جالتْ به ناقتهُ فرمت به فكُسِرَتْ فَخِذُه. فأقامَ لَيلَته مكانَه لا يريمُ حتّى إذا أصبحَ نظرَ وهو في عام خصيبٍ إلى جَوارٍ منْ صَبيّاتِ بَني أسدٍ، قد خرجن يَجْتَنينَ الكَمْأة، فجعل يَنْسِبُهَنَّ حتى وقفَ على ابنةِ فَضَالة، فقال لها: خذي هذا الحجرْ فَأتي به أباك، فقولي له: قد زارك ابنُ هذا، وخبّريهِ بحالي، فلما أتته قال: أتانا، والله، بمدحِ كثيرٍ أو بذّمٍ كثيرٍ. فأتاهُ، فضرب عليه قبّةً، ولم يزل يعالجهُ حتّى بَرَأ.

قال الأصمعيّ: وفي بني أسد حَذاقةٌ بالجَبْرِ. قال: وسمعتُ أعرابياً من بني

(١) سورة الرّحمن: الآية ٢٤.

(٢) حِصْن بن حُذَيفَة بن بدر الفزاري: قائد قبيلة ذبيان في يوم شعب جبلة يضرب بأبيه المثل في سرعة السير (البيان والتبيين: ج ٣، ص ٣٧).

أسد يقول: أنا أَجْبَرُ الناس لِفَكّ أوْ تَزْقوةِ. قال الأصمعي: وهما أشَدُّ ما يُجْبَر. ففي ليلته تلكَ يقول:

[المتقارب]

خُـذِلْـتُ عَـلَـى لَـيْـلَـةٍ سَـاهِـرَهْ بِـصَـحْـراءِ شَـرْجٍ إلـى نـاظِـرَهْ
تُـزادُ لَـيَـالِـيَ فـي طُـولِـهـا فَـلَـيْـسَـتْ بِـطَـلْـقٍ وَلاَ سَـاكِـرَهْ[1]
كَـأَنَّ أَطَـاوِلَ شَـوْكِ الـسَّـيَـالِ تَـشُـكُّ بِـهِ مَـضْـجَـعِـي شَـاجِـرَهْ[2]

وفي حليمة بنت فضالة بن كلدة التي ذهبت إلى أبيها برسالتِه يقول:

[الطويل]

لَـعَـمْـرُكَ مَـا ذَمَّـتْ ثَـوَاءَ ثَـوِيِّـهـا حَـلِـيـمَـةُ إذْ أَلْـقَـتْ مَـراسِـيَ مُـقْـعَـدِ
وَلـكِـنْ تَـلَـقَّـتْ بِـالـيَـدَيْـنِ ضَـمـانَـتـي وَحَـلَّ بِـفَـلْـجٍ فَـالـدَّثِـيـنَـةِ عُـوَّدي[3]
وَلَـمْ تُـلْـهِـهَـا الـتَّـكَـالِـيـفُ إنَّـهـا كَـمـا شِـئْـتَ مِـنْ أُكْـرُومَـةٍ وَتَـخَـرُّدِ[4]
سَأَجْزِيـكِ أَوْ يَـجْـزِيـكِ عَـنِّـي مُـثَـوِّبٌ وَقَـصْـرُكِ أَنْ يُـثْـنَـى عَـلَـيْـكِ وَتُـحْـمَـدي

فأقام عند فَضالة مدةً يسيرةً ثم ماتَ فضالة ففيه يقولُ قصائدَ نذكرُ بعضهاوالمختارَ منها:

قالَ أبو عُبيدة: كانَ أوسُ بن حَجَر شاعرَ مُضَرٍ في الجَاهليةِ حتى نشأ زهيرٌ والنابغةُ فوضعا مِنه، ولكنّه شاعرُ تميم غير مُدافَعٍ فمما قال فيه:

[المنسرح]

أَيَّـتُـهـا الـنَّـفْـسُ أَجْـمِـلـي جَـزَعـا إنَّ الَّـذي تَـحْـذَريـنَ قَـدْ وَقَـعـا
إنَّ الـذي جَـمَّـعَ الـسَّـمَـاحَـةَ وَالـنَّـ ـجْـدَةَ وَالـبَـأْسَ وَالـقُـوَى جُـمَـعـا
الأَلْـمَـعِـيُّ الَّـذي يَـظُـنُّ لَـكَ الـظَّـ ـنَّ كَـأَنْ قَـدْ رَأَى وَقَـدْ سَـمِـعـا
وَالـمُـتْـلِـفُ الـمُـخْـلِـفُ الـمُـرَزَّأُ لَـمْ يُـمْـتَـعْ بِـضَـعْـفٍ وَلَـمْ يَـمُـتْ طَـبَـعـا
وَالـحَـافِـظُ الـنَّـاسَ فـي تَـحُـوطَ إذَا لَـمْ يُـرْسِـلُـوا خَـلْـفَ عَـائِـذٍ رُبَـعـا
وَعَـزَّتِ الـشَّـمْـأَلُ الـرِّيَـاحَ وَقَـدْ أَمْـسَـى كَـمِـيـعُ الـفَـتَـاةِ مُـلْـتَـفِـعـا
وَشُـبِّـهَ الـهَـيْـدَبُ الـعَـبَـامُ مِـنَ الأَقْـ ـوامِ سَـقْـبـاً مُـلَـبَّـسـاً فَـرَعَـا
وَكَـانَـتِ الـكَـاعِـبُ الـمُـمَـنَّـعَـةُ الـحَـ ـسْـنَـاءُ فـي زَادِ أَهْـلِـهـا سَـبُـعـا
لِـيَـبْـكِـكَ الـشَّـرْبُ وَالـمُـدامَـةُ وَالـفِـ ـتْـيَـانُ طُـرّاً وَطَـامِـعٌ طَـمِـعـا

---

(١) ساكرة: ساكنة الريح.
(٢) شاجرة: طاعنة.
(٣) الضمانة: العاهة. وفلج والدثينة: موضعان.
(٤) الخريدة: البكر.

وَذَاتُ هِـدْمٍ عَـارٍ نَـوَاشِـرُهـا تـضْـمِـتُ بِـالْـمَـاءِ تَـوْلَـبـاً جَـدِعـا

تأويل ما في هذه القصيدة مما ليس بواضح إلا بَعدَ نظر:

قوله:

أيـتـهـا الـنـفـس اجـمـلـي جـزعـا إنّ الـذي تـحـذريـن قـد وقـعـا

تقول العرب: «الحَذَرُ أشدّ من الوقيعة». وإنما حَقُّ الشيء المتخوَّف أن يكون صاحبه مُرتاعاً حِذْرَ وقوعه، فإذا وقع البأس ارتفعَ ذلك الحذرُ.

ومن ذلكَ ما يتدارسهُ الصالحون: إذا استأثر الله عزَّ وجل بشيء فَالْهَ عنه.

ويُحكى عن بعضِ الأعاجم من مُلوكِهم أنّه ماتَ لهُ ابنٌ فلم يجزَعْ عليه، وأقبلَ على شأنِه، فسُئلَ عن ذلكَ فقال: إنما الروعةُ قبلَ وقوعِ المَخُوفِ، فإذا وقع فعلى اللبيب ألاّ يُنسبَ إلى الوقوفِ متفكراً في إثرِ مالا يُدْرَكُ، ولكن ليزجر النفسَ عن خِطائها، ويعمل الشغلَ فيما يُجدي عليه.

وقوله:

الألْـمَـعـيّ الـذي يَـظُـنُّ لـكَ الـظَّـ ـنَّ كـأنْ قَـدْ رَأى وَقَـدْ سَـمِـعَـا

الألمعي: الحديدُ القلبِ الذي يوقعُ الشيءَ موقعَهُ. وهذا مَثَلٌ لا نعلمهُ لأحدٍ قبلَه. وكان مولانا أَمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقوله بأوضح من هذا. كان يقول: لا يَعِيشُ بِعِلْم أحَدٌ حَتَّى يَعِيشَ بِظَنِّه، وقال الزُّبَيْرُ بن العَوَّام: لا عَاشَ بِخَيْر منْ لمْ يُره ظنُّه ما لمْ تُرهِ عيْنهُ. وقال عمرو بن العاص: ظَنُّ الرَّجُلِ قِطْعَةٌ مِنْ عِلمه، وَلِسانُهُ قِطْعَةٌ مِنْ عقلهِ.

وقوله: «المُخلِفُ المتلِفُ» قد جَمع فيه ما يغني عن التفسير والتَّزَيُّد إذ يقول: يُتلِف جوداً وكرماً، ويُخلِف نَجْدَةً واكتساباً.

وقولُه: «لَمْ يُمْتَعْ بِضَعْفِ» أي لم يُقْرَنْ به. تقول: أمتعَ اللّهُ بفلانٍ أي أبقاهُ الله حتى يتمتع به أحباؤه. وكما قال جرير لعبدِ العزيز بن الوليد:

[الوافر]

إذا جَـدَّ الـرَّحـيـلُ بِـنـا فَـرُحْـنـا فَـأَحْـسَـنَ ذو الـجَـلالِ بِـكَ الـمَـتـاعـا

وقولُه: «ولم يمتْ طَبَعا» يقال: طَبعَ يَطْبَعُ طبعاً إذا غلبَ عليه الحرصُ حتى يُغطّي على قلبه. ويقال: طَبيع السيفُ إذا ركبه الصدأُ حتى يغطي على صميمِ

الحديدة. وقوله: «والحافظُ الناسَ في تَحُوط» يقال للسنةِ الجدبة: «تَحوط» و «قَحُوط» بالتاءِ والقاف جميعاً. وقولُه: «إذا لم يُرسلوا خلْف عائذٍ رُبَعا» العائذ: التي معها ولدها، فإذا كانتِ السنةُ الجَدْبةُ نحروا الفِصالَ لئلا تَضُرَّ بالأمهاتِ. وقوله: «وعزّت الشمألُ الرياحَ» يقول: غلبت الرياحَ وتلك علامةُ الجدْبِ والقحطِ، لأن الجنوبَ هي التي تأتي بالنّدى والمطرَ. ويقال عز فلانٌ فلاناً إذا قهرَه. وقول الله جل ثناؤه: ﴿**وَعَزَّني في الخِطَاب**﴾[1] أي كان أعزَّ مني في المخاطبةِ. وقولهم في المَثَلِ. «مَنْ عَزّ بَزَّ» أي من غلبَ كان استلبَ. و «الكميع»: الضجيع. يقال: كامَعَها. يقال: أضحى كَميعُها ملتفعاً. والمُلتفع: المُلتحف. فهو منقبضٌ عنها مشغولٌ بما يلاقي من القُرّ. وقوله: «وكانتِ الكاعبُ الممنعةُ الحسناءُ» الكاعب: التي كَعَبَ ثدياها. قال الله جلّ وعزّ: ﴿**وكَواعِبَ أتْرابا**﴾[2] والمُمنَّعة: المحفوظة المخبأة، كانت كالسبعِ في زادِ أهلها، وإنما من شأنها أن تُتَرَّف وتُنَعَّم إذا كانت في هذه الصفة.

وقوله: «وَشُبِّهَ الهَيْدَبُ العَبامُ» فالهيدبُ: المسترخي، والعبامُ: الثقيل الذي لا يكادُ ينبعثُ، فشُبّه في انقباضِه بالسَّقْب، وهو ولدُ الناقةِ إذا كان ذَكَراً، وإن كان أنثى فَحائلٌ. «مُلَبَّساً فَرَعا» أي قد جُعِلَ عليه جلدُ الفَرَعِ، وهو فصيلٌ كانوا يتقربون به في الجاهليةِ فقال رسول الله ﷺ: «لا فَرَع» فأبطلَه الإسلامُ.

وقوله: «وذات هِدْم» فا (لأهدام) خُلْقانُ الثياب، فَيَصِفُ الفقيرةَ وأنّه كانَ لها ملجأً. وقوله: «عارِ نواشرُها»: من الضُرِّ والجوع والبؤس. والنواشرُ: عروقُ الذّراع، كما قال زهير:

وَدَارٌ لِـهـا بِـالـرَّقْـمَـتَـيْـنِ كَـأَنَّـهـا ... رَواجِـعُ وَشْـمٍ فـي نَـواشِـرِ مِـعْـصَـمِ

وقوله «تُصْمِتُ بالماءِ» أي تسكّنُ طفلَها بالماء، وتسكنُه إذْ لَم يكن له ثُقْلٌ. و «الجَدِعُ»: السيّء الغذاء، وكذلك الجَحِنُ والقَتِينُ. ومما قال فيه مما اخترناه:

أَلَـمْ تُـكْـسَـفِ الـشَّـمْـسُ وَالْـبَـدْرُ وَالْـ ... ـكَـواكِـبُ لِـلْـجَـبَـلِ الْـوَاجِـبِ
لِـفَـقْـدِ فَـضَـالَـةَ لاَ تَـسْـتَـوِي الْـ ... ـفُـقُـودُ وَلاَ خَـلَّـةُ الـذَّاهِـبِ
أَلَـهْـفَـا عَـلَـى حُـسْـنِ أَخْـلاقِـهِ ... عـلـى الْـجَـابِـرِ الْـعَـظْـمَ وَالْـحَـارِبِ

(١) سورة ص: الآية ٢٣.
(٢) سورة النبأ: الآية ٣٣.

عَـلـى الأَرْوَعِ الـسَّـقْـبِ لَـوْ أَنَّـهُ | يَـقُـومُ عَـلـى ذِرْوَةِ الـصَّـاقِـبِ
لأَصْـبَـحَ رَتْـمـاً دقـاقَ الْـحَـصَـى | كَـمَـتْـنِ الـنَّـبِـيِّ مِـنَ الْـكـاثِـبِ
وَرِقْـبَـتِـهِ حَـتْـمَـاتِ الْـمُـلُـو | كِ بَـيْـنَ الـسُّـرَادِقِ وَالْـحَـاجِـبِ
وَيَـكْـفـي الْـمَـقـالَـةَ أَهْـلَ الـرِّحَـا | لِ غَـيْـرَ مَـعِـيـبٍ وَلاَ عَـائِـبِ
وَيَـخْـبُـو الْـخَـلِـيـلَ بِـخَـيْـرِ الْـحِـبـا | ءِ غَـيْـرَ مُـكِـبٍّ وَلاَ قَـاطِـبِ
بِـرَأْسِ الـنَّـجِـيـبَـةِ وَالْـعَـبْـدِ وَالْـ | ـوَلِـيـدَةِ كَـالْـجُـؤذُرِ الْـكَـاعِـبِ
وَبِـالأُدْمِ تُـحْـدَى عَـلَـيْـهـا الـرِّجَـا | لُ وَبِـالـشَّـوْلِ فـي الْـفَـلَـقِ الْـعـاشِـبِ
فَـمَـنْ يَـكُ ذَا نَـائِـلٍ يَـسْـعَ مِـنْ | فَـضَـالَـةَ فـي أَثَـرٍ لاحِـبِ
هُـوَ الْـواهِـبُ الْـعِـلْـقَ عَـيْـنَ الـنَّـفِـيـ | ـسِ وَالْـمُـتَـعَـلّـي عَـلـى الْـواهِـبِ
نَـجِـيـحٌ مَـلِـيـحٌ أَخُـو مَـأْقِـطِ | نِـقَـابٌ يُـخَـبِّـرُ بِـالْـغـائِـبِ
فَـأَبْـرَحْـتَ فـي كُـلِّ خَـيْـرٍ فَـمـا | يُـعَـاشِـرُ سَـعْـيَـكَ مِـنْ طـالِـبِ

وهذه القصيدةُ أمليناها بأسرِها لأنها جمعتْ تقدُّمَ كلِّ بيتٍ منها وكثرة المعاني والاختصار.

قوله: «لِلْجَبَلِ الْواجِبِ» فالواجب: الساقط، يقالُ للبعير إذا بَرَكَ فَسُمِعَ صوتُ كرْكرتِه[1]. (وَجَبَ)، وكذلك كلُّ ساقط. قال أبو عبيدة: وأظن قولَهم في الشيء: وَجَبَ أي وقع. وقوله «لِفَقْدِ فَضَالَة» ثم قال: الأَرْوَع السَّقْبِ، يعني فضالة. وهذا كقولك: إني لأُثني على زَيْد، ثم تقول: على الشريف الكريم، وأنتَ تعنيهِ. و «السَّقْب»: الطويلُ. وله مواضعُ هذا أحدها. و «الخَلَّة»: الخَلَل الذي قد تركه، وكان مسدوداً به. وأصلُ الخَلّة: الثُّلمة. يقال: فلان به خَلّةٌ أي ليس أمره مستوياً، وفلان مُختلّ الجسمِ كذلك.

وقوله «لا تستوي الفُقودُ»، أي المَصائب لاختلافِ أوزانِ أهلها. فمن ذلك مَنْ يوجد منه العِوض، ومنهم من يَعسُر وجودُ مثله. وأقولُ أنا: كمن أنشأنا هذا الكتابَ من أجله، يَبْعُدُ في الوهم إدراكُ نظيرَه ومُدانيه، فضلاً عن مُساويه.

و «الصاقب» ـ الذي ذكر ـ: جبلٌ معروفٌ بعينه. يقول: فلو تحاملَ عليه. وليسَ «يقوم» من القيام على القدم، من قولك: «فلانٌ يقوم بأمرِ أهله»، «ويقومُ بهذا الأمر» أي يدافع عنه. فيقول: لو دافع الجبلَ العظيم متحاملاً عليه لأصبحَ

(١) الكِرْكِرَةُ: رحى زور البعير والناقة وهي إحدى الثفنات الخمس وقيل هو الصدر من كل ذي خف.

الجبلُ رَثْماً كظهر النبي ـ وهو رمل بعينه ـ من الكاثب، أي كمكان هذا من هذا. ومثّله أبو عبيدة فقال: كقولك كظهر المربد من البصرة، و «المرتوم» المحطوم المدقوق. يقال: رَثَمَ أَنفهُ أي دقّه.

وقوله «دقاقَ الحَصَى» أي دقيق، مثل قولك: رجل طُوالٌ وطَويلٌ وجُسَامُ وَجَسِيم وخُفاف وَخفيف.

وقوله «ورِقْبته حَتماتِ الملوك» يقول: إذا أحتم على الملوك أمراً أو في أمر يخافه، أطاعه الملك وأجابه. ويقول بعضهم: هي الحُتْمةُ، وينشده حُتُمات مثل ظُلْمَة وُظلُمات. وذكر قرب مكانه من الملوك فقال: بين السُّرادق والحاجبِ. وقوله «وَيكْفي المقالة أهل الرحال» يقول: إذا حضر اسْتُغْنِيَ به عن غيره لبيانهِ وصوابه، فقد كَفى مَنْ وراءه غير معيب عندهم ولا عائب لهم. وهذه الأبيات إذا اعتُبرت فأكثرها يشتملُ البيتَ منه على معانٍ. وقوله:

وَيَحْبُو الخَلِيلَ بِخَيْرِ الحِبَا ءِ غَيْرَ مُكِبٍّ ولا قاطِبِ

أي يُتبع ما يفعلهُ بأجملِ البِشر ولا يُكِبّ مُفكّراً يندم على مافعل، ولا طالباً حيلة يدفع بها السائل، كما قال القائل:

لاَ يَنكُتونَ الأَرْضَ عِنْدَ سُؤالِهِمْ لِتَطَلُّبِ العِلاّتِ بِالعِيدانِ

وقوله «وبالشَّوْل في الفَلَق العاشِب» يقول: يُعطيها في أَحسن حالاتها. والفَلَق: المطمئن من الأرض، وهو موضعُ الكلأ لاستقرار الماء به. وكانت العرب تقول للرجل إذا حَسُنَتْ إبلهُ وسَمِنتْ: أخذت إبلهُ رماحَها، وأخذت إبلهُ سلاحَها. واستنجدت عليه أي مَنَعَتْه أنفسَها من أن توهب أو تُنحر ضَنّاً بها، كقول القائل:

[الخفيف]

لاَ أَخونُ الصَّديقَ ما حَفِظَ العَهْـ ـدَ وَلاَ تَأخُذُ السِّلاحَ لِقاحي

وقال رسولُ الله ﷺ: «هَلَكَ الفَدَّادونَ إلاّ مَنْ أَعْطاها في نَجْدَتِها ورِسْلها»(١)، أي من أعطاها بسهولة ومع امتناعها لحسنها. وهو وقت نجدتها عليه.

---

(١) نجدتها ورسلها: عسرها ويسرها.

وقال ﷺ لقيس بن عاصم[١]: «نعمَ المالُ الأربعون، والكُثر الستون، وهلك أصحاب المئين إلا من نحرَ سمينَها وأفقر ظَهْرها، وَمَنَحَ غزيرتَهَا، وَأَطْرَقَ فَحْلَها، وأَعْطاها في نَجْدِتها وَرِسْلِها».

وقالت ليلى الأَخْيَلِيَّة:

[الطويل]

وَلاَ تَأخُذُ الكُومُ الْجِلاَدُ سِلاحَها ... لِتَوْبَةَ في صِرّ الشِّتاءِ الصَّنابِرِ

الفدّادون: أصحاب الإبل الكثيرة.

وقوله «نَجيحٌ مَلِيحٌ أَخُو مأقِطٍ» يقول: هو في السِلّم سَهْلٌ مُبْتذل حُلْوٌ مقبول، ولا يمنعه ذلك من أن يكون جَلْداً في الحرب. وَالْمَأقِط: موضع مُجْتَلَد القوم. وهو مع هذا فَطنٌ طَبنٌ، مُنَقِّبٌ طَوَّافٌ ببدنه وفكره، يَظُنُّ فَيُصيب. فذلك قوله «يُخْبرُ بِالغائبِ».

وقوله «نقَّاب» أي مُنَقِّبُ في الأمور، كما قال الله جلّ وعز: ﴿**فَنَقَّبوا في البلادِ، هَلْ مِنْ مَحيصٍ**﴾[٢]. وقال امرؤ القيس:

[الوافر]

وَقَدْ نَقَّبْتُ فِي الآفاقِ حَتَّى ... رَضِيتُ مِنَ الْغَنِيمَةِ بِالإِيابِ

ومن هذا قيلَ للطرقات في الجبل: النُّقوب والنِّقاب، واحدها نَقْب. وقال ابنُ الأَيْهَم التَّغلبيّ[٣] يصف خيلاً:

[الخفيف]

وَتَراهُنَّ شُزَّباً كَالسَّعَالي ... يَتَطَلَّعْنَ مِنْ ثُغُورِ النِّقَابِ

وقال أيضاً يرثيه:

[الكامل]

أَأَبا دُلَيْجَةَ مَنْ لِحَيّ مُفْرَدٍ ... صَقِعٍ مِنَ الأَعداءِ في شَوَّالِ؟

وَإذا ذَكَرْتُ أَبا دُلَيْجَةَ أَسْبَلَتْ ... عَيْنِي فَبَلَّ وَكِيفُها سِرْبالِي

---

(١) قيس بن عاصم بن سنان المنقري «أبو علي» أحد أمراء العرب وعقلائهم شاعر وفارس شجاع وفد على النبي ﷺ في وفد تميم قال في النبي ﷺ هذا سيد أهل الوبر واستعمله على صدقات قومه توفي نحو ٢٠ هـ (الأعلام: ج ٥، ص ٢٠٦).

(٢) سورة ق: الآية ٣٦.

(٣) ابن الأَيْهَم التَّغلبي: اسمه عمير شاعر إسلامي كان نصرانياً قيل للأخطل وهو يموت: من تخلف على قومك؟ قال: عمير بن الأيهم. (الأمالي لأبي علي إسماعيل القالي: ج ١، ص ٤٥).

وَمَعَصَّبِينَ عَلَى نَوَاجِ سُدْتَهُمْ مِثْلِ القِسِيِّ ضَوامِرٍ بِرِحَالِ
وَقَوارِصٍ بَيْنَ العَشِيرةِ تُتَّقَى دَاوِيْتَهَا وَسَمَلْتَهَا بِسِمَال
لاَ زَالَ رَيْحَانٌ وَفَغْوٌ نَاضِرٌ يَجْرِي عَلَيْكَ بِمُسْبِلٍ هَطَّالِ
فَلَنِعْمَ وَفْدُ الْحَيِّ يَنْتَظِرونَهُ وَلَنِعْمَ حَشْوُ الدِّرْعِ وَالسِّرْبالِ
وَلَنِعْمَ مَأْوَى الْمُسْتَضِيفِ إذا دَعَا وَالخَيْلُ خَارِجَةٌ مِنَ الْقَسْطَالِ

قوله «مُعَصَّبينَ» يعني ملوكاً قد عُصِّبوا بالتيجان. و «النواجي»: الخيل السِّراع. وقوله «صَقِعٍ من الأعداءِ في شوالِ»، الصَّقِع: المُتَحَيِّر الذي لا يدري أين يتوجه. يقال: صَقَعَ وصَعَقَ، وبنو تميم تقول: صِعق، هي لغتهم. فكأنه الذي أصابته الصاعقة فتحير لتوقُّع الغارة كما يتحير المتوقع الصاعقة. وقال «في شوال» لأنه شهرُ حِلّ، ففيه يُغير الناس بعضهم على بعض. فإن قال قائل: أفليس شهور الحلِّ ثمانية، فما باله خَصَّ هذا؟ فالجواب في ذلك أنه إذا ذُكرَ الشَّيءُ غيرُ المقصود دخل ما كان نظيره في حُكمه. قال الله تبارك وتعالى: ﴿**الذِينَ يذْكرُونَ الله قياماً وَقُعُوداً وَعَلى جُنُوبِهِمْ**﴾[(١)]. ولم يقل على ظهورهم ولم يذكر الارتفاق لأنهُ يُعلم أن الأمر في ذلك واحد. وكذلك قوله جل وعز: ﴿**سَرابيلَ تقيكُمُ الحَرَّ وسَرابيلَ تَقيكُمْ بأسكُمْ**﴾[(٢)]. ولم يذكر البرد. وقوله:

وَقَوارِصٍ بَيْنَ الْعَشِيرَةِ تُتَّقَى دَاوَيْتَهَا وَسَمَلْتَهَا بِسِمَالِ

يقال: سَمَلَ بين العشيرة إذا أصلح، فإنما أراد به السيد الذي يأتمرون بأمره. و «الفَغْوُ»: نَوْر الحنّاء، يقال له الفَغْو والفاغية. وهو من أَطيب الرَّيحان رائحةً. قال أبو عبيدة: قوله «يجري عليكَ بمسبل هطال» قال: يعني: مع مسبل، أي مع غيث مسبل. قال: فالباء تقوم مقام «مع» يافتى، قال أبو العباس: والذي قال صواب وتفسيره أقرب مما قال. وتأويل هذا عند النحويين أن الباء للإلصاق، و «مع» للمقاربة، فهما يلتقيان في هذا الموضع. تقول: مررت بزيد، فالباء ألصقتْ مُروري به. وكذلك: كتبتُ بالقلم أو ضربتُ بالسيف. فهذا حقيقة معناه.

وقوله «وَلَنِعْمَ حَشْوُ الدِّرْعِ وَالسِّرْبالِ» أي نعم الشيء في الأمن والفزع. و «المستضيف»: الملجَأ، يا فتَى. يقال: أُرهِق فلان فدعا لمضوفةٍ، كما قال الشاعر:

[الطويل]

---

(١) سورة آل عمران: الآية ١٩١.

(٢) سورة النحل: الآية ٨١.

وكُنْتُ إذا جارِي دَعا لِمَضُوفَةٍ أُشَمِّرُ حَتَّى يَنْصُفَ السَّاقَ مِئْزَرِي

ويقال «قَسْطَل وَقَسطال» لما يثور من الغبار.

وقال أيضاً يرثي فَضالةَ قصيدةً أولها:

[البسيط]

عَيْنَيَّ لاَ بُدَّ مِنْ سَكْبٍ وَتَهْمَالِ

اخترنا منها أبياتاً نادرة كما شرطنا في أول الكتاب. من ذلك قوله:

جُمَّا عَلَيْه بِماءِ الشَّأْنِ وَاحْتَفِلا ... ليس الفُقودُ ولا الهَلْكَى بِأَمْثالِ
أَمَّا حَصَانٌ فَلَمْ تُحْجَبْ بِكِلَّتِها ... قَدْ طُفتُ في كُلِّ هذا النَّاسِ أَحْوَالي
عَلى امرِئٍ سُوقَةٍ مِمَّنْ سَمِعْتُ بِهِ ... أَنْدَى وَأَكْمَلَ مِنْهُ أَيَّ إِكْمالِ
أَوْهَبَ مِنْهُ لِذِي أَثْرٍ وسابِغَةٍ ... وَقَيْنَةٍ عِنْدَ شَرْبٍ ذاتِ أَشْكالِ
وَخارِجِيٍّ يَزُمُّ الأَلْفَ مُعْتَرِضاً ... وَهَوْنَةٍ ذاتِ شِمْراخٍ وَأَحْجالِ(١)
أَبا دُلَيْجَةَ مَنْ يُوصَى بِأَرْمَلَةٍ ... أَمْ مَنْ لأَشْعَثَ ذِي طِمْرَيْنِ طِمْلالِ(٢)
أَمْ مَنْ يَكُونُ خَطِيبَ الْقَوْمِ إِذْ حَفَلُوا ... لَدَى مُلُوكٍ أُولي كَيْدٍ وَأَقْوالِ
أَمْ مَنْ لِقَوْمٍ أَضاعوا بَعْضَ أَمْرِهِمُ ... بَيْنَ الْقُسُوطِ وَبَيْنَ الدِّينِ أَزْوالِ(٣)
خافُوا الأَصِيلَةَ وَاعْتَلَّتْ مُلوكُهُمُ ... وَحُمِّلُوا مِنْ أَذَى غُرْمٍ بِأَثْقالِ
أَبا دُلَيْجَةَ مَنْ يَكْفِي الْعَشِيرَةَ إِذْ ... أَمْسَوا مِنَ الأَمْرِ في لَبْسٍ وبَلْبالِ
أَمْ مَنْ لأَهْلِ لَوِيٍّ في مُسَكِّعَةٍ ... فِي أَمْرِهِم خالَطُوا حَقّاً بِإِبْطالِ(٤)
أَمْ مَنْ لِعادِيَةٍ تُرْدِي مُلَمْلَمَةٍ ... كَأَنَّها عارِضٌ مِنْ هَضْبِ أَوْعالِ(٥)
وَما خَلِيجٌ مِنَ المَرُّوتِ ذُو حَدَبٍ ... يَرْمي الضَّرِيرَ بِخُشْبِ الطَّلْحِ والضَّالِ
يَوْماً بِأَجْوَدَ مِنْهُ حِينَ تَسْأَلُهُ ... وَلا مُغِبٌّ بِتَرْجٍ بَيْنَ أَشْبالِ(٦)
لَيْثٌ عَلَيْهِ مِنَ البَرْدِيِّ هِبْرِيَةٌ ... كَالْمَرْزُبانِيِّ عَيَّالٌ بِآصالِ(٧)
يَوْماً بِأَجْرَأَ مِنْهُ حَدَّ بادِرَةٍ ... عَلى كَمِيٍّ بِمَهْوِ الحَدِّ قَصَّالِ(٨)

---

(١) الهَوْنَة: الفرس المطواعة والأحجال: جمع حجل: بياض في قائمة الفرس.

(٢) طِمْلاَل: القبيح التقشف أو العاري من الثياب.

(٣) القسوط: الجور والعدول عن الحق. أزوال: جمع زَوْل الشجاع.

(٤) مُسَكِّعة: مضللة لا يهتدي فيها.

(٥) مُلَمْلَمَة: مجموع بعضه إلى بعض.

(٦) المُغِبُّ: الأسد. وتَرْج: مأسدة.

(٧) عيّال: متبختر.

(٨) المهو: السيف الرقيق. وقصّال: قاطع.

لاَ زالَ مِسْكٌ وَرَيْحانٌ لَهُ أَرَجٌ   عَلَى صَداكَ بِصَافي اللَّوْنِ سَلْسالِ
يَسْقي صَدَاكَ وَمُمْساهُ وَمُصْبَحَهُ   رِفْهاً وَرَمْسُكَ مَحْفُوفٌ بِأَظْلالِ
وَرَثَتْني وُدَّ أَقْوامٍ وَخُلَّتَهُمْ   وَذُكْرَةً مِنْكَ تَغْشاني بِإِجْلالِ
فَلَنْ يَزالَ ثَنائي غَيْرَ ما كَذِبٍ   قَوْلَ أمْرِيءٍ غَيْرَ ناسيهِ ولا سالِ
لَعَمْرُ مَا قَدَرٍ أَجْدَى بِمَصْرَعِهِ   لَقَدْ أَخَلَّ بِعَرْشي أَيَّ إِخْلالِ
قَدْ كانَتِ النَّفْسُ لَوْ ساموا الفِداءَ بِهَا   إِلَيْكَ مُسْمِحَةً بِالأَهْلِ وَالْمالِ

هذا آخر الشعر. قال أبو العباس: قوله: «لِذِي أَثَر» يعني سيفاً له فِرَنْدٌ وهو الرونق. : «يَزُمُّ الألْفَ» أي يتقدمها كأنه يقودها، يعني فرساً. و «الخارجيّ»: الذي يَخْرُجُ بِنَفْسِهِ. أنشدني الرياشي لأعرابي يمدح عبد الله بن جعفر الهاشمي:

[الوافر]

أَبا الْعَبَّاسِ، لَسْتَ بِخارِجِيٍّ   وَمَا إِنْ بَحْرُ جُودِكَ بِانْتِحالِ

وقوله: «ذاتُ شِمْراخ» فإنما يعني فرساً ذات غُرّة. و «الشمراخ» من الغرر: السائلة في الوجه إذا دقت وطالت.

وقوله «لأشْعَثَ ذِي طِمْرَيْن» إنما يريد أنه يجبر الفقير. و «الأطلس»: الأغبَر، ومن ثَمّ قيل للذئب: اطلس. وإنما نسب الفقير إلى الطُّلْسَة لسوء حاله ودناءة لِبسته.

و «الأقوال»: الملوك، واحدهم قيْل، وأصله قَيِّلٌ فخففوه كما قالوا في المَيِّت: مَيْت، وفي الهيِّن واللَيّن: هَيْن ولَيْن. وقالوا في الجَمْع: أقوال كما قالوا في الميت: أموات، ويقولون: هو من مَقاوِلَة كِندَة.

و «القَسوط»: العصيان. يُقال: قَسَطَ يَقسِطُ إذا جارَ وَخالفَ. قال الله عز وجل: ﴿وَأَمَّا القَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَباً﴾[1]. ويقال: أقسط يُقسط إذا عَدَلَ، والله يُحَبُّ المُقسِطينَ. وقوله «بين القُسوط وبين الدِّينِ». يقول: هم بين الطاعة وبين المعصية. و «الأزوال» هُم المُتَصرِّفون. يقال: رجل زَوِلٌ وقوم أزْوالٌ. وأنشدني التَّوزيّ:

[الرجز]

وَقَدْ أَقُودُ بِالْكِرامِ الأَزْوالْ   مُعَدِّياً لِلذاتِ لَوْثٍ شِمْلالْ

(١) سورة الجن: الآية ١٥.

وقوله «وَاعتلَّتْ ملوكهم» أي لم يعطوهم شيئاً. فذلك قوله «خَافُوا الأصِيلَةَ وَاعتَلَّتْ مُلُوكُهُم» أي خافوا أن يستأصلوا. وقوله: «وحُمّلوا» أي لزمتهم حَمالات وَغُرْمٌ، فهو كان يُصلح هذا كلَّه بالنَّجدَة والغُرْم.

وقوله: «وَذَاتِ أوْعال» هي هَضْبَةٌ معروفة بِعَينها و «المَرُّوت»: أرض بعينها فيها نبات ومسايل، وهي من أرض العالية[1].

وقوله «يَرمْي الضَّرير بِخُشْبِ الطَّلْحِ والضَّال»، الضرير: الوادي، وهو ناحيته. وقوله: «كالمَرْزباني» يريد كسرى، وإنما يعني هاهنا الأسد، فيقول هو منفرد بِغَيْضَتِهِ تهابهه الأسد أن تَنْزِلَ مَعَه كما قال أبو زُبَيد:

[البسيط]

أَفَـرَّ عَـنْـهُ بَـنـي الْـخـالاَتِ جُـرْأَتُـهُ   لاَ الـصَّـيْـدُ يـمـنَـعُ مِـنْـهُ وَهْـو مُـمْـتَـنِـعُ

وقوله: «رِفْهاً» يقول: دائماً، في كل يوم يسقي صداه. وقوله: «حمَّلتني ودّ أقوام» يعني أهل بيت فَضالة.

(١) أرض العالية: اسم لكل ما كان من جهة نجد من المدينة من قراها وعمايرها إلى تهامة فهي العالية ودون ذلك السافلة (معجم البلدان: ج ٤، ص ٧١).

وهذا باب من التعازي والمواعظ

ثم نعود إن شاء الله إلى الشعر وَنصِلُه بمثل هذا والقوة لله جلّ ذكره.

يُرْوَى عن جعفر بن محمّد[1] أنه قال: مات أخٌ لبعض ملوك اليمن فعزّاه بعض العرب فقال في تعزيته: اعلم أنّ الخلق للخالق. والشكر للمنعم، والتسليمَ للقادر، ولا بدَّ مما هو كائن، ولا سبيل إلى رجوع ما قد فات. وقد أقام معك ما سيذهب عنك أو ستتركه، فما الجزع مما لا بدّ منه، وما الطمعُ فيما لا يُرْجَى؟ وما الحيلة فيما سَيُنْقَل عنك أو تنتقل عنه؟ قد مضت لنا أصولٌ نحن فروعها، فما بقاء الفرع بَعْدَ أصله. وأحقُّ الأشياء عِنْدَ المصائب الصَّبْرُ. وأهل هذه الدنيا سَفْرٌ لا يَحطُّون الرِّكاب إلاّ في غيرها. فما أحسن الشكرَ عند النِّعَم، والتسليم عند الغير. فَاعْتَبِر بمن قد رأيت من أهل الجزع، هل رُدَّ أحدٌ منهم إلى شيء من دَرَكٍ. واعلم أَنَّ أَعْظَمَ من المصيبة سوءُ الخلفِ منها. وإنما ابتلاك المُنْعِم وأَخَذَ منكَ المُعطي. وما ترك أكثر. فإنْ نَسيتَ الصبرَ فلا تَغفُل عن الشكر، وكلاً فلا تَدَعْ. وما أصغر المصيبة اليوم مع عظم المصيبة في غَدٍ، فاستقبل المصيبة بالحسنة تستخلف بها نِعَماً فإنما نحن في الدنيا أغراضٌ تَنْتَضِل فيها المنايا، ونَهْبُ المصائب، مع كل جرعةٍ شَرَقٌ وفي كل أَكْلَةٍ غَصَصٌ. لا تُنال نعمةٌ إلا بفراق أخرى ولا يَستقبلُ مُعمَّرٌ يوماً من عمره إلا بهَدْم آخر من أَجَلِهِ، ولا تَحدثُ له زيادةٌ في أكلة إلا بنفاد ما قبلها من رزق، ولا يَحْيا له أَثَرٌ إلا مات له أثر. فنحن أعوان الحتوف على أنفسِنا، وأنفُسنا تسوقنا إلى الفناء، فمنْ أين نرجو البقاء وهذا الليل والنهار لا يرفعان من شيء شرفاً إلا أسْرعا في هدم ما رفعا وتفريق ما جمعا

---

(١) جعفر بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين السبط الهاشمي القرشي «أبو عبد الله» الملقب بالصادق سادس الأئمة الاثني عشرية عند الإمامية من أجلاء التابعين أخذ عنه أبو حنيفة ومالك له أخبار مع الخلفاء العباسيين كان جريئاً صداعاً بالحق له رسائل في كتاب يقال إن جابر بن حيان جمعها مولده ووفاته في المدينة (٨٠ ـ ١٤٨ هـ) (الأعلام: ج ٢، ص ١٢٦).

فاطلُبِ الخيرَ وأهلَه، واعلمْ أن خيراً من الخير مُعْطيه، وشرّاً من الشرّ فاعلُه. والسلام.

قال أبو العباس: وعن جُوَيْرِيَة بن أَسماء[1] عن عمه أنَّ إخوةً ثلاثة شهدوا يوم «تُستَر»[2]، فاستُشهدوا، فخرجت أمهم إلى السوق يوماً لبعض شأنها، فتلقّاها رجلٌ قد حضر أمرهم فعَرفتْهُ فسألته عن بنيها. فقال: استُشهدوا. فقالت: أَمُقبلين أم مُدبرين؟ فقال: بل مُقبلين. فقالت: الحمد لله، نالوا الفوز وحاطوا الذِّمار، بنفسي هم وأمي وأبي.

وقال خالد بن عطية قال عمر عبد العزيز عند وفاة ابنه عبد الملك: الحمد لله الذي جعل الموت حتماً واجباً على خَلْقه، ثم سوّى فيه بينهم، فقال: **﴿كُلُّ نَفسٍ ذائقَةُ المَوْت﴾**[3]. فَلْيعلمْ ذوو النُّهى أنّهم صائرون إلى قبورهم، مُفردون بأعمالهم، واعلموا أن عند الله مسألة فاحصة فقال جلّ وعزّ: **﴿فوربّكَ لنسألنّهُمْ أجمعين عَمّا كانوا يَعْمَلون﴾**[4].

وقال يحيى بن إسماعيلٍ بن أبي المُهاجر عن أبيه: استُشهِد ابنٌ لأبي أُمامَةَ الحمصيّ فكتب عمرُ إلى أبي أُمامة: «الحمد لله على آلائه وقضائه وحسن بلائه. قدِ بلغني الذي ساقَ الله إلى عبد الله بن أبي أُمامة من الشهادة. فقد عاش بحمد الله مأموناً، وأفضى إلى الآخرة شهيداً، وقد وصل إليكم من الله خيرٌ كثيرٌ إن شاء الله».

وقال يزيد بن عمر الكلابي: قال رجلٍ لعمر بن عبد العزيز عند وفاة ابنه عبد الملك:

[الطويل]

تَعَزَّ أَميرَ المُؤمِنينَ فَإنَّهُ ... لِمَا قَدْ تَرَى يُغْذَى الصَّغِيرُ وَيُولَدُ

هَلِ ابْنُكَ إلاّ مِنْ سُلالَةِ آدَمٍ ... لِكُلٍّ عَلى حَوْضِ المَنِيَّةِ مَوْرِدُ

وقال أبو البيداء الأسدي عن شيخ من أهل الحَرَّة[5]، أَن عمر بن عبد

---

(١) جُوَيْرِية بن أسماء بن عبيد الضبعي البصري: كان ثقة عالماً بالحديث (ـ/ ١٧٣ هـ) (الأعلام: ج ٢، ص ١٤٨).

(٢) تُستَر: أعظم مدينة في خوزستان اليوم وهو تعريب شُوشتر (معجم البلدان: ج ٢، ص ٢٩٢).

(٣) سورة آل عمران: الآية ١٨٥ وسورة الأنبياء: الآية ٣٥ وسورة العنكبوت: الآية ٥٧.

(٤) سورة الحجر: الآية ٩٢.

(٥) الحرّة: إحدى حرّتي المدينة «الشرقية حرة واقم» (معجم البلدان: ج ٢، ص ٢٤٩).

العزيز خطب الناس بعد وفاة ابنه عبد الملك، ونهى عن البكاء عليه، وقال: إن الله جلّ ذكره لم يجعل لمُسيءٍ ولا لِمُحْسنٍ خلوداً في الدنيا، ولم يَرْضَ بما أَعجَبَ أهلها ثواباً لأهل طاعته، ولا ببلائها عقوبةً لأهل معصيته، فكلُّ ما فيها من محبوب متروكٌ، وكلُّ ما فيها من مكروه مُضمَحلٌّ. كَتب على أهلها الفناء، وأخبر أنه يرث الأرض ومن عليها. فاتَّقوا الله، واعملوا ليوم ﴿لا يَجزي والِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلا مَوْلودٌ هُو جازٍ عَنْ والِدِهِ شَيْئاً﴾(١).

ودخل عمرُ بن عبد العزيز على ابنه عبد الملك ـ وكان موتُه بالطاعون، وكانوا يقولون: إذا مُسَّ الطاعون، وهو قَرحة، فَوُجِدَ لَيِّناً طُمعَ لصاحبه في البُرْءِ منه، وإن كان خشناً يُئِسَ من صاحبه، فدخل عمر على ابنه فقال: دعني أَمَسَّ قرحتك، فَكرِهَ عبد الملك أن يَمسَّها أبوه فيَجزَعَ، وكانت خشنة، فقال: أوَ تُعْفيني يا أمير المؤمنين؟ فعلم عمرُ لِمَ مَنعَهُ، فقال: ولِمَ يا بنيّ؟ فوالله لأنْ أُقدِّمَك فأجدَك في ميزاني أحبُّ إليّ من أنْ تُقدِّمَني فتجدَني في ميزانك. فقال: وأنا والله يا أمير المؤمنين لأنْ يكونَ ما تحبُّ أحبُّ إليَّ مِنْ أنْ يكونَ ما أُحبُّ. فلمسها فقال: يا عبد الملك، ﴿الحَقُّ مِنْ رَبِّك، فلا تكونَنّ من المُمتَرين﴾(٢). فقال: ﴿ستجدُني إنْ شاءَ اللّهُ منَ الصَّابرينَ﴾(٣).

وروى عبد الله بن مسلم(٤) وغيره أنَّ خَنساءَ دخلت على عائشة أم المؤمنين وعليها صدارٌ من شَعَر، فقالت لها: يا خنساء، أتتَّخذينَ الصّدار وقد نهى رسول الله ﷺ عنه؟ فقالت: يا أمّ المؤمنين، إن زوجي كان رجلاً مِتْلافاً فأملقنا فقال: لو أتيتِ معاويةَ فاستَعنتِهِ؟! فلقيني صخرٌ أخي فقال: أين تريدين؟ فأخبرتُه، فشاطرني ماله فأتلفه زوجي، ففعل ذلك ثلاث مرات، فقالت امرأته: لو أعطيتَها من شرارها، تعني الإبل، فسمعته يقول:

[مشطور الرجز]

واللهِ لا أَمْنَحُها شِرارَها ... وَلَوْ هَلَكْتُ عَطَّلَتْ خِمارَها

وَاتّخَذَتْ مِنْ شَعَرٍ صِدارَها

(١) سورة لقمان: الآية ٣٣.

(٢) سورة آل عمران: الآية ٦٠.

(٣) سورة الصّافات: الآية ١٠٢.

(٤) أبو محمد عبد الله بن وهب بن مسلم الفهري بالولاء المصري، فقيه من أصحاب مالك جمع بين الفقه والحديث والعبادة توفي بمصر (١٢٥ ـ ١٦٧ هـ) (الأعلام: ج ٤، ص ١٤٤).

فلما هلك اتخذتُ هذا الصدار، ونَذَرْتُ لا أَضعُه حتى أموت.

وقال أبو محمود: قالت الخنساء: كنت أبكي صخراً على ما فاته من الحياة، فأنا اليوم أبكي له من النار.

ويروى أن عائشة رضي الله عنها أنشدتها الخنساء بعض أشعارها في صخر، أحسبه قولها:

[الوافر]

أَلاَ يَا صَخْرُ إنْ أَبْكَيْتَ عَيْنِي ... لَقَدْ أَضْحَكْتَنِي دَهْراً طَوِيلاَ
بَكَيْتُكَ فِي نِسَاءٍ مُعْوِلاتٍ ... وَكُنْتُ أَحَقَّ مَنْ أَبْدَى العَوِيلا
دَفَعْتُ بِكَ الخُطُوبَ وَأَنْتَ حَيٌّ ... فَمَنْ ذَا يَدْفَعُ الخَطْبَ الجَلِيلا؟
إذَا قَبُحَ البُكَاءُ عَلَى قَتِيلٍ ... رَأَيْتُ بُكَاءَكَ الحَسَنَ الجَمِيلا

فقالت لها عائشة: أتبكين صخراً وإنما هو جَمْرة في النار؟ قالت: يا أم المؤمنين، ذلك والله أشَدُّ لجزعي عليه.

وقال مسلمة[1]: لما قُتل عبد الله بن عامر بن مِسْمَع بالزاوية[2] أتَوا الحجاج برأسه، فقال: اذهبوا برأسه إلى عامر بن مسمع يعني أباه فأتَوه به، فجعله في ثوبه وأقبل به إلى الحجاج وهو يبكي، فقال: أجزعتَ عليه؟ فقال: لا، بل جزعتُ له من النار. فإن رأى الأمير أن يأذن لي في دفنه، فأذِنَ له، فدفنه.

وقالَ مسلمة بن محارب: قُتل معاويةُ بن سفيان بن معاوية بن يزيد بن المهلب في الحرب التي كانت بين قتيبة[3] وبين سفيان بن معاوية. فلما وَلي سفيانُ البصرةَ أرسل إلى خالد بن صفوان[4] أن ابنك قُتل، وقُتل ابني. فأرسلت

(١) مسلمة بن عبد الله بن محارب الفهري البصري النحوي: صاحب فصاحة (لسان الميزان: ج ٦، ص ٣٤).

(٢) الزاوية: موضع قرب البصرة كانت فيه الوقعة بين الحجاج وابن الأشعث (٨٣ هـ) (معجم البلدان: ج ٣، ص ١٢٨).

(٣) قتيبة بن مسلم بن عمرو بن الحصين الباهلي «أبو حفص» أمير فاتح ولي الري أيام عبد الملك وافتتح أكثر بلدان ما وراء النهر وفي خلافة سليمان بن عبد الملك نزع الطاعة فقتله وكيع بن حسان التميمي (٤٩ ـ ٩٦ هـ) (الأعلام: ج ٥، ص ١٨٩).

(٤) خالد بن صفوان بن عبد الله بن عمرو بن الأهتم التميمي المنقري: من فصحاء العرب المشهورين له أخبار مع عبد العزيز وهشام بن عبد الملك ولد ونشأ بالبصرة (ـ/ ١٣٣ هـ) (الأعلام: ج ٢، ص ٢٩٧).

إليك أتعزّى بك وتتعزّى بي. فقال: أصلح الله الأمير، أنا وأنت كما قالت الباكية:

[المجتث]

أَسْعِدْنَنِي أَخَوَاتِي فَالْوَيْلُ لِي وَلَكُنَّهْ

فقال سفيان: جَدَّدْتَ لي حزناً. فقال: أصلح الله الأمير، فَلْيُسلِّ عنك ما جَدّدت لك العلمُ بأنك غيرُ باق.

وقال كُلَيب بن خَلف: قال عبد الكريم المازني لعبد الله بن عبد الله بن الأهتم[1]: كيف كان جزعُك على أهل بيتك؟ فقال: ما ترك حُبُّ الغَداء والعَشاء في قلبي حزناً على أحد.

وقال يزيد بن عياش بن جُعدُبَة: كان عبد الله بن الزبير إذا أصابته مصيبة يقول: إنِ ابْتُليتُ فقد قُتل أبي وإمامي عثمان. فصَبَرْتُ.

وقال قائل لعبد الملك بن مروان: أأدركتَ قتل أمير المؤمنين عثمان؟ فقال: نعم. قال: فكيف كان جزعك عليه؟ قال: شغلني الحَنَق لأن أدرِك بثأره عن الحزن عليه.

وقال أبو عبد الرحمن العجلاني عن إسماعيل بن يسار[2]: مات ابنٌ لأرطاة بن سُهَيَّة المُرِّيّ[3]، من غَطَفان، يقال له عَمرو، فأقام على قبره حَوْلاً، يأتيه كلَّ غداة فيقول: يا عمرو، هل أنت غادٍ معي؟ فلما كان رأسُ الحَوْل تمثَّل قولَ لبيد:

[الطويل]

إلى الحَوْلِ ثُمَّ اسْمُ السَّلامِ عَلَيْكُما وَمَنْ يَبْكِ حَوْلاً كامِلاً فَقَدِ اعْتَذَرْ

ثم ترك قبر ابنه.

---

(١) عبد الله بن عبد الله بن الأهتم: من بني منقر ولي خراسان ووفد على الخلفاء وخطب عند الملوك وأولاده خطباء. (البيان والتبيين: ج ١، ص ٢٣٦).

(٢) إسماعيل بن يسار النسائي: أصله من سبي فارس ومن موالي تيم بن مرة ثم انقطع إلى آل الزبير حيث وفد مع عروة بن الزبير ومدح عبد الملك بن مروان ثم أولاده من بعده توفي نحو ١٣٠ هـ (الأعلام: ج ١، ص ٣٢٩).

(٣) أرطأة بن سهية المُرّي: يكنى أبا الوليد وينتسب إلى أمه «سُهيّة» شاعر فارس عاش في دولة بني أمية عمي قبيل وفاته (ـ/ ٦٥ هـ) (الأعلام: ج ١، ص ٢٨٨).

وقال أبو عمرو بن يزيد: مات أخٌ لمالك بن دينار[١] فبكى وقال: يا أخي لا تقرُّ عيني بعدك حتى أعلمَ أفي الجنة أنت أم في النّار، ولا أعلم ذلك حتى أَلْحَقَ بك.

وقال مسلمة بنُ محارب: لما أتت معاويةَ وفاةُ زياد استرجع وقال:

[الطويل]

وأُفْرِدْتُ سَهْماً في الكِنانَةِ واحِداً سَيُرْمى بِهِ أَوْ يَكْسِرَ السَّهْمَ كاسِرُ

وقال أبو زكريا العجلانيُّ وغيره أن معاوية نُعي إليه سعيد بن العاصي[٢] وعبد الله بن عامر[٣] فاسترجع وقال:

[الطويل]

إذَا مَاتَ مَنْ خَلْفَ امْرِئٍ وَأَمَامَهُ وَأُفْرِدَ مِنْ جِيرانِهِ فَهُوَ سَائِرُ

وقال عبد الله بن مسلم: بكى رجل على شاةٍ له أُصيب بها فأكثر، فرآه رجلٌ من باهلة يقال له الحارث بن حبيب فقال:

[السريع]

يا أَيُّها البَاكِي عَلَى شَاتِهِ يَبْكِي بُكَاءً غَيْرَ إِسْرَارِ
إنَّ الرَّزِيئَاتِ وَأَمْثَالَهَا مَا لَقِيَ الحَارِثُ فِي الدَّارِ
دَعَا بَنِي مَعْنٍ وَأَشْيَاعَهُمْ فَكُلُّهُمْ يَغْدُو بِمِخْفَارِ

وكان للحارث المذكور عشرة بنين، فَحَلَب يوماً في علبة ووضعها فمَجَّ فيها أسْودُ سالخٌ، فبعث بالعلبة إلى بَنيه، وهو لا يدري، فشربوها فماتوا جميعاً. وقيل: بل كانوا سبعة، فسقط عليهم حائط فقتلهم.

وقال خالد بن يزيد بن بشر: جَزِع سليمانُ بن عبد الملك على ابنه أيوب، فقال له رجل: يا أمير المؤمنين، إنَّ رَجُلاً حدَّث نَفْسه بالبقاء لغيرُ جيِّد الرَّأي.

(١) مالك بن دينار البصري: أبو يحيى من رواة الحديث يكتب المصاحف بالأجرة توفي بالبصرة نحو ١٣١ هـ (الأعلام: ج ٥، ص ٢٦٠).

(٢) سعيد بن العاص بن سعيد بن العاص بن أمية الأموي القرشي: صحابي من الولاة الفاتحين ولاه معاوية المدينة حتى مات (٣ ـ ٥٩ هـ) (الأعلام: ج ٣، ص ٩٦).

(٣) عبد الله بن عامر بن كُريز بن ربيعة الأموي «أبو عبد الرحمن» ولد في مكة أمير فاتح ولي البصرة زمن عثمان ثم صرفه معاوية عنها فرجع إلى مكة وتوفي فيها (٤ ـ ٥٩ هـ) (الأعلام: ج ٤، ص ٩٤).

وقال صَدقةُ بن عبد الله المازني[1]: مات حَنظَلَةُ بن عبد الله الأسيِّدي فجزعتْ عليه امرأته، فنهتها جاراتها وَقُلنَ لها: إن هذا يُحْبِط أجْرَك، فقالت:

[السريع]

تَـعَـجَّـبَ الـدَّهْـرُ لِـمَـخْـزُونَـةٍ تَـبْـكِـي عَـلـى ذِي شَـيْـبَـةٍ شاحِـبِ

إنْ تَـسْـأَلِـيـنِـي الـيـومَ مـا شَـفَّـنِـي أُخْـبِـرْكِ قَـوْلاً لَـيْـسَ بِـالـكَـاذِبِ

إنّ سَـــوَادَ الـــعَـــيْـــنِ أوْدَى بِـــهِ حُـزْنٌ عَـلَـى حَـنْـظَـلَـةَ الـكَـاتِـبِ

وكان حنظلة قد كتب لرسول الله ﷺ.

وقال إسحاق بن أيوب وعامِرُ بن حَفص[2] ومَسلمة بن مُحارب: قدم عروةُ بن الزبير[3] على الوليد بن عبد الملك ومعه محمد بن عروة[4] فدخل مُحمَّد دار الدوابّ، فضربته دابَّة فخرَّ ميتاً، ووقعت في رجل عروة الأكَلَة[5]، ولم يدع وِرْدَه تلك الليلة. فقال له الوليد: اقطعها، وإلاّ أفسدتْ عليك جسدك، فقطعها بالمنشار وهو شيخ كبير. ولم يمسكه أحد. وقال: ﴿**لقدْ لَقِينا مِنْ سفرِنا هذا نَصَبًا**﴾[6].

وقدم على الوليد في تلك السنة قوم من بني عَبْس، فيهم رجلٌ ضرير فسأله الوليد عن عينيه فقال: يا أَمير المؤمنين، بتُّ ليلةً في بطن وادٍ ولا أعلم عَبْسيّاً يزيد ماله على مالي؛ فطَرَقنا سيْلٌ فذهب بما كان لي من أهلٍ وولد ومال غيرَ بعير وصبيٍّ مولود. وكان البعير صَعْباً فندَّ. فوضعت الصبيَّ واتّبعتُ البعير، فلم أجاوزه إلاّ قليلاً حتى سمعتُ صيحة ابني، فرجعت إليه ورأسُ الذئبِ في بطنه وهو يأكله، ولحقتُ البعير لأحبسه فنفحني برجله على وجهي فحطمه وذهب بعينيّ فأصبحت لا مال لي ولا أهل ولا ولد ولا بصر. فقال الوليد: انطلقوا به إلى عُرْوَةَ ليعلمَ أنَّ في الناس مَنْ هو أعظمُ منه بلاءً.

---

(١) صدقة بن عبد الله المازني: محدّث دمشقي كبير توفي سنة ١٦٦ هـ (مرآة الجنان: ج ١، ص ٣٥٢).

(٢) عامر بن حفص: عالم بالأنساب يلقب بسُحَيْم (ـ/ ١٩٠ هـ) (الأعلام: ج ١، ص ٢٥٠).

(٣) عروة بن الزبير بن العوام: «أبو عبد الله» أحد الفقهاء السبعة بالمدينة (٢٢ ـ ٩٣ هـ) (الأعلام: ج ٤، ص ٢٢٦).

(٤) محمد بن عروة: بارع الجمال يدعى زين المواكب (الوافي بالوفيات: ج ٤، ص ٩٤).

(٥) الأكَلَة: داء يقع في العضو فيأتكل منه.

(٦) سورة الكهف: الآية ٦٢.

وشَخَصَ عروةُ إلى المدينة فأتته قريشٌ والأنصارُ فقال له عيسى بن طلحة بن عبيد الله: أبْشِر يا أبا عبد الله، فقد صنع الله بك خيراً، واللهِ ما بِك حاجَةٌ إلى المشي. فقال: ما أحْسَنَ ما صنَع الله إليَّ، وَهَب لي سبعةَ بنينَ فمتعني بهم ما شاء، ثم أخذ واحداً وترك ستة، ووهب لي ستّ جوارح، فمتّعني بهن ما شاء، ثمَّ أخذ واحدة ثم ترك لي خمساً: يَدَيْن ورجلاً وسمعاً وبصراً، ثم قال: اللهم لئن كنتَ أخذت لقد أبقيتَ، ولئن كنتَ ابْتليْتَ لقد عافيت.

وكثُرَ الموتُ سنةً بالبصرة، فقيل للحسن: يا أبا سعيد، ألا ترى؟ فقال: ما أحْسَنَ ما صنعَ رَبُّنا. أقْلَعَ مُذْنِبٌ، وَأنْفَقَ مُمْسِكٌ، ولم يُغْلَط بأحد.

وقال مَخلد بن حمزة عن عبد الملك بن عُمير: قال دخل عبدُ الله بن الزُّبير على أمه أسماءَ بنت أبي بكر، فقال لها: يا أُمَّهْ، قدْ خذلني الناس فما بقي معي إلاّ من ليس عنده من الصبر أكثرُ من ساعة، والقَوْمُ يُعْطونني ما أردتُ، فما رأيك؟ قالت: أنت أعلم بنفسك، إنْ كنت تعلم أنّك على حق وإليه تدعو فامْضِ على حقك، ولا تمكّن غلمانَ بني أُميَّة من نفسك، فقال: وَفَّقكِ الله، هذا رأيي، وإني لحسَنُ الظنِّ بربِّي، فَإن هَلكتُ فلا يَشْتَدَّ عليَّ جَزَعُكِ، فإنَّ ابنك لم يتعمد إتيان دَنِيةٍ، ولا عملاً بفاحشة، ولم يَجُرْ في حُكْم، ولم يَسْع بغَدر، ولم يكن شيءٌ آثرَ عنده من رضى ربه. اللهم، إني لا أقول هذا تزكيةً لنفسي وأنت أعلمُ بي، ولكني أقوله لتسلوَ عني.

وقال علي بن مجاهد عن عبد الأعلى بن ميمون: دخل عبد الله بن الزبير على أمه: فقال: كيف أصبحت يا أُمَّهْ؟ قالت: إني لوَجعَة، قال: إن في الموت لراحةً. قالت: والله ما أُحِب أن أموت حتى آتيَ على أحد طرفيك: إما ظفرتَ فقَرَّت عيني، وإما قُتلتَ فاحتسبْتُك، وإن أحبَّهما إليّ أن تكون تصليّ عليَّ وتدفنني. فما دمعت عينه ولا عَينها. فما ندري من أيهما نعجب.

ولقد قال: إني لا آمَنُ إنْ قُتلتُ أن أُصلَبَ، فقالت له: يا بنيّ إنَّ الشاة لا تَألم للسَّلخ. فَحَمل على أهل الشام وهو يتمثَّل:

[الطويل]

فَلَسْتُ بِمُبْتَاعِ الحَيَاةِ بِسُبَّةٍ وَلاَ مُرْتَقٍ مِنْ خَشْيَةِ المَوْتِ سُلَّمَا

قال أبو الحسن المدائني: وأخبرنا يزيد بن عياض قال: لما مات عليُّ بن الحسين ضربت امرأته على قبره فُسْطاطا، فأقامت فيه حولاً ثم رجعت إلى بيتها. فسمعوا قائلاً يقول: أدرَكوا ما طلبوا. فأجابه مجيب: بل يئسوا فانصرفوا.

قال: وأخبرنا عليّ بن مجاهد عن عبد الأعلى بن ميمون بن مهران عن أبيه قال: عزّى رجل عمرَ بن عبد العزيز عن ابنه عبد الملك، فقال عمر: الذي نزل بعبد الملك أمرٌ كنّا ننتظره، فلما وقع لم نُنكره.

قال: وأخبرنا بشر بن عبد الله بن عمر قال: قام عمر على قبر ابنه عبد الملك، فقال: رحمك الله يا بُني، لقد كنت سارّاً مولوداً، وبارّاً ناشئاً، وما أُحِبُّ أني دعوتك فأجبتني؟!

وقال الأصمعي: دخل عمر بن عبد العزيز على ابنه عبد الملك وهو يجود بنفسه، فقال: كيف تَجِدُك يا بُنيّ؟ قال: أجدني في الموت، فاحتسبني يا أمير المؤمنين، فإن ثواب الله خير لك مني. قال: رضي الله عنك يا بُنيّ، فإنك لم تزل تَسُرّ أباك وأنت في الخِرَق، وما كنتَ قط أسرَّ إليّ منك حيث يصيّرك الله في ميزاني، فرضي الله عنك وعن كل شاهد وغائب دعا لك بخير. فجعل الناس يَدْعون له رَجَاء أن يَدْخلوا في دعوة عمر. وعاش عمر بعده أربعين يوماً ثم هلَك.

وقال الأصمعي: قال عمر: إنما الجزع قبل فوات الشيء فإذا فاتك الشيءُ فَالْهَ عنه.

وقال الأصمعي: كتب رجلٌ إلى عمر يعزيه، فأجابه: إني لم أزلْ في صحة منه وسلامة، مُوطِّناً نفسي على فراقه. والسلام.

وأخبرنا أبو الحسن عمن حدَّثه عن مسلمة قال: لما مات عبد الملك كشف أبوه عن وجهه وقال: رحمك الله يا بُنيَّ، سُررتُ بك يوم بُشِّرتُ بك، ولقد عُمِّرْتُ مسروراً بك وما أَتت عليّ ساعةٌ أنا بك فيها أَسرُّ مني بك من ساعتي هذه، أما والله إن كنت لتدعو أباك إلى الجنة.

وتحدث المدائني عن سليمان بن أرقم أنَّ عمر بن عبد العزيز قال لأبي قِلابة[1] ـ وكان وَليَ غسْلَ ابنه ـ: إذا غسّلتَه وكفنته فآذِنّي به قبل أن تُغطّيَ وجهه. فنظر إليه فقال: رحمك الله يا بُني وغفر لك.

وتحدث عن يحيى بن إسماعيل بن أبي المهاجر عن أبيه قال: اسْتُشهدَ ابنٌ

(١) عبد الله بن زيد بن عمرو الجرمي «أبو قلابة» ناسك من أهل البصرة ومن رجال الحديث الثقات وعالم بالقضاء والأحكام تهرب من القضاء إلى الشام ومات هناك (ـ/ ١٠٤ هـ) (الأعلام: ج ٤، ص ٨٨).

لأبي أُمامة الحمصيّ فكتب عمر إلى أبي أمامة: «الحمد لله على آلائه وقضائه وحسن بلائه. فقد بلغني الذي ساق الله إلى عبد الله بن أبي أمامة من الشهادة، فقد عاش بحمد الله في الدنيا مأموناً، وأفضى إلى الآخرة شهيداً، وقد وصل إليكم من الله خير كثير إن شاء الله».

وتحدث عن جعفر بن هلال بن حباب عن أبيه قال: كتب عمر إلى عماله: «إن عبد الملك بن عمر كان عبداً من عبيد الله أحسن إليه وإلى أبيه فيه، أعاشه ما شاء ثم قبضه إليه. وكان ما علمتُ ـ والله به أعلمُ ـ خيِّراً، من صالحي شباب أهل بيته قراءةً للقرآن وتَحَرِّياً للخير. وأعوذ بالله أن تكون لي محبةٌ في شيء من الأمور تُخالف محبة الله، فإن ذلك لا يَحْسُن بي في إحسانه إليَّ، وتتابُع نعمه عليَّ. وقد قلت عند الذي كان بما أمر الله عز وجل أن أقول عند المصيبة ثم لم أجدْ بحمد الله إلاّ خيراً، ولا أعلم ما بكت عليه باكية، ولا ناحتْ عليه نائحة، ولا اجتمع لذلك أحد، فقد نَهيْنا أهله الذين هم أحق بالبكاء عليه.

وتحدث عن محمد بن عبّاد[1] أنه بلغه أن عبد الملك بن عمر لما مات، فخرج بسريره ليصلّي عليه، صَفَّ عمر الناس خلفه ثم قام حِيالَ صدره أو رأسه ثمّ قال: هكذا يقوم وليّ الرجل من الرجل، ومن المرأة يقوم حِيال وسطها. فلما صار إلى القبر دخل فيه وأخذ برأس ابنه حتى وضعه في اللحد. ثم قال: هكذا يصنع وليُّ الرجل بالرجل. ثم قام على قبره وجعل القبر بينه وبين القبلة. فلما رآه الناس قائماً قاموا، فقال: اجلسوا، فإنما يجب القيام على أولياء الميت.

وتحدث عن مسلمة بن عثمان أنّ سليمان بن عبد الملك قال لعمر بن عبد العزيز: هل يكونُ المؤمنُ في حالة تنزل به المصيبةُ فلا يَألم لها؟ قال: لا يا أمير المؤمنين، لا يكون أن يستويَ عندك ما تحب وما تكره، أو تكون الضَّراء والسَّراء عند أحد سواء. ولكن مُعوّل المؤمن الصبر.

وقال عن عبد الله بن الأسود: لما مات عاصم بن عمر بن عبد العزيز جزع عليه أخوه عبد الله فرثاه. وأنشدني هذا الشعر الرياشيّ:

[الطويل]

إنْ تَـكُ أَحْـزَانٌ وَفَـائِـضُ عَـبْـرَةٍ ... أَثَـرْنَ دَماً مِنْ دَاخِلِ الـجَوْفِ مُـنْـقَـعَـا

---

(١) محمد بن عباد بن كاسب: كاتب زهير ومولى بجيلة من سبي دابق وكان شاعراً راوية وطلابة للعلم علامة (البيان والتبيين: ج ١، ص ٣٥).

تَـجَرَّعْـتُـهـا فـي عـاصِـمٍ فَـاحْـتَـسَـبْـتُـهَـا لأَعْـظَـمُ مِـنْـهَـا مـا احْـتَـسَـى وَتَـجَـرَّعـا
فَـلَـيْـتَ الـمَـنـايـا كُـنَّ صَـادَفْـنَ غَـيْـرَهُ فَـعِـشْـنـا جَـمِـيـعـاً أَوْ ذَهَـبْـنَ بِـنـا مَـعـا

وقال إبراهيمُ بن عبد الله[1] بن حسن بن حسن بن علي بن أبي طالب يرثي أخاه محمد بن عبد الله[2]:

[البسيط]

أَبَـا الـمُـنـازِلِ يَـا عُـبْـرَ الـفَـوارِسِ مَـنْ يُـفْـجَـعْ بِـمِـثْـلِـكَ فـي الـدُّنْـيـا فَـقَـدْ فُـجِـعَـا
اللهُ يَـعْـلَـمُ أَنِّـي لَـوْ خَـشِـيـتُـهُـمُ وَأَوْجَـسَ الـقَـلْـبُ مِـنْ خَـوْفٍ لَـهُـمْ فَـزَعـا
لَـمْ يَـقْـتُـلُـوكَ وَلَـمْ أُسْـلِـمْ أَخِـي لَـهُـمُ حَـتّـى نَـعِـيـشَ جَـمِـيـعـاً أَوْ نَـمُـوتَ مَـعـا

وكان قَتله في المعركة عيسى بنُ موسى بن محمد بن علي بن عبد الله[3] وهو الذي قتل إبراهيم أخاه.

وقال أبو الحسن: أخبرنا العباس بن معاوية قال: عزّى محمد بن الوليد بن عُتبة بن أبي سفيان عمرَ بنَ عبد العزيز عن ابنه عبد الملك فقال: يا أمير المؤمنين، لِيَشْغَلْكَ ما أقبل من الموت إليك عمن هو في شغل عمّا دخل عليك، وأَعْدِدْ لما ترى عُدّة تكون لك جُنَّة من الحزن وسِتْراً من النار. فقال عمر: فَهَل رأيْتَ حزناً يُنْكر أو غَفْلَةً أُنبِّه لها؟ فقال: يا أمير المؤمنين، لو أن رجلاً ترك تعزية رجلٍ لِعِلمِه وانتباهه لَكُنْتَه، ولكنَّ الله قضى أنَّ الذكرى تنفع المؤمنين.

وقال أبو الحسن: دخل مسلمة[4] على عمر في مرضه، فقال: يا أمير المؤمنين، ألا تُوصي؟ قال: وهل لي مال أوصي فيه؟ فقال مسلمة: هذه مئة ألف أبعث بها إليك فهي لك أَوْصِ فيها. قال: فهلاّ غير ذلك يا مسلمة؟ فقال: وما

---

(١) إبراهيم بن عبد الله بن حسن بن حسن بن علي بن أبي طالب: «الطالبي» أحد الأمراء الأشراف الشجعان كان شاعراً عالماً بأخبار العرب وأيامهم وأشعارهم قتل في وقعة هائلة بين شيعته وجيوش المنصور على أبواب الكوفة (٩٧ ـ ١٤٥ هـ) (الأعلام: ج ١، ص ٤٨).

(٢) محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب «أبو عبد الله» الملقب بالنفس الزكية كان غزير العلم شجاعاً حازماً وسخياً طلبه المنصور وقتل بعض أقاربه فثار محمد وقتل في المدينة (٩٣ ـ ١٤٥ هـ) (الأعلام: ج ٦، ص ٢٢٠).

(٣) عيسى بن موسى بن محمد بن علي بن عبد الله (ابن أخي السفاح) تولّى على الكوفة سنة ١٣٢ هـ استنزله المنصور عن ولاية العهد وعزله عن الكوفة سنة ١٤٧ هـ (١٠٢ ـ ١٦٧ هـ) (الأعلام: ج ٥، ص ١١٠).

(٤) مسلمة بن عبد الملك بن مروان بن الحكم: أمير قائد من أبطال عصره من بني أمية في دمشق يلقب بالجرادة الصفراء له فتوحات مشهورة كان أولى بالخلافة من إخوته (../ ١٢٠ هـ) (الأعلام: ج ٧، ص ٢٢٤).

ذاك يا أمير المؤمنين؟ قال: تردُّها من حيث أخذتها. فبكى مسلمة وقال: يرحمك الله، فقد أَلَنت منَّا قلوباً كانت قاسية، وزرعت لنا في قلوب المؤمنين مودَّة، وأبقيت لنا في الصالحين ذكراً.

وقال أبو الحسن عن سعيد بن عامر[١] عن محمد بن عمرو بن علقمة[٢] قال: سمعت عمر بن عبد العزيز يخطب، وهو يقول: ما أنعم الله على عبدٍ نعمةً فانتزعها منه وعاضه من ذلك الصبرَ إلاّ كان ما عوَّضه أفضل مما انتزع منه.

ثم قرأ: ﴿إنما يُوفَّى الصابرون أجْرَهُمْ بغَيرِ حِساب﴾[٣].

وقال مقسم، وهو مولًى لبعض أهل المدينة، يرثي عمر بن عبد العزيز رحمه الله:

[البسيط]

لَوْ أَعْظَمَ الـمَوْتُ خَلْقاً أَنْ يُلاقِيَه ... لأَعْظَمَ الـمَوْتُ أَنْ يَلْقَاكَ يَا عُمَرُ
لَهْفِي عَلَيْكَ وَلَهْفَ المُوجَعينَ مَعِي ... عَلَى العُدُولِ الَّتي تَغْيَى لَها الجُفَرُ
ثَلاثَةٌ لاَ تَرَى عَيْنٌ لَهُمْ شَبَهاً ... تَضُمُّ أَعْظُمَهُمْ في المَسْجِدِ الجُدُرُ
فَقَدْ بَلَغْتَ وَلَمْ تَبْلُغْ فَعَالَهُمُ ... مَا فَوْقَهُ لإِمَامٍ مُبْصِرٍ بَصَرُ

قال أبو الحسن: قال محمد بن حرب الهلالي: كان رسول الله ﷺ إذا عزَّى يقول: آجركم الله ورحمكم. وإذا هنَّأ قال: بارك الله لكم وبارك عليكم.

وقال ابن الأعرابي[٤]: وقف جعفر بن سليمان بن علي بن عبد الله بن العباس على قبر أخيه محمد بن سليمان فقال: اللهمَّ إني أمسيت أرجوك له وأخافُك عليه، اللهم فَصدِّق رجائيُ وأمِّنْ خوفي، إنك على كل شيء قدير.

قال الأصمعي: ولَّى عمرُ بنُ الخطاب رضي الله عنه كعبَ بنَ سُور[٥] قضاء

(١) سعيد بن عامر بن حِذْيَم الجمحي: صحابي ولاه عمر إمرة حمص كان زاهداً توفي بحمص (ـ/ ٢٠ هـ) (الأعلام: ج ٣، ص ٩٧).

(٢) أبو عبد الله محمد بن عمرو بن علقمة بن وقاص الليثي المدني: ثقة روى عنه مالك في موطأه توفي سنة ١٤٤ هـ (البيان والتبيين: ج ٣، ص ١٤٣).

(٣) سورة الزمر: الآية ١٠.

(٤) أبو عبد الله محمد بن زياد المعروف بابن الأعرابي: راوية نسابة علامة في اللغة كوفي (١٥٠ - ٢٣١ هـ) (الأعلام: ج ٦، ص ١٣١).

(٥) كعب بن سور بن بكر الأزدي: تابعي بعثه عمر قاضياً لأهل البصرة وبقي إلى وقعة الجمل حيث قتل بسهم (ـ/ ٣٦ هـ) (الأعلام: ج ٥، ص ٢٢٧).

البصرة. قال أبو العباس: وكان سبب ذلك أنه حضر مجلس عمر، فجاءت امرأة فقالت: يا أمير المؤمنين، إن زوجي صوَّام، قوّام. فقال عمر: إن هذا لَرَجُلٌ صالح، ليتني كنتُ كذا. فردَّدت عليه الكلام فقال عمر كما قال. فقال كعب بن سور الأزدي: يا أمير المؤمنين، إنها تشكو زوجها، تخبر أنه ليس لها منه حظ. فقال: عليّ بزوجها. فأتي به، فقال له: ما بالها تشكوك، وما رأيت امرأة أكرم شكوى منها؟ فقال: يا أمير المؤمنين:

[الرجز]

إنِّـي امْـرُؤٌ أَفْـزَعَـنـي مَـا قَـدْ نَـزَلْ في الحِجْرِ وَالنَّحْلِ وفي السَّبْعِ الطُّوَلْ

فقال له كعب:

[الرجز]

إنَّ لَـهـا عَـلَـيْـكَ حَـقّـاً يَـا بَـعَـلْ فَـأَوْفِـهَـا الـحَـقَّ وَصُـمْ ثُـمَّ وَصَـلّ

فقال عمر لكعب: اقْضِ بينهما. فقال: نعم، يا أمير المؤمنين، أحلّ الله للرجل أربعاً، فأوجَب لكلٍّ واحدةٍ ليلة، فلها في كل أربع ليالٍ ليلةٌ، ويصنع بنفسه في الثلاث ما شاء. فألزمه ذلك. وقال لكعب: اخرج قاضياً على البصرة.

قال أبو العباس: اتصل هذا بخبر الأصمعي.

فلم يزل عليها حتى قُتل عثمان. فلما كان يوم الجمَل، خرج مع أهل البصرة وفي عنقه مصحف، فقتل هو يومئذ وثلاثة إخوة له أو أربعة. فجاءت أمهم فوجدتهم في القتلى، فحملتهم وجعلت تقول:

[المتقارب]

أَيَـا عَـيْـنُ بَـكِّـي بِـدَمْـعٍ سَـرِبْ عَـلـى فِـتْـيَـةٍ مِـنْ خِـيـارِ الـعَـرَبْ
فَـمَـا ضَـرَّهُـمْ غَـيْـرُ حَـيْـنِ الـنُّـفُـو سِ أيُّ أَمِـيـرَيْ قُـرَيْـشٍ غَـلَـبْ

وقال أبو الحسن: أخبرني مخبر قال: كتب غَيْلان[1] إلى رجل من إخوانه أصيب بابنه فجزع عليه: أمَّا بعدُ. فإن الله أعطاك هِبَتَه، وجعل عليك أدبه ومؤنته، وأنت تخشى فتنته، فاشتد بذلك سرورك. فلما قبض الله هبته، وكفاك أدبه ومؤنته، وأمِنْتَ فتنتَه، اشتد لذلك جزعك، فأقسم بالله أن لو كنت تقيّاً لَعُزِّيت

(١) غيلان بن مسلم الدمشقي «أبو مروان»: كاتب بليغ صلب على باب كيسان بدمشق بعد فتوى الأوزاعي بصلبه تنسب إليه الغيلانية وهي فرقة من القدرية (ـ/ ١٠٥ هـ) (الأعلام: ج ٥، ص ١٢٤).

على ما هُنِّئتَ عليه، وَلَهُنِّئتَ على ما عزِّيتَ عليه. فإذا أتاك كتابي فاصبر على الأمر الذي لا غنى بك عن ثوابه، ولا صبر لك على عقابه. واعلم أن كل مصيبة لم يُذهبْ فرحُ ثوابها حزنَها، فذلك الحزن الدائم.

وقال أبو الحسن: لما هلك ابن عمرَ بن ذَر[1] وقف عليه أبوه وهو مُسَجًّى فقال: يا بني، ما علينا من موتك غضاضة، وما بنا إلى أحد سوى الله من حاجة. فلما دُفِنَ قام على قبره فقال: يا ذرّ غفر الله لك، لقد شغلنا الحزن لك عن الحزن عليك، لأنا لا ندري ما قلت وما قيل لك. اللهم، إني قد وهبت له ما قصَّر فيه مما افترضتَه عليه من حقّي، فهَبْ لي ما قصَّر فيه من حقك، واجعل ثوابي عليك له، وزدْني من فضلك فإني إليك من الراغبين! فسئل عنه فقيل: كيف كان معك؟ فقال: ما مشيتُ معه بليلٍ قطّ إلا كان أمامي، ولا بنهارٍ قطُّ إلا كان خلفي، وما علا سطحاً قط وأنا تحته.

قال أبو الحسن: أخبرني بعض قريش، يرفع الحديث إلى ابن عباس قال: هلك رجل من أهل المدينة فشهد جنازته عبد الله بن العباس رضي الله عنهما فلما دُفِن الرجل قال بعض من شهده: ليت شعري إلى ماذا صار صاحبنا؟ فسمعه ابن عباس فقال: أما تدري؟ قال: لا والله، قال: لكني والله، أدري، قال الله جل ثناؤه: **﴿فأمّا إن كانَ مِنَ المُقَرَّبينَ فرَوْحٌ وريحانٌ وجَنَّة نعيم. وأمّا إنْ كانَ من أصْحابِ اليمينِ فسَلامٌ لك مِنْ أصحاب اليمين وَأمّا إن كانَ مِن المكذِّبين الضالين فَنُزُلٌ من حميم﴾**[2]، وليس صاحبنا من المكذبين الضالين. فإن أخطأه أن يكون من المقربين فلن يخطئه أن يكون من أصحاب اليمين. قال: ففرح جميع القوم بما سمعوا.

وقال عن عوانة[3]: لما بلغ خالد بن الوليد موتُ أبي بكر رضي الله عنه قال: الحمد لله الذي أماتَ أحبَّ خلقه إليّ، واستخلف أبغض الأمة إليَّ. وقد استخلف عليكم أمين أمتكم، يعني أبا عبيدة بن الجراح.

وقال الأصمعي: قام خالد بن الوليد على رأس أبي عبيدة، فستره بردائه من

---

(١) عمر بن ذر: من رجال الحديث كوفي من رؤساء المرجئة (ـ/ ١٥٣ هـ) (الأعلام: ج ٥، ص ٤٦).

(٢) سورة الواقعة: الآية ٨٨ ـ ٩٣.

(٣) عوانة بن الحكم بن عوانة بن عياض «أبو الحكم» مؤرخ كوفي كلبي ضرير عالم بالأنساب والأشعار اتهم بوضع الأخبار للأمويين (ـ/ ١٤٧ هـ) (الأعلام: ج ٥، ص ٩٣).

الشمس، فقيل له: ما أردت إلى هذا؟ قال: أردت إعزاز الإسلام.

وقال أبو الحسن عن محمد بن الفضل عن أبي حازم[1] قال: مات عقبة بن عياض بن غَنْم الفِهري فعزّى رجل أباه فقال: لا تجزع عليه، فقد قُتل شهيداً ـ وكان من سادة الجيش ـ فقال: وكيف لا أصبر وقد كان في حياته زينة الحياة الدنيا، وهو اليوم من الباقيات الصالحات.

وأخبر عن عامر بن الأسود قال: اسْتُشْهِدَ لمولًى لبني نَوْفل بنونَ، فعزّاه رجلٌ فقال: آجرك الله في الباقين، ومتعك بالفانين. فقال له رجلٌ: لعلك غلطت. فقال: لا، إن الله يقول: ﴿ما عِنْدَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِنْدَ اللهِ باقٍ﴾[2].

وأخبر عن عمر بن مُجاشِع قال: قال نافع، مولى عمر بن الخطاب: سمع رسول الله ﷺ رجلاً يقول: نسأل الله تمام النعمة. فقال: أتدري ما تمام النعمة؟ إن تمام النعمةِ النجاة من النار.

وسمع ﷺ رجلاً يقول: اللهم، ارزقني صبراً. فقال: يا عبد الله، سألتَ بلاءً، فَاسألِ الله العافية.

وعن عمر بن مجاشع قال: قال رجلٌ لابن عمر وعزّاه: أعظم الله أجرك. فقال ابن عمر: نسأل الله العافية.

قال: وهذا حديثٌ نُمليه وقد مضى في صدر الكتاب ناقصاً فأتممناه في هذا الموضع ليتوفَّر ويتصل به ما بعده:

تحدث المدائني عن يعقوب بن داود[3] عن بعض أشياخه أن عبيد الله بن العباس بن عبد المطلب[4] كان عاملاً لعلي بن أبي طالب عليه السلام على اليمن، فخرج إلى عليّ، واستخلف على صنعاء عَمرَو بن أراكة الثقفي. فوجه

---

(١) سلمة بن دينار (أبو حازم): عالم المدينة يقال له الأعرج كان عالم المدينة زاهداً عابداً ومحدثاً ثقة (الأعلام: ج ٣، ص ١١٣).

(٢) سورة النحل: الآية ٩٦.

(٣) يعقوب بن داود بن عمر السلمي ولاءً «أبو عبد الله» كاتب عباسي حبسه المهدي وأخرجه الرشيد أقام في مكة بعد أن ذهب بصره حتى مات (ـ/ ١٨٧ هـ) (الأعلام: ج ٨، ص ١٩٧).

(٤) عبيد الله بن العباس بن عبد المطلب «أبو محمد» كان أصغر من أخيه عبد الله بسنة ولاه علي على اليمن وكان على مقدمة الحسن إلى معاوية مات في المدينة وكان سخياً جواداً (١ ـ ٨٧ هـ) (الأعلام: ج ٤، ص ١٩٤).

معاويةُ بُسرَ بن أرطاة، أحد بني عامر بن لؤَيّ، فقُتل عمرو بن أراكة فيمن قُتل. فجزع عليه أخوه عبد الله. فقال أبوه:

[الطويل]

لَعَمْرِي لَئِنْ أَتْبَعْتَ عَيْنَيْكَ مَا مَضَى ... بِهِ الدَّهْرُ أَوْ سَاقَ الحِمَامُ إِلَى القَبْرِ
لَتَسْتَنْفِدَنْ مَاءَ الشُّؤونِ بِأَسْرِهِ ... وَلَوْ كُنْتَ تَمْرِيهِنَّ مِنْ ثَبَجِ البَحْرِ
لَعَمْرِي لَقَدْ أَرْدَى ابْنُ أَرْطَاةَ فَارِساً ... بِصَنْعَاءَ كَاللَّيْثِ الهِزَبْرِ أَبِي الأَجْرِ
فَقُلْتُ لِعَبْدِ اللهِ إذْ حَنَّ بَاكِياً ... تَعَزَّ، وَمَاءُ العَيْنِ مُنْحَدِرٌ يَجْرِي

وأنشدني التوزيّ عن أبي زيد: إذ خنّ باكياً.

تَبَيَّنْ فَإِنْ كَانَ البُكَا رَدَّ هَالِكاً ... عَلَى أَحَدٍ، فَاجْهَدْ بُكَاكَ عَلَى عَمْرِو
وَلاَ تَبْكِ مَيْتاً بَعْدَ مَيْتٍ أَجَنَّهُ ... عَلِيٌّ وَعَبَّاسٌ وَآلُ أَبِي بَكْرِ

قال أبو العباس: وكان بُسْرٌ قَدْ قتل خَلْقاً باليمن. يقول بعضهم: حتى أخَاضَ الخيل في الدماء. وكان في من قتل طفلان لِعُبَيْدِ الله بن العباس أخذهما من الكُتّاب. فرُويَ أنه قتلهما وهما يقولان: يا عمُّ لا نعود! وأما الرواية الفاشية التي كأنها إجماع، فإنه أخذهما من تحت ذيل أمهما وهي امرأة من بني الحارث بن كعب[1]، ففي ذلك تقول لما خرج بهما من عندها:

[مجزوء الوافر]

أَلاَ مَنْ بَيَّنَ الأَخَوَيْـ ... ـنِ أُمُّهُمَا هِيَ الثَّكْلَى
تُسَائِلُ مَنْ رَأَى ابْنَيْهَا ... وَتَسْتَبْغِي فَمَا تُبْغَى

وقالت أيضاً:

[البسيط]

يَا مَنْ أَحَسَّ بُنَيَّيَّ اللَّذَيْنِ هُمَا ... كَالدُّرَّتَيْنِ تَشَظَّى عَنْهُمَا الصَّدَفُ
يَا مَنْ أَحَسَّ بُنَيَّيَّ اللَّذَيْنِ هُمَا ... قَلْبِي وَطَرْفِي فَقَلْبِي اليَومَ مُخْتَطَفُ
يَا مَنْ أَحَسَّ بُنَيَّيَّ اللَّذَيْنِ هُمَا ... مُخُّ العِظَامِ، فَمُخِّي اليَوْمَ مُزْدَهَفُ
نُبِّئْتُ بُسْراً وَمَا صَدَّقْتُ مَا ذَكَرُوا ... مِنْ قَوْلِهِمْ وَمِنَ الإِفْكِ الَّذِي اقْتَرَفُوا
أَنْحَى عَلَى وَدَجَيْ شِبْلَيَّ مُرْهَفَةً ... بَغْياً، كَذَا وَعَظِيمَ البَغْيِ يُقْتَرَفُ

---

(١) جويرية بنت خالد بن قارظ الكنانية «أم حكيم» من أجمل النساء زوجة عبيد الله بن العباس، قتل بسر بن أرطأة ولديها. (مروج الذهب: ج ٣، ص ٣١).

قال أبو الحسن: مات الحسن بن الحُصَين، أبو عبيد الله[1] بن الحسن - وعبيد الله يومئذ قاضي البصرة وأميرها - فتذاكروا ما يتبين به جزعُ الرجل من صبره، فأجمعوا على أنه إذا ترك شيئاً كان يصنعه فقد جزع، فأتاه صالح المرّي[2] فعزّاه فقال له: يا هذا، إن كانت مصيبتُك أحدثت لك عِظة في نفسك فنِعْم المصيبةُ مصيبتُك. وإن كانت لم تحدث لك عظةً في نفسك فمصيبتُك في نفسك أعظم من مصيبتك بأبيك.

وأخبر عن عامر بن حُصين والمثنّى بن عبد الله قالا: مات أخٌ لمحمد بن سيرين[3] فجزع عليه، فلما كان في مؤخر الدار ذكر أنه لم يسرِّح لحيته. فجلس ودعا بمشط، فسَرَّحَ لحيتَه ورأسه ثم خرج.

وقال الأصمعي: كان ابن سيرين يَتَرَجّل غِبّاً، فجاءه نعي أخيه في يوم ترجُّله فترجَّل.

وأخبر أبو الحسن عن عبد الله بن مُرَّة عن بعض أشياخه أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال للخنساء: ما أقْرَحَ مآقي عَينيك؟ قالت: بكائي على السادات من مُضر! قال: يا خنساء، إنهم في النار. قالت: ذاك أطولُ لعويلي عليهم.

وقال عن أبي محمود: قالت الخنساء: كنت أبكي لصخر على الحياة فأنا اليوم أبكي له من النار.

وأخبر عن محمد بن عبد الحميد قال: نعى رجلٌ لرجل ابنه فقال: قد نُعِيَ إليّ قبل ذلك. قال: ومن أعلمك بموته، وما نعاه غيري ممن يعرفك؟ قال: نعاه الله حيث يقول لنبيّه: ﴿إنَّكَ مَيِّتٌ وَإنّهم مَيّتون﴾[4].

وأخبرني عن أبي المقدام، وكان كبيراً، أدرك سعيد بن المسيّب[5]

(١) عبيد الله بن الحسن بن الحصين العنبري: فقيه عالم بالحديث ولي قضاء البصرة وتوفي فيها (١٠٥ - ١٦٨ هـ) (الأعلام: ج ٤، ص ١٩٢).

(٢) صالح بن بشير المري البصري «أبو بشير» من رواة الحديث توفي سنة ١٧٢ هـ (مرآة الجنان: ج ١، ص ٣٦٨).

(٣) محمد بن سيرين البصري: تابعي من أشراف الكتاب روى الحديث واشتهر بالورع وتعبير الرؤيا استكتبه أنس بن مالك بفارس مولده ووفاته بالبصرة (٣٣ - ١١٠ هـ) (الأعلام: ج ٦، ص ١٥٤).

(٤) سورة الزمر: الآية ٣٠.

(٥) سعيد بن المسيّب بن حَزْن بن أبي وهب القرشي: تابعي وأحد الفقهاء السبعة في المدينة كان فقيهاً محدثاً ورعاً توفي في المدينة سنة ٩٤ هـ (الأعلام: ج ٣، ص ١٠٢).

قال: بلغني أن أبا مُسْلم الخَوْلاني[1] كان يقول: لأنْ أُقدِّمَ سقْطاً أحبُّ إليَّ من أن أَدَع مئةً من خَوْلان، ولأن أقدّم فَرَطاً أحبُّ إليّ من أن أُخَلِّف خَولان كلَّها.

(١) عبد الله بن ثوب الخولاني «أبو مسلم» يمني الأصل أدرك الجاهلية وأسلم قبل وفاة النبي ﷺ فقيه نعته الذهبي بريحانة الشام كان فقيهاً عابداً وفاته بدمشق وقبره بداريّا (.../ ٦٢ هـ) (الأعلام: ج ٤، ص ٧٥).

وهذا باب من التعازي والتعزّي في الأشعار

قالت ليلى الأخيلية، قال أبو العباس: قرأته على الرياشي:

[الطويل]

أَقْسَمْتُ أَبْكي بَعْدَ «تَوْبَةَ»[1] هَالِكاً ... وَأَحْفِلُ مَنْ دَارَتْ عَلَيْهِ الدَّوائِرُ
لَعَمْرُكَ مَا بِالْمَوْتِ عَارٌ عَلى الْفَتَى ... إذَا لَمْ تُصِبْهُ في الْحَيَاةِ الْمَعَايِرُ
فَلاَ الْحَيُّ مِمَّا يُحْدِثُ الدَّهْرُ سَالِمٌ ... وَلاَ الْمَيْتُ إنْ لَمْ يَصْبِرِ الْحَيُّ نَاشِرُ
وَكُلُّ شَبَابٍ أَوْ جَدِيدٍ إلَى بِلًى ... وَكُلُّ امْرِئٍ يَوْماً إلَى اللَّهِ صَائِرُ
فَلاَ يُبْعِدَنْكَ اللَّهُ يَا تَوْبَ هَالِكاً ... أَخَا الْحَرْبِ إذْ دَارَتْ عَلَيْكَ الدَّوَائِرُ
فَأَقْسَمْتُ لاَ أَنْفَكُّ أَبْكِيكَ مَا دَعَتْ ... عَلَى فَنَنٍ وَرْقَاءُ أَوْ طَارَ طَائِرُ
قَتِيلُ بَنِي عَوْفٍ فَيَا لَهْفِي لَهُ ... وَمَا كُنْتُ إيَّاكُمْ عَلَيهِ أُحَاذِرُ

قال أبو العباس: وأشعار المراثي كثيرة، وإنما نختار عيوناً من جميعها ومن الشيء أحسنه. وكذلك الكلام غير الشعر. ولم تكن ليلى الأخيلية امرأة لتوبة، ولا بينهما نسب لاصق إلا أنهما جميعاً من بني عُقَيل بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة. وكانت تحبه ويحبها. وَرَوت الرواة أنه خلا بها مرة فأرادها على ما يريد الرجال، فأبت واشمأزت. ففي ذلك تقول:

[الطويل]

وَذِي حَاجَةٍ قُلْنَا لَهُ لاَ تَبُحْ بِهَا ... فَلَيْسَ إلَيْهَا مَا حَيِيتَ سَبِيلُ
لَنَا صَاحِبٌ لاَ يَنْبَغِي أَنْ نَخُونَهُ ... وَأَنْتَ لأُخْرَى صَاحِبٌ وَخَلِيلُ

فأقاما دهراً على حب عفيف، وهي السُّنة الجارية في العشاق الماضين من بني عُذرة، وغيرهم.

---

(١) توبة بن الحُمَيّر بن حزم بن كعب بن خفاجة العُقَيلي العامري «أبو حرب» شاعر من العشاق المشهورين كان يهوى ليلى الأخيلّة ولما خطبها رده أبوها فشبب بها في شعره واشتهر أمره قتله بنو عوف بن عقيل (.../٨٥ هـ) (الأعلام: ج ٢، ص ٨٩).

وكان سبب قتل توبة أن بني عوف كانوا يطلبونه فأحسُّوه، وقد قدم من سفر ومعه عبيد الله بن الحُمَيِّر، أخوه، وقابضٌ، مولاه. وبينه وبين الحَيِّ ليلة، فأتَوْه طُروقاً[1]، فهرب صاحباه وأسْلَماه فَقُتِل. ففي ذلك تقول ليلى:

[الطويل]

دَعَا «قَابِضاً» وَالْمُرْهَفَاتُ تَنُوشُهُ ... فَقُبِّحْتَ مَدْعُوّاً وَلُبِّيتَ دَاعِيَا
فَلَيْتَ عُبَيْدَ اللَّهِ حَلَّ مَحَلَّهُ ... فَأَوْدَى وَلَمْ أَسْمَعْ لِتَوْبَةَ نَاعِيَا

وقالت:

[الطويل]

أعَيْنَيَّ ألاَ فابْكِي على ابْنِ حُمَيِّرِ ... بِدَمْعٍ كَفَيْضِ الجَدْوَلِ الْمُتَفَجِّرِ
لِتَبْكِ عَلَيْهِ مِنْ خَفَاجَةَ نِسْوَةٌ ... بِمَاءِ شُؤونِ الْعَبْرَةِ الْمُتَحَدِّرِ

خَفَاجَة بن عُقَيل.

سَمِعْنَ بِهَيْجا أَوْجَفَتْ فَذَكَرْنَهُ ... وقَدْ يَبْعَثُ الأَحْزانَ طولُ التَّذَكُّرِ
كَأَنَّ فَتى الْفِتْيانِ تَوْبَةَ لَمْ يُنِخْ ... بِنَجْدٍ وَلَمْ يَطْلُعْ مَعَ الْمُتَغَوِّرِ
وَلَمْ يَرِدِ الْمَاءَ السِّدامَ إذا بَدا ... سَنا الصُّبْحِ في أعْقابِ أَخْضَرَ مُدْبِرِ

السِّدام: الآبار القديمة المندفنة. وجمعها سُدوم. وقولها: «سنا الصبح»، السنا: من الضوء، مقصور كقول الله جلّ وعز: ﴿يَكادُ سَنا برقِهِ يَذهبُ بالأبصار﴾[2]. والسَّناء: من الشرف، ممدود.

وقولها: «في أعقابِ أخْضَرَ مُدْبِرِ»، تعني الليل، تريد بأخضر: أسود. وجعلتهُ مدبراً لورود الصبح.

وَلَمْ يَقْدَعِ الْخَصْمَ الأَلَدَّ وَيملأ الْـ ... ـجِفانَ سَدِيفاً يَوْمَ نَكْباءَ صَرْصَرِ

النكباء: الريح بين الريحين. والسديف: شقق السنام، والصرصر: الريح الشديدة الصوت، الباردة.

أَلاَ رُبَّ مَكْرُوبٍ أَجَبْتَ وَنائِلٍ ... فَعَلْتَ، ومَعْروفٍ لَدَيْكَ وَمُنْكَرِ
فَيا تَوْبَ لِلْمَوْلَى، وَيا تَوْبَ لِلنَّدَى ... وَيا تَوْبَ لِلْمُسْتَنْبِحِ الْمُتَنَوِّرِ

فقال لها رجل: ما كان توبة كما ذكرت. وقلتِ «فتى الفتيان» وما كان كذاك. فقالت: إن كنتَ كاذباً فأشَلَّ اللَّهُ عَشْرَك[3]، وأدام فقرك. كان

(١) طرق القوم طروقاً: أتاهم بالليل. (٢) سورة النور: الآية ٤٣. (٣) العَشْر: أصابع اليدين.

والله شديد المِرَّة[1]، لَيِّن العَطْفَة، يُرضيه أقل مما يُسخطه.

وقالت أيضاً:

[الطويل]

نَظَرْتُ وَرُكْنٌ مِنْ أَبانَيْنِ دُونَهُ ... مَفاوِزُ حِسْمَى أي نَظْرَةِ ناظِرِ
كَأَنَّ فَتى الْفِتْيانِ تَوْبَةَ لَمْ يُنِخْ ... قَلائِصَ يفْحَصْنَ الْحَصى بالْكَراكِرِ
وَلَمْ يَبْنِ أَبْراداً عِتاقاً لِفِتْيَةٍ ... كِرام ويَرْحَلْ قَبلَ فَيءِ الْهواجِرِ
فَتًى لا تَخَطَّاهُ الرِّفاقُ وَلاَ يَرى ... لِقِدْرٍ عِيالاً دونَ جارٍ مُجاوِرِ
فإنْ تَكُنِ الْقَتْلى بَواءً فإنَّكُمْ ... فَتًى ما قَتَلْتُمْ آلَ عَوْفِ بنِ عامِرِ

البواء: الأمثال. يقال: باء فلان بفلان إذا قُتِلَ به. تقول: فإن تكن القتلى يبوء بعضها ببعض، فإن توبة فوق ذلك.

وأما قوله جل وعز: ﴿**إني أُريدُ أَنْ تَبُوءَ بإثمي وإثمِكَ**﴾[2]، إنما هو إنْ فعلتَ أنْ تحتمل الإثمين المتساويين: الذي رَدَّ عليك قربانَك فلم يُقبَلْ من أجله، وقتلُك إياي، وكان كلُّ واحد منهما كفاء الآخر. هذا اشتقاق هذا المعنى. ومن ذلك قول مُهَلْهِل بن ربيعة حين قَتَلَ بُجيْرَ بن الحارث بن عباد: بُؤْ بِشِسْعِ كُلَيْب، فقيل للحارث بن عباد: إن ابنك بُجَيراً قد قُتِلَ. قال: إنه لأعظم قتيلٍ بَرَكةً إنْ أصلح الله به بَيْنَ ابْنَيْ وائِلٍ. قيل: إنّ مُهلهلاً لما قَتلَهُ قال: بُؤْ بِشِسْعِ كُلَيْب. فعند ذلك دخل الحارث في حربهم ولم يكن دخلها.

رَجعَ الشعرُ

وإلاَّ يَكُنْ فيها بَواءٌ فإنَّكُمْ ... سَتَلْقَوْنَ يَوماً سِرُّهُ غَيْرُ صادِرِ
وكُنْتَ إذا مَوْلاكَ خافَ ظُلامَةً ... دَعاكَ وَلَمْ يَعْدِلْ سِواكَ بِناصِرِ
وَقَدْ كُنْتَ مَرْهُوبَ الجَنانِ وَبَيِّناً ... وَمِجْدامَ سَيْرٍ دائِباً غَيْرَ فاتِرِ
فَنِعْمَ الْفَتَى إنْ كانَ تَوْبَةُ فاجِراً ... وَفَوْقَ الْفَتَى إنْ كانَ لَيْسَ بِفاجِرِ
أَتَتْهُ الْمَنايا دونَ دِرْعٍ حَصِينَةٍ ... وَأَسْمَرَ خَطِّيٍّ وَجَرْداءَ ضامِرِ
فَبِاللهِ تَبْني بَيْتَها أُمُّ عاصِمٍ ... على مِثْلِهِ أُخرى الّليالي الْغوابِرِ

وروت الرواة أنها زارت قبره، فجعلت تقول: يا توبة، يا توبة! ثم أقبلت

---

(١) المِرّة: القوة.

(٢) سورة المائدة: الآية ٢٩.

على مَنْ معها بعد أن سلَّمتْ على القبر. فقالت: ما كذبني قبلها. فقيل: فيم ذاك، وما تبيَّنا منه كذباً. قالت: لأنه قال في بعض قوله:

[الطويل]

ولو أنَّ لَيْلى الأخْيَلِيَّةَ سَلَّمَتْ	عليَّ وَدُوني تُرْبَةٌ وَصَفائِحُ
لَسَلَّمْتُ تَسْليمَ الْبَشاشَةِ أوْ زَقا	إلَيْها صدًى مِن داخِلِ الْقَبْرِ صائِحُ

قال: وهذا الكلام غاية المدح، لا لأنها جهلت حال الموتى ولكنها دلت على أنه لم تُعرَف منه كذبةٌ قط -حتى يُعتدّ عليه بها ميتاً.

وقال سليمان ابن قَتَّةَ(١)، وهو مولى لبني تيم، وانقطاعه إلى بني هاشم - يذكر يوم الحسين بن عليّ بن أبي طالب عليه السلام:

[الطويل]

مَرَرْتُ عَلى أبْياتِ آلِ مُحَمَّدٍ	فَلَمْ أرَها كَعَهْدِها يَوْمَ حُلَّتِ
فَلا يُبْعِدِ اللَّهُ الدِّيارَ وَأهْلَها	وَإنْ أصْبَحَتْ من أهلِها قَدْ تَخَلَّتِ
وكانُوا رَجاءً ثُم عادوا رَزِيَّةً	فقدْ عَظُمَتْ تِلْكَ الرَّزايا وَجَلَّتِ
وَإنَّ قَتيلَ الطَّفِّ مِنْ آلِ هاشِمٍ	أذَلَّ رِقابَ الْمُسْلِمِينَ فَذَلَّتِ
وعِنْدَ غَنِيٍّ قَطْرَةٌ مِن دِمائِنا	سَنَجْزيهِمُ يَوْماً بِها حَيْثُ حَلَّتِ
إذا افْتَقَرَتْ قَيْسٌ جَبَرْنا فَقيرَها	وَتَقْتُلُنا قَيْسٌ إذا النَّعْلُ زَلَّتِ

قال أبو العباس: أنشدنيها الرِّياشيّ، وأنشدني ما بعدَها مِمّا أُمليه إلى انقطاعه.

وقال الفرزدق يذكر ابْنَيْ مِسْمَع، وكان قد قتلهما معاويةُ بنُ يَزيدَ بنِ المُهَلَّبِ بعد قتلِ ابنه، وكانا مَرْوانيَّين، وكان سائرُ بَكر بن وائل مع يزيدَ بن المُهلَّب، وكان «المَنْتُوف» مولى بني قيس بن ثعلبة، على شرطة يزيد، فقُتلَ لسبَبٍ عندهُ مع يزيد فبَكتْهُ بَكرُ بن وائل وهو مَوْلى وأعْرَضتْ عن ابنيْ مِسمع وهما صَلِيبةٌ. فقال الفرزدق:

[الطويل]

تُبَكّي على الْمَنْتوفِ بَكْرُ بنُ وائِلٍ	وَتَنْهى عَنْ ابْنَي مِسْمَعٍ مَنْ بَكاهُما
غُلامانِ شَبّا في الحُروبِ وَأدْرَكا	كِرامَ الْمَساعي قَبْلَ وَصْلِ لِحاهُما

(١) سليمان ابن قتة البصري: نسبته إلى أمه «قتة» من كبار الشعراء وصديق أسد بن عبد الله القسري المتوفى سنة ١٢٠ هـ (تاريخ الطبري: ج ٨، ص ١٢٠).

وَلَـوْ كـانَ حَـيّـاً مـالِـكٌ وَابْـنُ مـالِـكٍ إِذَنْ أَوْقَـدا نـارَيْـنِ يَـعْـلـو سَـنـاهُـمـا

وقال الفرزدق أيضاً يرثي ابنين له ماتا في مدة يسيرة:

[الطويل]

بِفي الشـامِـتيـنَ التُّرْب إِنْ كـانَ مَسَّـني رَزِيَّـةُ شِـبْـلَـيْ مُـخْـدِرٍ فـي الـضَّـراغِـمِ
ومَـا أَحَـدٌ كـانَ الْـمَـنـايـا وَرَاءَهُ وَإِنْ عـاشَ أَيّـامـاً طِـوالاً بِـسـالِـمِ
أَرى كُـلَّ حَـيٍّ لا تَـزَالُ طَـلِـيـعَـةٌ عَـلَـيْـهِ الـمَـنـايا مَـن ثَـنـايا الـمَـخـارِمِ
يُـذَكِّـرُنـي ابْـنَـيَّ الـسِّـماكَـانِ مَـوْهِـنـاً إِذَا ارْتَـفَـعَـا فَـوْقَ الـنُّـجُـوم الْـعَـواتِـمِ
وَقَـدْ رُزِىءَ الأَقْـوامُ قَـبْـلِـي بَـنِـيـهِـمُ وَإِخْـوانَـهُـمْ فَـاقْـنَـيْ حَـيـاءَ الْـكَـرائِـمِ
وَمـاتَ أَبِـي وَالْـمُـنْـذِرانِ كِـلاهُـمـا وَعَـمْـرُو بْـنُ كُـلْـثـوم شِـهـابُ الأَراقِـمِ
وَقَـدْ كـانَ مـاتَ الأَقْـرَعـانِ وَحـاجِـبٌ وَعَـمْـرٌو وأَبـو عَـمْـرٍو وَقَـيْـسُ بْـنُ عـاصِـمِ
وَقَـدْ مـاتَ بِـسْـطـامُ بـنُ قـيسِ بنِ خـالدٍ ومـاتَ أَبـو غَـسّـان شَـيْـخُ الـلـهـازِمِ
وَقَـدْ مـاتَ خِـيْـراهُـمْ فَـلَـمْ يُـهْـلِـكـاهُـمُ عَـشِـيَّـةَ بَـانـا، رَهْـطِ كَـعْـبٍ وَحَـاتِـمِ
فَـما ابْـنَـاكِ إِلاَّ مِـنْ بَـنِي الـنَّـاس فـاصْـبِري فَـلَـنْ يُـرجِـعَ الـمَـوْتَـى حَـنـيـنُ الـمَـآتِـمِ

ويقال: خَنِين(١).

وماتت امرأة له أيضاً وبها حَمْلٌ، فقال:

[الطويل]

وَجَـفْـنِ سِـلاَحٍ قَـدْ رُزِئْـتُ فَـلَـمْ أَنُـحْ عَـلَـيْـهِ وَلَـمْ أَبْـعَـثْ عَـلَـيْـهِ الـبَـواكِـيـا
وَفـي جَـوْفِـهِ مِـنْ دَارِمٍ ذُو حَـفِـيـظَـةٍ لَـو أَنَّ الـمَـنـايـا أَرْجَـأَتْـهُ لَـيَـالِـيـا

وقال بعض الشعراء يعزّي رجلاً عن ابنه:

[الكامل]

اصْـبِـرْ لِـكُـلِّ مُـصِـيـبَـةٍ وَتَـجَـلَّـدِ وَاعْـلَـمْ بِـأَنَّ الـمَـرْءَ غَـيْـرُ مُـخَـلَّـدِ
وَإِذا ذَكَـرْتَ مُـحَـمَّـداً وَمُـصـابَـهُ فَـاذْكُـرْ مُـصـابَـكَ بِـالـنَّـبِـيِّ مُـحَـمَّـدِ

وقال الحَكَميّ(٢) وأحسن جداً:

[الطويل]

طَـوى الـمَـوْتُ ما بَيْـني وَبَيْـنَ مُـحَـمَّـدٍ وَلَـيْـسَ لِـمـا تَـطْـوي الـمَـنِـيَّـةُ نـاشِـرُ
لَـئِـنْ أَوْحَـشَـتْ مِـمَّـنْ أُحِـبُّ مَـنـازِلٌ لَـقَـدْ أَنِـسَـتْ مِـمَّـنْ أُحِـبُّ الـمَـقَـابِـرُ

(١) الخَنِين: صوت من الخيشوم.
(٢) الحكميّ: أبو نواس.

وَكُنْتُ عَلَيْهِ أَحْذَرُ الْمَوْتَ وَحْدَهُ ... فَلَمْ يَبْقَ لي شَيءٌ عَلَيْهِ أُحاذِرُ

وهذا يشبه قول التَّيْمي[1] في يَزِيدَ بن مَزْيد[2]:

[الوافر]

لَقَدْ عَزَّى رَبِيعَةَ أَنَّ يَوْماً ... عَلَيْها مِثْلَ يَوْمِكَ لا يَعُودُ

وقال حارثة بن بدر الغُداني يرثي زياداً[3]:

[البسيط]

صَلَّى الإلهُ عَلى قَبْرٍ وَطَهَّرَهُ ... عِنْدَ الثَّوِيَّةِ يُسْفى فَوْقَهُ المُورُ

زَفَّتْ إليهِ قُرَيشٌ نَعْشَ سَيِّدِها ... فالْجُودُ وَالحَزْمُ فِيهِ اليَوْمَ مَقْبُورُ

أَبا المُغيرَةِ وَالدُّنيا مُفَجِّعَةٌ ... وَإِنَّ مَنْ غَرَّتِ الدُّنيا لَمَغْرُورُ

قَدْ كانَ عِنْدَكَ لِلْمَعْروفِ مَعْرِفَةٌ ... وَكانَ عِنْدَكَ لِلنَّكْراءِ تَنْكِيرُ

وَكُنْتَ تُغْشى وَتُعْطِي الْمالَ مِنْ سَعَةٍ ... إنْ كانَ بابُكَ أَضْحى وَهْوَ مَهْجورُ

فالنَّاسُ بَعْدَكَ قَدْ خَفَّتْ حُلُومُهُمُ ... كَأَنَّما نَفَخَتْ فيها الأعاصِيرُ

وقال خُلَيْد عَيْنَين[4] يَرثي المُنذرَ بن الجارُود العَبْديّ[5] وكانت بَحْرِيَّةُ ابنة المنذر تحت عبيد الله بن زياد، ومات المنذر بالسِّنْد في موضع يقال له «قُصْدار»[6]:

[السريع]

بَحْرِيُّ، قُومي فَانْدُبي مُنْذِراً ... وابْكِي ابْنَ بِشْرٍ سَيِّدَ الوَافِدِينْ

وَابْكِي أَبا الأشْعَثِ لَمَّا ثَوى ... بِالْهِنْدِ لَمْ يَقْفُلْ مَعَ الْقافِلِينْ

---

(١) عبد الله بن أيوب «أبو محمد التيميّ» شاعر عباسي مدح الأمين والمأمون (ـ/ ٢٠٩ هـ) (الأعلام: ج ٤، ص ٧٣).

(٢) يزيد بن مزيد بن زائدة الشيباني «أبو خالد» أمير شجاع ووالٍ على أرمينية وأذربيجان وأخباره كثيرة في الشجاعة والكرم قتل ابن طريف وتوفي ببردعة (من بلاد أذربيجان) (../ ١٨٥ هـ) (الأعلام: ج ٨، ص ١٨٨).

(٣) زياد بن أبيه.

(٤) خليد بن عبد الله بن دارم بن مالك «من عبد القيس» نزل بأرض تعرف بالعينين في البحرين فنسب إليها «الشعر والشعراء» ص ٤٣٤.

(٥) المنذر بن الجارود العبدي: أمير جواد ولاه علي بن أبي طالب اصطخر وعزله ثم ولاه عبيد الله بن زياد بن أبيه ثغر الهند ومات فيها (١ ـ ٦١ هـ) (الأعلام: ج ٧، ص ٢٩٢).

(٦) قُصْدار أو قُزْدار: من نواحي الهند بينها وبين بُسْت ثمانون فرسخاً (معجم البلدان: ج ٤، ص ٣٤١).

جاوَرَ قُضْدارَ وَأَكْنافَها تَسْفي عَلَيْهِ الرِّيحُ مُورَ الدَّرِينْ[1]
في جَدَثٍ عافٍ، بِمَهْجُورَةٍ ناءٍ عَنِ الزُّوّارِ وَالعائِدِينْ
فَأَصْبَحَ المَجْدُ بِها ثاوِياً بَيْنَ صَفاً صُمٍّ وَصَخْرٍ رَزِينْ
لِلَّهِ قُضْدارٌ وَأَكْنافُها أَيَّ فَتى دُنْيا أَجَنَّتْ وَدِينْ
قَدْ عَلِمَتْ نَفْسي فَما أَمْتَرى حَقّاً سِوى الظَّنِّ وَقَوْلِ اليَقِينْ
ما الحَيُّ وَالمَيِّتُ فِيما تَرى مِنْ حَدَثِ الدَّهْرِ وَرَيْبِ المَنُونْ
إلاّ كَغادٍ راحَ أَصْحابُهُ أَوْ رائِحٍ في أَثَرِ المُغْتَدِينْ
ماتَ بِها الجُودُ وَأَوْدى النَّدى وَانْقَطَعَ الخَيْرُ عَنِ السَّائِلِينْ

وقال جرير يرثي عمر بن عبد العزيز رحمة الله عليه:

[البسيط]

نَعى النُّعاةُ أَميرَ المُؤْمِنينَ لَنا يا خَيْرَ مَنْ حَجَّ بَيْتَ اللَّهِ وَاعْتَمَرا
حُمِّلْتَ أَمْراً عَظيماً فاصْطَبَرْتَ لَهُ وَقُمْتَ فيهِمْ بِأَمْرِ اللَّهِ يا عُمَرا
فالشَّمْسُ طالِعَةٌ لَيْسَتْ بِكاسِفَةٍ تَبْكي عَلَيْكَ نُجومَ اللَّيْلِ وَالقَمَرا

وقال بُكَيرُ بنُ مَعْدان اليَرْبوعيّ يرثي يحيى بن مُبَشِّر، وكان قُتل بِمَسْكِن[2] مع مصعب بن الزبير:

[السريع]

صَلَّى عَلى يَحْيى وَأَشْياعِهِ رَبٌّ غَفورٌ وَشَفيعٌ مُطاعْ
لَمَّا عَصى المُصْعَبَ أَصْحابُهُ أَدّى إِلَيْهِ الكَيْلَ صاعاً بِصاعْ
أُمُّ عُبَيْدِ اللَّهِ مَحْزُونَةٌ ما نَوْمُها بَعْدَكَ إلا الرُّواعْ
يا فارِساً، ما أَنْتَ مِنْ فارِسٍ مَوَطَّإِ البَيْتِ رَحيبِ الذِّراعْ
قَوّالِ مَعْروفٍ وَفَعّالِهِ عَقّارِ مَثْنى أُمَّهاتِ الرِّباعْ
لا تَخْرُجُ الأَضْيافُ مِنْ بَيْتِهِ إلاّ وَهُمْ مِنْهُ رِواءٌ شِباعْ
مَنْ يَكُ لا ساءَ فَقَدْ ساءَني تَرْكُ أُبَيْنَيْكَ إِلى غَيْرِ راعْ

وحدّثنا بعض جلساء القَحْذَمي[3]، وذكرَ امرأة من الأعراب، فقال: كان لها

---

(1) مور الدارين: فرضة بالبحرين يجلب إليها المسك من الهند (معجم البلدان: ج ٥، ص ٤٣٢).

(2) مَسْكِن: موضع عند دير الجاثليق قتل فيه مصعب سنة ٧٢ هـ على نهر دجيل (معجم البلدان: ج ٥، ص ١٢٧).

(3) أبو عبد الرحمن الوليد بن هشام القذحمي: بصري توفي سنة ٢٢٢ هـ (البيان والتبيين: ج ٢، ص ١٩٢).

أربعة بنين، وكان يَمُرّ بها إخوةٌ أربعةٌ غادون لشأنهم، وكانت تأنسُ بهم لمشاكلتهم بنيها في العدد والأسنان، ثمَّ أصيب بنوها جميعاً إما بطاعون أو ما يشبهه فاجتنبها الإخوة الأربعة إبقاءً عليها من الحزن إذا رأتهم، ثمَّ عزموا عَزمةً على المرور بها مرحاً وبغياً. فلمّا رأتهم ذَرفتْ عيناها وتمثَّلت:

[الكامل]

لَـنْ يُـلْـبِـثَ الْـقُـرَنـاءَ أَنْ يَـتَـفَـرَّقـوا　　لَـيْـلٌ يَـكُـرُّ عَـلَـيْـهِـمُ وَنَـهـارُ

فاعتلَّ أحدهم فمات، فغَبَر الثلاثة لا يقربونها، ثم فعلوا فلما رأتهم تمثلتْ:

[السريع]

كُـــلُّ بَـــنِـــي أُمٍّ وَإِنْ أَكْــثَــرَتْ　　يَــوْمــاً يَــصــيــرُونَ إِلــى واحِــدِ

فلم يلبث واحدٌ منهم أنْ مات. وغبَرَ الاثنانِ لا يقربانها، ثم اجتازا بها على نحو ما فعلوا من المَرَح والدَّالَّة، فلما رأتْهُما قالت:

[الوافر]

وَكُـــلُّ أَخٍ مُـــفـــارِقُـــهُ أَخـــوهُ　　لَـــعَـــمْـــرُ أَبِـــيـــكَ إِلاَّ الْـــفَـــرْقَـــدانِ

فمات أحدهما فاجتنبها الباقي دهراً. ثم مرَّ بها فتمثلت:

[السريع]

وَالْـواحِـدُ الْـفَـرْدُ كَـمَـنْ قَـدْ مَـضـى　　لَـيْـسَ بِـمَـمْـتْـرُوكٍ وَلا خـالِـدِ

فقال: أقيليني جعلني الله فداك، فإني والله غير عائد.

قال أبو العباس: وهذان بيتان قديمان لا يعرف قائلهما. ويروى أن أبا بكر الصديق رحمه الله كان ينشدهما، فبعض الناس يقول: هما له:

[مجزوء الكامل]

تَـنْـفَـكُّ تَـسْـمَـعُ مـا حَـيِـيـتَ　　بِـهـالِـكٍ حَـتَّـى تَـكُـونَـهْ

وَالْـمَـرْءُ قَـدْ يَـرْجـو الـرَّجـا　　ءَ مُـغَـيَّـبـاً وَالْـمَـوْتُ دُونَـهْ

وقال وضّاح اليمن[1]:

[المنسرح]

يـا مَـوْتُ مـا إنْ تَـزالُ مُـعْـتَـرِضـاً　　لِآمِـلٍ دونَ مُـنْـتَـهـى الأَمَـلِ

لَـوْ كـانَ مَـنْ فَـرَّ مِـنْـكَ مُـنْـفَـلِـتـاً　　إِذَنْ لأَوْشَـكَـتْ رِحْـلَـةَ الْـجَـمَـلِ

---

(١) عبد الرحمن بن إسماعيل بن عبد كُلال من آل خولان من حِمْيَر: شاعر غزلي جميل الطلعة قتله الوليد بن عبد الملك لتغزله بأم البنين زوجته (../٩٠ هـ) (الأعلام: ج ٣، ص ٢٩٩).

وقال مَعْنُ بن أَوْس المُزنيُّ[1]:

[الطويل]

أَلَمْ تَعْلَمي عَمْراً وَسُفيانَ بَعْدَهُ ... وَضَمْرَةَ أَمْسى فاتَني ومُسافِعُ
أولئِكَ لاَ أَنْتُنَّ كَانُوا فوارسي ... بِهِمْ كُنْتُ أَسْتَخْشِي العِدا وَأُدافِعُ
فَأَصْبَحْتُ أَرْقي الشّامِتينَ رُقاهُمُ ... لِيَرْبُوَ طِفْلٌ أَوْ لِيُجْبَرَ ظالِعُ
وَصانَعْتُ في أَشْياءَ لَوْ أَنَّهُمْ مَعِي ... لَباعَدْتُ حَتَّى تَسْتَقيدَ التَّوابِعُ

قال: وحدثني الرّياشي في إسنادٍ قال: أُنشد عروةُ بن الزبير قولَه «بهمْ كنتُ أَستَخْشي العِدا وأُدافع»، فقال عُرْوةُ: فَهلاً قال: «فَباللَّهِ، أستخشي العِدا وأدافع» ولا يَنكسرُ عليه شعره.

قال الرِّياشيّ: وأُنشد عبدُ الله بن عمر قولَ حسان بن ثابت:

[المنسرح]

يَأبى لِيَ السَّيْفُ وَاللِّسانُ وَقَوْ ... مٌ لَمْ يُضامُوا كَلِبْدَةِ الأَسَدِ

فقال: هَلاً قال: «يأبى ليَ الله». ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وقال محمد بن حرب الهلالي: أتى حيَّانُ بن سَلمى العامري قبرَ عامر بن الطُّفيل ولم يكن شهده فقال: أَنعِمْ صباحاً أبا عليّ، واللّهِ لقد كنتَ سريعاً إلى المؤلى بوعدك، بطيئاً عنه بإيعادك، ولقد كنتَ أهدى من النَّجم، وأَجرأ من السَّيل. ثمَّ التفتَ إِليهم فقال: كان ينبغي أن يُصيّروا قبر أبي علي مِيلاً في مِيل.

وقال محمد بن علي المنسوب إلى أُمّه الحنَفيَّة[2]: أيُّها الناس، إنكم في هذه الدار أغراضٌ تَنْتضِلُ فيكم المنايا، لن يستقبل أحدٌ منكم يوماً جديداً من عُمره إلاّ بآخَرَ مِنْ أجَلِهِ، فأيَّةُ أَكْلةٍ ليس معها غَصَص، أم أيَّةُ شربة ليس معها شرَق؟ فاستصلحوا ما تَقْدَمون عليه بما تَظْعنون عنه، فإنَّ اليوم غنيمة، وغداً لا يُدرى لِمن هو. أهلُ الدنيا أهلُ سَفَر، يَحُلُّون عقدَ رِحالِهِمْ في غيرها. قد خَلَتْ مِنْ قبلنا أصولٌ نحن فروعها. فما بقاء الفرع بعد أصله؟ أين الذين كانوا أطولَ منا أعماراً وأَبعد منّا آمالاً؟ أتاك يابنَ آدمَ ما لا تردُّه، وذهب عنك ما لا يعود إليك. فلا تَعُدَّنَّ عيشاً منصرفاً عيشاً مالك منه إلاّ لَذَّةٌ تَزدلِفُ بك إلى حمامك، وتقرّبك

(١) معن بن أوس المزني: شاعر مجيد مخضرم كف بصره في آخر حياته (ـ/ ٦٤ هـ) (الأعلام: ج ٧، ص ٢٧٣).

(٢) محمد بن علي بن أبي طالب: أمه خولة بنت جعفر الحنفية ينسب إليها تمييزاً عن الحسن والحسين من أبطال الإسلام الأشداء (٢١ ـ ٨١ هـ) (الأعلام: ج ٦، ص ٢٧٠).

من أجَلك، فكأنك قد صرتَ الحبيب المفقود والسَّوادَ المُخْتَرَم[1]. فعليك بذاتِ نفسك، ودَعْ ما سواها، واستغن بالله يُغنك.

ومما يُستحسن من قول مُتمِّم بن نويرَة الدالِّ على صحة عقله وتمكُّن الحزن من قلبه، وقلَّةِ نسيانه أخاه، أنه كان لا يمرّ بقبر، ولا يُذكر الموت بحضرته إلاّ قال: «يا مالك» ثم فاضت عَبرته، ففي ذلك يقول:

[الطويل]

وقالوا أتَبْكي كُلَّ قَبْرٍ رأَيْتَهُ ... لِقَبْرٍ ثَوَى بَيْنَ اللِّوى والدَّكادِكِ

فقُلْتُ لَهُمْ إنَّ الأَسَى يَبْعَثُ الْبُكا ... ذَروني فَهذا كُلُّهُ قَبرُ مالِكِ

ومن هذه المختصرات قولُ هشام بن عقبة[2]، أخي ذي الرُّمة، وكان له إخوةٌ جماعةٌ فمات أكبرُهم، وكان يُقال له: «أَوْفى» ثم مات ذو الرمة، وكان يُقال له: «غيْلان» فقال هشام:

[الطويل]

تَسَلَّيْتُ عَنْ أَوْفى بِغَيْلانَ بَعْدَهُ ... عَزاءً وجَفْنُ العَيْنِ بالماءِ مُتْرَعُ

وَلَمْ تُنْسِني أَوْفى المُصِيباتُ بَعْدَهُ ... ولَكِنَّ نَكْءَ القَرْحِ بالقَرْحِ أَوْجَعُ

فاختصر هذا اختصاراً يوفّر على كلِّ واحد منهما نصيبه من الحزن.

ويُروى من غير وجهٍ أنّ حسّان بن ثابت دخل على النّابغةِ الذبيانيّ فتلقّته الخنساءُ خارجةً من عنده، فأنشده قصيدته التي يقول فيها:

[الكامل]

أولادُ جَفْنَةَ حَولَ قَبْرِ أَبيهِمُ ... قَبْرِ ابنِ مارِيَةَ الكَريمِ المُفْضِلِ

يُغْشَوْنَ حَتَّى ما تَهِرُّ كِلابُهُمْ ... لا يَسْأَلونَ عَنِ السَّوادِ المُقْبِلِ

فقال: إنك لشاعر وإن أخت بني سُليم لبكّاءة.

قال أبو العباس: فمما قدمناه من شعرها واستحسناه من تخلصها قولها:

[المتقارب]

أَعَيْنَيَّ جُودا ولا تَجْمُدا ... أَلا تَبْكِيانِ لِصَخْرِ النَّدى؟

أَلا تَبْكِيانِ الجَرِيءَ الجَميلَ ... أَلا تَبْكِيانِ الفَتى السَّيِّدا؟

(١) المُخْتَرَم: اخترم فلان: مات.

(٢) هشام بن عقبة العدوي: شاعر أخو ذي الرمة «غيلان» وهو الذي رباه وبينهما مساجلات في الشعر (../١٢٠ هـ) (الأعلام: ج ٨، ص ٨٧).

فجعلته سادَ حدَثاً ووكَّدتْ ذلك وزادتْ فيه وأوضحته بأن قالت:

طَويلَ العِمادِ عَظيمَ الرَّما ... دِ سادَ عَشيرَتَهُ أَمرَدا
إذا القَوْمُ مَدُّوا بأَيديهِمُ ... إِلى المَجْدِ مَدَّ إِلَيْهِ يَدا
فَنالَ الّذي فَوْقَ أَيديهِمُ ... مِنَ المَجْدِ ثُمَّ نَما مُصْعِدا
يُكَلِّفُهُ القَوْمُ ما عالَهُمْ ... وَإِنْ كانَ أَصْغَرَهُمْ مَوْلِدا
تَرى المَجْدَ يَهْوي إِلى بَيْتِهِ ... يَرى أَفْضَلَ الزّادِ أَنْ يُحْمَدا

فقرنت له المجدَ بالحمد.

ويقال: بل صحّ أنه كان من دعاء سعد بن عبادة[1] ـ وهو سيّد الخزْرَج ـ: اللَّهُمَّ ارزُقني مَجداً وحَمْداً فإنه لا مجدَ إلا بمال، ولا حمدَ إلا بفَعال.

وكان سبب ميتةِ أخيها صخر أنه شهد حرباً فأبلى فيها وتقدَّم، فحمل عليه رجلٌ من القوم فطعنه في خاصرته، فتحامل في الجراحة فجَوِيَ منها ولم يُفصَدْ فخرج منها كمثل اليد، وأضنته حَوْلاً أو حَوْلين لا يَنْبعثُ، فسمع من يَسأل امرأته عن علّته، وأين بلغتْ منه، فقالت امرأته قولاً يدل على البرَم به، والمَلل لِصُحبته: «لا حيٌّ فيُرجى، ولا مَيّت فيُحتسب». والتفت إلى أُمّه فإذا دموعها تجري فقال:

[الطويل]

أرى أُمَّ صَخْرٍ ما تَجِفُّ دُموعُها ... ومَلَّتْ سُلَيمى مَضْجَعي ومَكاني
وما كُنْتُ أَخشى أَنْ أَكونَ جِنازَةً ... عَلَيْكِ، ومَنْ يَغْتَرُّ بالحَدَثانِ
فَأَيُّ امْرِئٍ ساوى بِأُمٍّ حَليلَةً ... فَلا عاشَ إِلاّ في شَقاً وَهَوانِ
لَعَمْري لَقَدْ نَبَّهْتُ مَنْ كانَ نائِماً ... وأَسْمَعْتُ مَنْ كانتْ لَهُ أُذُنانِ
أَهُمُّ بِأَمْرِ الحَزْمِ لَوْ أَسْتَطيعُهُ ... وَقَدْ حيلَ بَيْنَ العَيْرِ وَالنَّزوانِ

فلما رأى ذلك بَرِمَ بتلك الخُرّاجَةِ من جَنبه، فأشاروا بقطعها ففعَل، فلما قطعها يَئِس من نفسه، ففي ذلك يقول:

[الطويل]

أَجارَتَنا إِنَّ المَنونَ قَريبُ ... مِنَ النّاسِ كُلَّ المُخْطِئينَ تُصيبُ

---

(١) سعد بن عبادة بن دليم بن حارثة الخزرجي «أبو ثابت» صحابي من المدينة وأحد الأمراء الأشراف في الجاهلية والإسلام كان سيد الخزرج ولقب بالكامل في الجاهلية خرج إلى الشام ومات بحوران (.../١٤ هـ) (الأعلام: ج ٣، ص ٨٥).

كَـأَنِّـي وَقَـدْ أَدْنَـوْا إِلَـيَّ شِـفـارَهُـمْ مِنَ البُزْلِ أَحْوَى الصَّفْحَتَيْنِ نَكِيبُ
أَجـارَتَـنـا لا تَـسْـأَلِـيـنـي فَـإِنـنـي مُـقِـيـمٌ لَـعَـمْـرِي مـا أَقـامَ عـسـيـبُ

قال أبو عبيدة: و «عسيب»: جبل معروف، فقبره هناك معروف المكان.

قوله «من البُزْل»: يعني: كأني بعير قَرْمٌ من الإبل قد كُوِيَ لداءٍ به، فيقول: أُحللت ذاك المحلَّ لقطع ذلك اللحم وكيّه، وجعَله أحوى الصفحتين، وهما الجَنْبان، لتتابع الهِناء عليه ضَنًّا به و «النَّكيب» و «الأنْكَب» واحدٌ، وهو الحامل، وذلك مما يوصف به الفحل أنه يحمل نشاطاً وتكبُّراً.

وكانت الخنساءُ تقول الأبياتَ اليسيرة، فلما أُصيبت بأخيها صخر جدّت وأجادت، وجمَعتْ نفسها وشُهرت. فممّا يُستحسَن من شعرها قولها في قصيدةٍ أوّلُها:

[البسيط]

يـا عَـيْـنُ جُـودي بِـدَمْـعٍ مِـنْـكِ تَـغْـزارِ وابْـكـي لِـصَـخْـرٍ بَـدَمْـعٍ مِـنْـكِ مِـدْرَارِ

وقولها:

إِنِّـي أَرِقْـتُ فَـبِـتُّ الـلَّـيْـلَ سـاهِـرَةً كَـأَنَّـمـا كُـحِـلَـتْ عَـيْـنـي بِـعُـوَّارِ

والعُوّار والعائر سواءٌ، وهو المُستأخِذ، أشدُّ الرمد وأغلبه، كما قال القائل:

[البسيط]

بِـأَعْـيُـنٍ لَـمْ يُـصِـبْـها عـائِـرُ الـرَّمَـدِ

وكما قال الرَّاعي[1]:

[البسيط]

غَـضّـا كـمـا نَـظَـر الـمُـسْـتَـأْخِـذُ الـرَّمِـدُ

أَرْعَـى الـنُّـجـومَ وَمـا كُـلِّـفْـتُ رِعْـيَـتَـهـا وَتَـارَةً أَتَـغَـشَّـى فَـضْـلَ أَطْـمـارِ
إِنِّـي سَـمِـعْـتُ فَـلَـمْ أَبْـهَـجْ بِـهِ خَـبَـراً مُـخَـبِّـراً جـاءَ يَـنْـثـو جَـمْـعَ أَخْـبـارِ
قالَـوا: ابْنُ أُمِّك أَمْسى في الضَّريح وَقَدْ شَـدُّوا عَـلَـيْـهِ بِـأَعْـوادٍ وَأَحْـجـارِ
اذْهَـبْ فَـلا يُـبْـعِـدَنْـكَ الـلَّـهُ مِـنْ رَجُـلٍ تَـرَّاكِ ضَـيْـمٍ وَطَـلاَّبٍ بِـأَوْتـارِ

(١) عبيد بن حصين بن معاوية بن جندل النميري «أبو جندل» شاعر فحل لقب بالراعي لكثرة وصفه الإبل عاصر الفرزدق وجرير وقد هجاه جرير لتفضيله الفرزدق (ـ/ ٩٠ هـ) (الأعلام: ج ٤، ١٨٨).

قَدْ كُنتَ تَحمِلُ قَلْباً غَيْرَ مُؤتَشِبٍ ... مُرَكَّباً في نِصابٍ غَيرِ خَوَّارِ

الخوّار: الضعيف.

وحدثني رجل من بني هاشم عن سعيد بن سَلْم الباهليّ. قال: كنت مع أمير المؤمنين هارون الرشيد في سَفَر، فسأل عمّا حُمل معه من الثلج، فاستقلَّ ما ذُكر له فاغتاظ واحتَدَّ، فتركتُه حتى سكن غَرْبُه ثم قلت: يا أمير المؤمنين، إني أقول كلاماً والله ما أُريد به مَلَقاً ولا تنبيهاً على نفسي لأني فطِنتُ إلى ما لم يَفْطَن إليه مَنْ سِواي، وما أقوله إلا بالنَّصيحة المحْضَة. فقال: هات. فقلتُ: يا أمير المؤمنين، إنك قسمت الدَّهر شَطرين، شطراً للحجّ، وشطراً للغزو؛ والمسافر يَرِدُ على ضروب من المياه، وسفرُك أكثر من حضَرك، فلو أنَّ أمير المؤمنين عوّد نفسه الخشونة شيئاً فمتى احتاجَ إليها لم تُنكرها النفس لتلك العادة. قال: فأطرَقَ ثم قال: يا سعيدُ، بنُصْحٍ قلتَ، ولكنّا نلبَس العافية ما لبِسْنا، فإن اضطُررنا رجعنا إلى أصلٍ غير خَوّار.

رجع الشعر.

مِثْلُ السِّنانِ كَضَوْءِ البَدْرِ صورَتُهُ ... جَلْدُ المَريرَةِ حُرٌّ وابْنُ أَحْرارِ

فَسَوْفَ أَبْكيكَ ما ناحَتْ مُطَوَّقَةٌ ... وَما أَضاءَتْ نُجومُ اللَّيْلِ لِلسَّارِي

وَلَنْ أُسالِمَ قَوْماً كُنْتَ حَرْبَهُمُ ... حَتَّى تَعودَ بَياضاً حُلْكَةُ القارِ

أَبْلِغْ خُفافاً وَعوْفاً غَيْرَ تَقْصِرَةٍ ... عَميدَ قَوْمٍ نِداءً غَيْرَ أَسْرارِ

وَالحَرْبُ قَدْ سُعِرَتْ حَرْباً مُذَكَّرَةً ... شَهْباءَ تَفْري بِأَنْيابٍ وَأَظْفارِ

شُدُّوا المآزِرَ حَتَّى تَسْتَقِيدَ لَكُمْ ... وَشَمِّروا إنَّها أَيَّامُ تَشْمارِ

وَابْكوا فَتَى الحَيِّ لاقَتْهُ مَنِيَّتُهُ ... وَكُلُّ نَفْسٍ إلى وَقْتٍ وَمِقْدارِ

كَأَنَّهُمْ يَوْمَ راموهُ بِجَمْعِهِمُ ... راموا الشَّكيمَةَ مِنْ ذي لَبْدَةٍ ضارِ

والشكيمة: شدة النفس وصحة العزيمة. والشكيمة. الحديدة المعترضة في اللجام.

حَتَّى تَفَرَّجَتِ الأُلافُ عَنْ رَجُلٍ ... مُجَدَّلٍ خَرَّ كَرْهاً غَيْرَ مُخْتارِ

تَجيشُ مِنْهُ فُوَيْقَ الثَّدْيِ مُزْبِدَةٌ ... بِعانِدٍ مِنْ نَجيعِ الجَوْفِ ثَوَّارِ

لَوْ مِنْكُمُ كانَ فينا لَمْ يُنَلْ أَبداً ... حَتَّى تَلاقُوا أُموراً ذاتَ آثارِ

أَعْني الَّذينَ إلَيْهِمْ كانَ مَنْزِلُهُ ... هَلْ تَعْرِفُونَ ذِمامَ الضَّيْفِ وَالجارِ؟

تُعاتب خُفافَ بن نُدْبَة وعَوْفاً [illegible] وهما من المعدودين من

الفرسان. وكان خُفاف من فرسان العرب وأدرك الإسلام فأسلم.

لاَ صُلْحَ حَتَّى تَكُرُّوا الخَيْلَ عابِسَةً ... تَغدو وَتَرمي بِمُهراتٍ وَأَمْهارِ

فَتَغْسِلوا عَنْكُمُ عاراً تَجَلَّلَكُمْ ... غَسْلَ الجَوارِي حَيْضاً عِنْدَ أَطْهارِ

قال: هذا مَثَلٌ.

وقالت أيضاً ترثي صخراً:

[المتقارب]

أَلاَ ما لِعَيْنِكِ أَمْ مالَها ... لَقَدْ أَخْضَلَ الدَّمْعُ سِرْبالَها

فَأَقْسَمْتُ آسى عَلى هالِكٍ ... وَأَسْأَلُ نائِحَةً ما لَها

أَبَعْدَ ابْنِ عَمرو (بن آلِ) الشريـ ... ـدِ حَلَّتْ بِهِ الأَرْضُ أَثْقالَها

معنى حَلَّتْ به الأرض أثقالَها: من الحِلْيَةِ: أي زَيَّنَت به أَثْقالَها، تعني الموتى. قال الله عز وجل: ﴿وأَخرَجتِ الأرضُ أثقالَها﴾[1] قالوا: يعني الموتى.

لَعَمْرُ أَبيهِ لَنِعْمَ الفَتَى ... تَحُشُّ بِهِ الحَرْبُ أَجْذالَها

أي توقد به الحرب أجذالها. والجِذل: أصل الشجرة. فضربته مثلاً لشدة الاتّقاد، وأنه صاحب ذلك.

حَديثُ السِّنانِ ذَليقُ اللِّسانِ ... يُجاري المَقاريضَ أَمْثالَها

وَخَيْلٍ تَكَدَّسُ مَشْيَ الوُعو ... لِ نَازَلْتَ بِالسَّيْفِ أَبْطالَها

بِمُعْتَرَكٍ بَيْنَهُمْ ضَيِّقٍ ... مَجَرَّ المَنِيَّةِ أَذْيالَها

تُقابِلُها فإذا أَدْبَرَتْ ... بَلَلْتَ مِنَ الطَّعْنِ أَكْفالَها

الأَكْفال: واحدها كِفْلٌ وهو الرِّدف من الرجل والمرأة.

نُهينُ النُّفوسَ وَهَوْنُ النُّفُوسِ ... غَداةَ الكَريهَةِ أَوْفَى لَها

يروى عن عليّ بن أبي طالب عليه السلام أنه قال: رُبَّ مَنيَّةٍ سَببُها طَلَبُ الحَياة، وحياةٍ سببُها التعرُّضُ لِلمَوت.

وَرَجْراجَةٍ فَوْقَها بَيْضُها ... عَلَيْها المُضاعَفُ زِفْنا لَها

تعني بقولها: «زفْنا لها» أي جئنا نمشي إليها هَوْناً.

كَكِرْفِئَةِ الغَيْثِ ذاتِ الصَّبيرِ ... تَرْمي السَّحابَ وَيُرْمَى لَها[2]

---

(١) سورة الزلزلة: الآية ٢.

(٢) الصَّبير: السحاب.

الكِرْفئةُ واحدة الكرافىء وهو تكاثف الغَيم واسْوداده.

قال: وحدثنا المازني[1] بإسْنادٍ آخِرُه رُؤْبة بن العجَّاج قال: خرجت مع أبي، نريد الوليدَ بن عبد الملك، فاهْدِيَ لنا جَنْبٌ من لحم عليه كَرافىءُ الشَّحم ووَطْبٌ من لَبنٍ، فطبخنا هذا بهذا، فما زالت ذِفرَيايَ[2] تَنتحّانِ منه حتى رَجَعنا. وإنما شبَّهه لكثْرةِ الشَّحم وركوب بعضه على بعض بكرفئة الغيم.

وَداهِيَةٍ جَرَّها جارِمٌ   تُبيلُ الخَواصِرُ أَحْبالَها
كَفَيْتَ ابنَ عَمْرٍ وَلَمْ تَسْتَعِنْ   وَلَوْ كانَ غَيْرُكَ أَدْنى لَها
وَعَيرانَةٍ كَأَتانِ الثَّميـ   ـلِ غادَرْتَ بِالخَلِّ أَوْصالَها

قولها: «وعَيرانةٍ» تعني: ناقةٌ تُشَبَّه بالحمار الوحشي. و «أتانُ الثَّميل»: صخرة تكون في الحوض معروفة. و «الميل»: بقية الماء. فتقول هي صلبة كصلابة هذه الصخرة. و «الخَلّ»: الطريق في الرمل. فتقول: غادرتها هناك لشدة السير.

إلى مَلِكٍ لا إلى سُوقَةٍ   وَذَلِكَ ما كانَ إكْلالَها
وَمُخْصَنَةٍ مِنْ بَناتِ المُلُو   كِ قَعْقَعْتَ بِالرُّمْحِ خَلْخالَها
وَقافِيَةٍ مِثْلِ حَدِّ السِّنا   نِ تَبْقى وَيَهْلِكُ مَنْ قالَها
نَطَقْتَ ابْنَ عَمْرٍو فَسَهَّلْتَها   وَلَمْ يَنْطِقِ النَّاسُ أَمْثالَها
فَإنْ تَكُ مُرَّةُ أَوْدَتْ بِهِ   فَقَدْ كانَ يُكْثِرُ تَقْتالَها
فَزالَ الكَواكِبُ مِنْ فَقْدِهِ   وَجُلِّلَتِ الشَّمْسُ أَجْلالَها
هَمَمْتُ بِنَفْسِيَ كُلَّ الهُمومِ   فَأَوْلى لِنَفْسِيَ أَوْلى لَها
لأَحْمِلَ نَفْسِي عَلى آلَةٍ   فَإمَّا عَلَيْهَا وَإمَّا لَها

ومما يُؤثرُ ويُقتفى من قولها:

[البسيط]

أَقَذًى بِعَيْنِكِ أَمْ بِالعَيْنِ عُوَّارُ   أَمْ أَوْحَشَتْ أَنْ خَلَتْ مِنْ أَهْلِها الدّارُ

وَيُنْشِدُ بعضهم: قَذًى بعينك، وهو أقوم للبيت، وزيادة الألف في قولها: أقذى؟ أبْلغُ. ولا صررزة فيه ولكنه مَخزومٌ.

---

(١) بكر بن محمد بن [illegible] بن بقية «أبو عثمان المازني» من أئمة النحو البصريين (ـ/ ٢٤٩ هـ) (الأعلام: ج ٢، ص ٦٩).

(٢) الذفري: العظم الشاخص [illegible] الأذن.

تَبْكي لِصَخْرٍ هِيَ العَبرى وَقَدْ ثَكِلَتْ ... وَدُونَهُ مِنْ جَديدِ التُّرْبِ أَسْتارُ
لا بُدَّ مِنْ مِيتَةٍ في صَرْفِها غِيَرٌ ... وَالدَّهْرُ في صَرْفِهِ حَوْلٌ وَأَطْوارُ
يا صَخْرُ وَرَّادَ ماءٍ قَدْ تَنَاذَرَهُ ... أَهْلُ المِياهِ فَما في وِرْدِهِ عارُ

وهذا بيت يُسأل عنه كيف تناذره أهلُ المياه ولا عار فيه. فالمعنى أنها تعني الموت.

مَشْيَ السَّبَنْتي إلى هَيْجاءَ مُعْضِلَةٍ ... لَهُ سِلاحانِ: أَنْيابٌ وَأَظْفارُ

يقال لكل جريء الصدر: سَبنْدَى وَسَبنْتَى بالتاء والدال، والأغلب عليه النَّمِر.

عَبْلُ الذِّراعَين قَدْ تُخْشَى بَوادِرُهُ ... عِنْدَ الوَقيعَةِ لِلأَقْرانِ هَصَّار
فَما عَجولٌ على بَوٍّ تُطيفُ بِهِ ... لَها حَنينانِ: إعْلانٌ وَإِسْرارُ
تَرْتَعُ ما غَفَلَتْ حتَّى إذا ادَّكَرَتْ ... فَإِنَّما هي إِقْبالٌ وإِدْبارُ
يَوماً بأَوْجَدَ مِنّي حينَ فارَقَني ... صَخْرٌ ولِلدَّهْرِ إحْلاءٌ وإِمْرارُ
وإِنَّ صَخْراً لَوالِينا وسَيِّدُنا ... وإِنَّ صَخْراً إذا نَشْتو لَنَحَّارُ
وإِنَّ صَخْراً لَتَأْتَمُّ الهُداةُ بِهِ ... كَأَنَّهُ عَلَمٌ في رأسِهِ نارُ

العَلَمُ هنا هنا: الجبل، وكذلك قال المفسرون في قول الله جلَّ وعزَّ: **﴿وله الجَواري المُنْشآتُ في البَحر كالأعْلامِ﴾**[1]. ومنه قول جرير:

[الرجز]

إذا قَطَعْنَ عَلَماً بَدا عَلَمْ

طَلْقُ اليَدَيْنِ بِفِعْلِ الخَيْرِ ذو فَخَرٍ ... ضَخْمُ الدَّسِيعَةِ في اللأْواءِ صبّارُ
مِثْلُ الرُّدَيْنِيِّ لَمْ تَنْفَدْ شَبيبَتُهُ ... كَأَنَّهُ تَحْتَ طَيِّ البُرْدِ أُسْوارُ
لِيَبْكِهِ مُقْتِرٌ أَفْنى حَلُوبَتَهُ ... دَهْرٌ وحالَفَهُ بُؤْسٌ وإِقْتارُ
وَرُفْقَةٌ حارَ هادِيهِمْ بِمَهْلَكَةٍ ... كَأَنَّ ظُلْمَتَها في الطِّخْيَةِ القارُ
لَمْ تَرَهُ جارَةٌ يَمْشي بِساحَتِها ... لِريبَةٍ حينَ يُخْلي بَيْتَهُ الجارُ

فقولها: «كأنَّهُ عَلَم في رأسِهِ نارُ» أحدُ ما قُدمت به.

فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: أما رَضيتِ أن تجعليه علماً حتى جعلتِ في رأسه ناراً. ذاك رسول الله ﷺ، يريد: البيان والدلالة.

---

(١) سورة الرحمن: الآية ٢٤.

وقال عمر في قول الحطيئة:

[الطويل]

مَتى تأْتِهِ تَعْشو إلى ضَوْءِ نارِهِ ... تَجِدْ خَيْرَ نارٍ عِنْدها خَيْرُ مُوقِدِ

«كذَب الحطيئة. تلك نارُ موسى ﷺ». وهذا من نوادر الشعر.

وقالت أيضاً:

[الوافر]

كَأَنَّ العَيْنَ خالَطَها قَذاها ... بِعُوَّارٍ فَما تَقْضي كَراها

على صَخْرٍ وأَيُّ فَتًى كَصَخْرٍ ... إذا ما النَّابُ لَمْ تَرْأَمْ طَلاها

قولها «إذا ما الناب لم ترأم طلاها»: الطلا: الصغير من أولاد الوحش والنَّعَم، ويقال ذلك في الآدميِّينَ، وإنما تريد زمن الصِّر والبرد.

حَلَفْتُ بِرَبِّ صُهْبٍ مُعْمَلاتٍ ... إلى البَيْتِ المُحَرَّمِ مُنْتَهاها

لَئِنْ جَزِعَتْ بنو عَمْرو عَلَيْهِ ... لَقَدْ رُزِئَتْ بَنو عَمْرو فَتاها

فَتى الفِتْيانِ ما يُغْلَى مَداه ... وَلا يُكْدِي إذا بَلَغَتْ كُداها

يقال: أكدَى، إذا أقلّ. وأصل ذلك في البئر تحفر، فإذا بلغ منها إلى حَجَر أو كذَّان[1] استصعب على الحافر. وقيل: قد بلغت كُديَتَها ـ وجمعها كُدًى ـ فلا يُخرَج من التُّراب إلاّ اليسير، فلذلك قيل للذي يُعطي قليلاً: أَكْدى. قال الله جل وعز: ﴿**وأعطى قليلاً وَأكدَى**﴾[2] فقالت: إذا بلغ الجهدُ من الناس لم يكن عطاؤه قليلاً ولا نزراً.

لَهُ كَفٌّ يَشيدُ بِها وَكَفٌّ ... تَحَلَّبُ ما يَجِفُّ ثَرَى نَداها

فَمَنْ لِلضَّيْفِ إنْ هَبَّتْ شَمالٌ ... مُزَعْزِعَةٌ يُجاوِبُها صَباها

وَأَلْجأَ بَرْدُها الأَشْوالَ حُدْباً ... إلى الحُجُراتِ بارزةً كُلاها

يقول: لا شحم عليها.

هُنالِكَ لَوْ نَزَلْتَ بِآلِ صَخْرٍ ... قَرى الأَضْيافَ شَحْماً مِنْ ذُراها

هذا على مخاطبتين. قالت: «هُنالِكَ لوْ نَزلت» للذي تخاطبه ثم خبَّرته فقالت: «قرَى الأضياف» فتأويل هذا على ضربين، أحدهما على حذف المفعول كأنها قالت: لو نزلت به لرأيته يَقري الأضياف، ويكون على أنها جعلته وغيره

(١) الكذّان: الحجارة التي ليست بصلبة.
(٢) سورة النجم: الآية ٣٤.

على مخاطبتين، تتحول من إحداهما إلى الأخرى كقول الله عز وجل: ﴿**حتَّى إذا كُنتمْ في الفُلكِ وَجرَيْن بهمْ بريحٍ طيِّبَةٍ**﴾[1]، وكقول عنترة:

[الكامل]

شَطَّتْ مَزارَ العاشِقينَ فأَصْبَحَت ... عَسِراً عَلَيَّ طِلابُكِ ابْنَةَ مَخْرَم

ومثل هذا كثيرٌ جداً.

أَمُطْعِمَكُمْ وحامِلَكُمْ تَرَكْتُمْ ... لَدى غَبْراءِ مُنْهَدِمٍ رَجاها

تَرى الشُّمْطَ الجَحاجِحَ مِنْ سُلَيْم ... تَبُلُّ ذَرَى مَدامِعِها لُحاها

لِيَبْكِ الخَيْرَ صَخْراً مِنْ مَعَدٍّ ... ذوو أَحْلامِها وَذَوُو نُهاها

وخَيْلٍ قَدْ لَفَفْتَ بجَمْعِ خَيْلٍ ... فَدارَتْ بَيْنَ كَبْشَيْها رَحاها

مُحافَظَةً ومَحْمِيَةً إذا ما ... نَبا بالقَوْمِ مِنْ جزَعٍ لَظاها

وقالت:

[الوافر]

أَلا يا عَيْنُ فانْهَمِلي بِغُزْرٍ ... وفيضي عَبْرَةً مِنْ غَيْرِ نَزْرِ

ولا تُعْزي عَزاءً بَعْدَ صَخْرٍ ... فَقَدْ غُلِبَ العَزاءُ وَعِيلَ صَبْري

لِمَرْزِئَةٍ كَأَنَّ الجَوْفَ مِنْها ... بُعَيْدَ النَّوْمِ يُشْعَرُ حَرَّ جَمْرِ

على صَخْرٍ وأيُّ فَتى كصَخْرٍ ... لِعانٍ عائِلٍ عَلِقٍ بِوَتْرِ

وَلِلأَضْيافِ إنْ طَرَقوا هُدُوّاً ... ولِلْكَلِّ المُبِرِّ وكُلِّ سَفْرِ

إذا نَزَلَتْ بِهِمْ سَنَةٌ جَمادُ ... أَتى بالدَّرِّ لَمْ يُكْسَعْ بِغُبْرِ

كان من شأنهم، إذا أَجدَبتِ السنة أو خافوا الجدْب، أن تُنضحَ الضُّروعُ بالماء البارد ليبقى اللبنُ فيها ادِّخاراً وَاستعداداً وبخلاً من بعضهم. فلذلك يقول الحارث بن حِلِّزَة:

[السريع]

لا تَكْسَعِ الشَّوْلَ بأَغْبارِها ... إنَّكَ لا تَدْري مَنِ النّاتِجُ

الغُبَرُ: بقية اللبن، وغابر كل شيء: باقيه. ويقول: لا تبخل فتحبس لبنك، فإنك لا تدري لِمَنْ يكون ذلك اللبن، ألك أم لوارِثك أم لمُغيرٍ عليك.

واصْبُبْ لأَضْيافِكَ أَلْبانَها ... فإنَّ شَرَّ اللَّبَنِ الوالِجُ

---

(١) سورة يونس: الآية ٢١.

وكلُّ مَزْدودٍ مَكسُوع.

هـنـالِـكَ كـانَ غَـيْـثَ حَـيـاً وعِـزّاً ... لِـمَـنْ أَرسـى إلَـيْـهِ غَـيْـرَ وغـرِ
وأَخْـيـا مِـنْ مُـخَـبَّـأَةٍ كـعـابٍ ... وأَشْـجَـعَ مِـنْ أبـي شِـبْـلٍ هِـزَبْـرِ
هَـرِيـتِ الـشِّـدْقِ رِئْـبـالٍ إذا مـا ... غَـدا لَـمْ تُـنْـتَـهَ غَـدْوَتُـهُ بِـزَجْـرِ
تَـديـنُ الـخـادِراتُ لَـهُ إذا مـا ... سَـمِـعْـنَ زَئـيـرَهُ فـي كُـلِّ فَـجْـرِ
غِـيـاثٌ إنْ تـأَوَّبَـهُ غَـريـبٌ ... لِـعُـسْـرٍ فـي الـحَـوادِثِ أَوْ لِـيُـسْـرِ
إذا مـا الـوَفْـدُ حَـلَّ إلـى ذَراهُ ... تَـلَـقّـاهُـمْ بِـوجْـهٍ غَـيْـرِ بَـسْـرِ
تَـفَـرَّجُ بـالـنَّـدى الأَبْـوابُ عَـنْـهُ ... وَلا يَـكْـتَـنُّ دونَـهُـمُ بِـسِـتْـرِ
دَهَـتْـنـي الـحـادِثـاتُ بـهِ فـأَضْـحَـتْ ... عَـلَـيَّ هُـمُـومُـهُ تَـغْـدو وَتَـسْـري

وقالت أيضاً:

[البسيط]

يـا عَـيْـنُ مـالـكِ لا تُـذْرِيـنَ تَـسْـكـابـا ... إذْ رابَ دَهْـرٌ وكـانَ الـدَّهْـرُ رَيّـابـا
فـابْـكـي أخـاكِ لأَيْـتـامٍ وَأَرْمَـلَـةٍ ... وابْـكـي أخـاكِ إذا جـاوَزْتِ أَجْـنـابـا
وابْكي أَخـاكِ لِخَيْلٍ كـالـقَطا قُطُفٍ ... فَـقَـدْنَ لَـمّـا ثَـوى سَـبْـيـاً وإنْـهـابـا
يَـغْـدو بـهِ سـابِـحٌ نَـهْـدٌ مَـراكِـلُـهُ ... مُـجَـلْـبَـبٌ مِـنْ سَـوادِ الـلـيْـلِ جِـلْـبـابـا
حَـتَّـى يُـصَـبِّـحَ قَـوْمـاً فـي دِيـارِهِـم ... فَـيُـسْـلَـبـوا دونَ صَـفِّ الـمَـوْتِ أَسْـلابـا
هـوَ الـفَـتـى الـكـامِـلُ الـحـامِـي حَـقِـيـقَـتَـهُ ... مـأْوَى الـغَـريـبِ إذا مـا جـاءَ مُـنْـتـابـا
يَـهْـدِي الـرَّعِـيـلَ إذا جـارَ الـسَّـبـيـلُ بـهِـمْ ... نَـهْـدَ الـتَّـلِـيـلِ لِـزُرْقِ الـسُّـمْـرِ رَكّـابـا
الـمَـجْـدُ خَـلَّـتُـهُ والـجُـودُ عِـلَّـتُـهُ ... والـصِّـدْقُ حَـوْزَتُـهُ إنْ قِـرْنُـهُ هـابـا
رَكّـابُ مُـفْـظِـعَـةٍ، حَـمّـالُ مـضْـلِـعَـةٍ ... إنْ خـافَ مُـعْـضِـلَـةٍ سَـنّـى لَـهـا بـابـا
شَـهّـادُ أَنْـدِيَـةٍ، هَـبّـاطُ أَوْدِيَـةٍ ... حَـمّـالُ أَلْـوِيَـةٍ لِـلْـوِتْـرِ طَـلاّبـا
سُـمُّ الـعُـداةِ وفَـكّـاكُ الـعُـنـاةِ إذا ... كـانَ الـوَغـى لَـمْ يَـكُـنْ لِـلْـمَـوْتِ هَـيّـابـا

قال أبو العباس: «والجود علته» أي أن الناس إذا سئلوا اعتلوا في الجود بالعِلَل، فجعلته هو علته الجود، كما قال الله جلَّ وعز: **﴿النَّارُ وعَدَها اللَّهُ الَّذِينَ كفروا﴾**[1] معناه: الوعد النار.

وقالت أيضاً ترثي أخاها معاوية بن عمرو:

[الوافر]

---

(١) سورة الحج: الآية ٧٢.

هَـرِيـقـي مِـنْ دُمـوعِـكِ واسْـتَـفِـيـقـي   وصَـبْـراً إنْ أطَـقْـتِ وَلَـن تُـطِـيـقـي
وَقُـولـي إنَّ خَـيْـرَ بَـنـي سُـلَـيْـم   وفـارِسَـهُـمْ بـصَـحْـراءِ الـعَـقِـيـقِ
ألا هَـلْ تَـرْجِـعَـنَّ لَـنـا الـلَّـيـالـي   وأيّـامٌ لَـنـا بِـلِـوَى الـشَّـقِـيـقِ
وإذْ فِـيـنـا مُـعـاوِيَـةُ بـن عَـمْـرٍو   عَـلـى أدْمـاءَ كـالـجَـمَـلِ الـفَـنِـيـقِ
فَـبَـكِّـيـهِ فَـقَـدْ وَلَّـى حَـمِـيـداً   أَصِـيـلَ الـرَّأْيِ مَـحْـمُـودَ الـصَّـدِيـقِ
فَـلا والـلَّـهِ لا تَـسْـلاكَ نَـفْـسـي   لِـفـاحِـشَـةٍ أتَـيْـتَ ولا عُـقُـوقِ
ولـكـنّـي رأيـتُ الـصَّـبْـرَ خَـيْـراً   مِـنَ الـنَّـعْـلَـيْـنِ والـرَّأْسِ الـحَـلِـيـقِ

وكانوا في الجاهلية إذا بالغوا في الجزع حلق النساء رؤوسهن، ولَطمنَ خدودهنَّ بالنِّعال.

وقال عبدُ منافِ بن رَبيع الهُذَلِيّ[1] يذكر أُختيه:

[البسيط]

إذا تـأوَّبَ نَـوْحٌ قـامَـتـا مَـعَـهُ   ضَرْباً أَلِيماً بِسِبْتٍ يَلْعَجُ الجلِدا
ألا يـا لَـهْـفَ نَـفْـسـي بَـعْـدَ عَـيْـشٍ   تَـولَّـى بَـعْـدَهُ عَـيْـشٌ أَنِـيـقِ
وإذْ يَـتَـحـاكَـمُ الـحُـكَّـامُ فِـيـنـا   إلـى أَبْـيـاتِـنـا وذَوو الـحُـقُـوقِ
وإذْ فِـيـنـا فَـوارِسُ كُـلِّ هَـيْـجٍ   إذا فَـزِعـوا وفِـتْـيـانُ الـخُـرُوقِ

الخروق جمع خَرق، وهو المُتسَّع من الأرض، وذلك قول رؤوبَة ابن العَجّاج:

[الرجز]

وقاتِمِ الأَعْماقِ خاوي المُخْتَرقْ

أي المُتَّسع. وقال بعض المفسرين في قول الله جلَّ وعزَّ: ﴿**إنَّكَ لَنْ تخرقَ الأرضَ**﴾[2] قال: تبلغ قُطريْها. والقول الفاشي إنما هو تنقُبها بأجمعها إلى حيث بلغت.

إذا مـا الـحَـرْبُ صَـلْـصَـلَ نـاجِـذاهـا   وَفـاجَـأَهـا الـكُـمـاةُ لَـدَى الـمَـضِـيـق

وكان من خبر مقتل معاوية بن عمرو، وكان أخا خنساء لأبيها وأُمها، وكان صخراً أخاها لأبيها وكانت بصخر أمسَّ لفضله على معاوية، ولم يكن معاوية

(١) عبد مناف بن رِبيع الجربي: شاعر جاهلي نسبته إلى بطن من هذيل اسمه «جُرَيْب» (... / .. (الأعلام: ج ٤، ص ١٦٦).

(٢) سورة الإسراء: الآية ٣٧.

متخلفاً بل كان لاحقاً في السؤدد بأخيه، أوْ دُوَيْنَه شيئاً. قال أبو عبيدة مَعمر بن المثنَّى: حدثني أبو بلال وربما قال: أبو بلال سَهْم بن أبيّ بن العباس بن مرداس قال: غزا معاوية بن عمرو بن الشريد، أخو خنساء، مُرَّة وَفزارَة، ومعه خَفاف بن نُدبة[1] فاعتورَه هاشم ودُريَد المرِّيان، ابنا حَرمَلة، فاستَطرد له أحدهما ثم وقف، وشدَّ عليه الآخر فقتله. فلما تنادَوا: قتل معاوية! قال خفافٌ: قتلني الله إنْ رِمت حتى أثأرَ به فشدَّ على مالك بن حِمارَ، سيد بني شَمْخ بن فَزارَة فقتله وقال:

[الطويل]

فإنْ تَكُ خَيْلي قَدْ أُصيبَ صَمِيمُها ... فَعَمْداً عَلى عَيْني تَيَمَّمْتُ مالِكا

وَقَفْتُ لَهُ عَلْوَى وَقَدْ خامَ صُحْبَتي ... لأَبْـنـيَ مَـجْـداً أَوْ لأثْـأرَ هـالِـكـاً

علوى: اسم فرسه

أَقـولُ لَـهُ والـرُّمْـحُ يـأْطِـرُ مَـتْـنَـهُ ... تـأَمَّـلْ خُـفـافـاً إنَّـنـي أنـا ذالِـكـا

فلما بلغ صخراً قَتل أخيه، أتَى مرَّة في الشهر الحرام فوقف على ابني حزملة، فإذا أحدُهما به طعنةٌ في عضُده، فقال: أيُّكما قتل معاوية؟ فسكتا، فقال الصحيحُ للجريح: مالكَ لا تجيبه؟ فقال: وقفت له فطعنني هذه الطعنة، وشدّ عليه أخي فقتله، فأيّنا قتلتَ فقد أدركتَ بثأرك، أما إنَّا لم نسلُب أخاك. قال: فما فعلتْ فرسه السماء؟ قال: ها هيَ تيك، رُدُّوها عليه، فردوه. فلما أتى صخرٌ قومه قالوا: اهجُهم. قال: ما بيننا أجَلُّ من القَدَع، لو لم أكْفُفْ عن هجائهم إلاّ رغبةً بنفسي عن الخَنا لَكَفَفْتُ وقال:

[الطويل]

وَعـاذِلَـةٍ هَـبَّـتْ بِـلَـيْـلٍ تَـلُـومُـنـي ... أَلا لا تَـلُـومِـيـنـي كَـفَـى الـلَّـوْمَ مـا بِـيـا

تَـقـولُ: أَلا تَـهْـجـو فَـوارِسَ هـاشِـمٍ ... ومـالـيَ إذْ أَهْـجُـوهُـمْ ثُـمَّ مـالِـيـا

أَبى الشتمَ أنّي قَدْ أصابوا كَريمَتي ... وأَنْ لَيْسَ إهْداءُ الخَنا مِنْ شِمالِيا

إذا ذُكِـرَ الإِخْـوانُ رَقْـرَقْـتُ عَـبْـرَةً ... وَحَـيَّـيْـتُ رَمْـسـاً عِـنْـدَ لَـيَّـةَ ثـاوِيـا

إذا مـا امْـرُؤٌ أَهْـدى لِـمَـيْـتٍ تَـحـيَّـةً ... فَـحَـيَّـاكَ رَبُّ الـنَّـاسِ عَـنّـي مُـعـاوِيـا

وَهَـوَّنَ وَجْـدي أَنَّـنـي لَـمْ أَقُـلْ لَـهُ ... كَـذَبْـتَ، وَلَـمْ أَبْـخَـلْ عَـلَـيْـهِ بِـمـالِـيـا

---

(١) خُفاف بن عمير بن الحارث بن الشريد السلمي: من مضر «أبو خراشة» شاعر فارسي أسود «أخذ السواد من أمه ندبة» وعاش زمناً في الجاهلية أسلم وشهد فتح مكة وبقي إلى أيام عمر (.../ ٢٠ هـ) (الأعلام: ج ٢، ص ٣٠٩).

ثم زاد عليها بيتاً بعدما أوْقعَ بهم فقال:

وذي إخْـوَةٍ قَـطَّـعْـتُ أَرْحـامَ بَـيْـنِـهِـمْ كَـمـا تَـرَكُـونـي واحِـداً لا أخـا لِـيـا

ثم غزاهم في العام المقبل فلما دنا وَعلا السَّماء قال: إني أخاف إذا طَلعَتْ أن يعرفوا طلعة السمَّاء، فحمَّم غرّتها، فلما أشرف على أداني القوم قالت امرأة لابنها: هذه، والله السمَّاء. فنظر إليه فقال: السمَّاء غراء، وهذه بَهيمٌ، فلم يشعروا إلا والخيل دوائس، وقتل صخر دُريداً وأصابوا في مُرَّة، فقال:

[الكامل]

ولَـقَـدْ قَـتَـلْـتُـكُـمُ ثُـنـاءَ ومَـوْحَـداً وتَـرَكْـتُ مُـرَّةَ مِـثْـلَ أَمْـسِ الـمُـدْبِـرِ

ولَـقَـدْ دَفَـعْـتُ إلـى دُرَيْـدٍ طَـعْـنَـةً نَـجْـلاءَ تُـزْغِـلُ مِـثْـلَ غَـطِّ الـمِـنْـخَـرِ

قوله: «تُزغِلُ» أي تفيض بسِجال الدم. قال ابن أحمر[١]: يعني القطاة إذا مجّت الماءَ في حوصلةَ فرخها:

[السريع]

فـأَزْغَـلَـتْ فـي جِـيـدِهِ زُغْـلَـةً لَـمْ تُـخْـطِـىءِ الـجِـيـدَ ولَـمْ تَـشْـفَـتِـرْ

والإيزاغ مثل الإزغال[٢].

وأما هاشم بن حَرملة فإنه خرج غازياً، فلما كان في بلاد جُشَمَ بن بَكْر بن هوازن، نزل فأخذ صُفنته ـ ويقال صفْنه[٣] ـ وخلا لحاجته بين الشَّجر ورأى غفلته قيسُ بن الأَسوار الجشَميّ فتبعه وقال: هذا قاتل معاوية، لا وَألتُ إن وَألَ[٤]. فلما قعد لحاجته تسَتَّر له بين الشجر حتى إذا خلفه أرسل عليه مِعْبَلة[٥] ففَلَقَ قُحْقُحَهُ، وهو العُصْعُص الذي عليه عَجْبُ الذَّنبِ، فقالت الخنساء:

[الوافر]

فِـدًى لِـلْـفـارِسـي الـجُـشَـمِـيِّ نَـفْـسـي وأَفْـدِيـهِ بِـمَـنْ لـي مِـنْ حَـمِـيـمِ

فِـداكَ الـحَـيُّ حَـيُّ بَـنـي سُـلَـيْـمِ بِـظـاعِـنِـهِـمْ وبـالأَنَـسِ الـمُـقِـيـمِ

---

(١) أبو الخطاب عمرو بن أحمر بن العمرَّد بن عامر الباهلي: شاعر مخضرم عاش نحو ٩٠ عاماً غزا مغازي في الروم وأصيبت إحدى عينيه. مدح أكثر الخلفاء وصولاً إلى بني أمية حيث هجا يزيد بن معاوية وفر منه عندما طلبه كانت سكناه في الجزيرة (.../ ٦٥ هـ) (الأعلام: ج ٥، ص ٧٢).

(٢) الإزغال: إخراج البول أو الدم دفعة واحدة.

(٣) الصُفن والصُفنة: شيء كالركوة يتوضأ فيه.

(٤) وأل: نجا.

(٥) مِعْبَلَة: نصل طويل عريض.

كَـمـا مِـنْ هـاشِـمٍ أَقْـرَرْتَ عَـيْـنـي   وَكـانَـتْ لا تَـنـامُ وَلا تُـنِـيـمُ

وكان هاشم من أشد العرب، وله يقال:

[مشطور الرجز]

أَحْـيـا أَبـاهُ هـاشِـمُ بـنِ حَـرْمَـلَـهْ   يَـوْمَ الـمُـلُـوكُ حَـوْلَـهُ مُـغَـرْبَـلَـهْ

يَقْتُلُ ذا الذَّنْبِ وَمَنْ لا ذَنْبَ لَهْ

فقالت الخَنْساء ترثية وأخاها صخراً:

[الوافر]

بَـكَـتْ عَـيْـنـي وعـاوَدَتِ الـسُّـهـودا   وَبِـتُّ الـلَّـيْـلَ جـانِـحَـةً عَـمِـيـدا

لِـذِكْـرى مَـعْـشَـرٍ وَلَّـوْا وَخَـلَّـوْا   عَـلَـيْـنـا مِـنْ خِـلافَـتِـهِـمْ فُـقـودا

فَـكَـمْ مِـنْ فـارِسٍ لَـكِ أُمَّ عَـمْـرٍو   يَـحـوطُ سِـنـانُـهُ الأَنَـسَ الـحَـرِيـدا

الحريد: البعيد.

كَـصَـخْـرٍ أَوْ مُـعـاوِيَـةَ بـنِ عَـمْـرٍو   إذا كـانَـتْ وَجـوهُ الـقَـوْمِ سُـودا

يَـرُدُّ الـخَـيْـلَ دامِـيَـةً كُـلاهـا   جَـدِيـرٌ يَـومَ هَـيْـجـا أَنْ يَـصِـيـدا

يَـكُـبّـونَ الـعِـشَـارَ لِـمَـنْ أَتـاهُـمْ   إذا لَـمْ تُـضْـمِـتِ الأُمُّ الـوَلِـيـدا

فَـتـابَـعَ بَـيْـنَـهُـمْ وِرْدٌ فـأَضْـحَـوْا   مَـعَ الـهُـلاَّكِ قَـدْ لَـحِـقُـوا ثَـمُـودا

وقالت أيضاً ترثي صخراً:

[الطويل]

أَلَـهْـفي عَـلـى صَـخْـرٍ لِـكُـلِّ عَـظِـيـمَـةٍ   إذا الـخَـيْـلُ مِـنْ طُـولِ الـقِـيـادِ اقْـشَـعَـرَّتِ

إذا الـخَـيْـلُ شَـكَّـتْ فـي الـسَّـرِيـحِ وَطَـابَـقَـتْ   طِـبـاقَ الـكِـلابِ فـي الـهِـراشِ وَصَـرَّتِ

يقال: شك الفرسُ والبعير وغير ذلك من الظهر إذا ظلعت ظَلْعاً خفيفاً كما قال ذو الرُّمَّة[1]:

[البسيط]

....   كَـأَنَّـهُ مُـسْـتَـبـانُ الـشَّـكِ أَو جَـنِـبُ[2]

وإنما هذا من الخَيلاء في هذا الموضع. و «طابَقَتْ» أي وقعت أرجلُها مكان أيديها وصرَّت آذانها.

---

(١) غيلان بن عقبة «أبو الحارث» شاعر فحل أكثر شعره في التشبيب كان دميماً يضرب لونه إلى سواد شديد القصر يسكن البادية توفي بأصبهان (٧٧ ـ ١١٧ هـ) (الأعلام: ج ٥، ص ١٢٤).

(٢) البيت من البحر البسيط وصدر البيت: «وَثْبَ المُسَحَّجِ مِنْ عاناتِ مَعْقُلَةٍ».

وَخَيْلٍ تَنادَى لاَ هَوادَةَ بَيْنَها مَرَرْتَ بِها دونَ السَّوام وَمَرَّتِ
كَأَنَّ مُدِلاً أُسودِ تَبالَةٍ يَكُونُ لَها حَيْثُ اسْتَدارَتْ وَكَرَّتِ
شَدَدْتَ عِصابَ الحَرْبِ إذْ هِي مانِعٌ فأَلْقَتْ بِرِجْلَيْها مَرِيّاً وَدَرَّتِ
وَكانَ أَبو حَسّانَ صَخْرٌ يَصُدُّها وَيُزْغِشُها بالرُّمْحِ حَتَّى أَقَرَّتِ
وكانَتْ إذا ما حالِبٌ يَسْتَدِرُّها تَقَتْهُ بإيزاغٍ دَماً واقْمَطَرَّتِ

اقمطرت: معناه اشتدت.

وقالت أيضاً ترثيه:

[الطويل]

أَمِنْ حَدَثِ الأَيّامِ عَيْنُكِ تَهْمِلُ تُبَكِّي عَلى صَخْرٍ وَفي الدَّهْرِ مَذْهَلُ
أَلا مَنْ لِعَيْنٍ لاَ تَجِفُّ دُموعُها إذا قِيلَ تَفْنى تَسْتَهِلُّ فَتَحْفِلُ
عَلى ماجِدٍ ضَخْمِ الدَّسِيعَةِ سَيِّدٍ لَهُ سُورَةٌ في قَوْمِهِ ما تَحَوَّلُ

قال: السُّورة ها هنا: الدرجة من الملك والقدرة العالية، من ذلك قول النابغة:

[الطويل]

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَعطاكَ سُورَةً تَرى كُلَّ مُلْكٍ دونَها يَتَذَبْذَبُ

ويقول الرجل: سُرْتُ، فمعناه: ارتفعت وعلوتُ. قال العجاج:

[الرجز]

يا رُبَّ ذي سُرادِقٍ مَحْجُورِ سُرْتُ إلَيهِ مِنْ أَعالي السُّورِ

وقال الأخطل يصف خمراً خرجت، حين فُتِحَ مِبزَلُها:

[البسيط]

لَمّا أَتَوْها بِمِصْباحٍ وَمِبْزَلِهِمْ سارَت إليهِ سُؤُورَ الأَبْجَلِ الضّارِي

فَما بَلَغَتْ كَفُّ امْرِئٍ مُتَناوِلٍ مِنَ المَجْدِ إلاّ حَيْثُ ما نِلْتَ أَطْوَلُ
وَما بَلَغَ المُهْدونَ في القَوْلِ مِدْحَةً وَإنْ كَثُرَت إلاّ الَّذي فِيكَ أَفْضَلُ
وَما الغَيْثُ في جَعْدِ الثَّرَى دَمِثِ الرُّبى تَبَعَّقَ فيهِ الوابِلُ المُتَهَلِّلُ
بِأَجْزَلَ سَيْباً مِنْ نَداكَ وَنِعْمَةٌ تَعُمُّ بِها بَلْ سَيْبُ كَفِّكَ أَجْزَلُ
وجارُكَ مَحْفُوظٌ مَنِيعٌ بِنَجْوَةٍ مِنَ الذُّلِّ لاَ يُؤْذَى وَلا يَتَذَلَّلُ
مِنَ القَوْمِ مَغْشِيُّ الرِّواقِ[1] كَأَنَّهُ إذا خافَ صُبْحاً خادِرٌ مُتَبَسِّلُ

---

(١) الرواق: مقدم البيت.

شَرَنْبَثُ[1] أَطْرافِ البَنانِ ضُبارِمٌ ... لَهُ في عَرِينِ الغابِ عِرْسٌ وَأَشْبُلُ
هِزَبْرٌ هَرِيتُ الشِّدْقِ[2] رِئْبالُ غابَةٍ ... مَخُوفُ اللِّقاءِ كالِىءُ العَيْنِ أَنْجَلُ
أخو الجُودِ مَعْروفٌ لَهُ الجُودُ والنَّدى ... حَلِيفانِ ما قامَتْ تِعارٌ ويَذْبُلُ[3]

باب

قال أبو العباس: ونذكر وصايا يؤثر بعضُها عن أهل الدِّين وبعضها عن أهل الآداب والطبائع المحمودة. وقد تجترّ إلى أنفسها غيرَ ذلك من سائر الوصايا. ثم نعود إن شاء الله تعالى إلى التعازي بالمنثور والمرصوف. وبالله الحول والقوة، ونشوبه بشيء من الاعتبار.

وصية أبي بكر الصديق رحمه الله

قال فِطرُ بنُ خَليفة[4] عن عبد الرحمن بن سابط قال: أوْصى أبو بكر الصدّيق عمرَ بن الخطاب رحمه الله حين استخلفه فقال: «إني مستخلفُك، وأوصيك بتقوى الله يا عمر، إن لله عملاً بالليل لا يقبله بالنهار، وعملاً بالنهار لا يقبلهُ بالليل. واعلمْ أنّه لا تُقبَل نافلةٌ حتى تُؤدَّى الفريضةُ. وأنه إنما ثَقُلَتْ موازين مَنْ ثَقُلتْ موازينُه يوم القيامة باتِّباعهم الحقَّ. ويحِقُّ لميزانٍ لا يوضَعُ فيه إلاَّ الحقّ أنْ يكون ثقيلاً. وإنما خَفَّتْ موازين مَنْ خَفَّتْ موازينُه يومَ القيامة باتِّباعهمُ الباطلَ في الدنيا. ويَحِقُّ لميزانٍ لا يوضع فيه إلاَّ الباطل أن يكون خفيفاً.

إن الله جَلَّ ذِكْرُه ذَكَرَ أهلَ الجنَّة بحُسْنِ أعمالهم، وتجاوزَ عن سيئاتهم، فإذا ذكرتَهم فقل إني لأخافُ ألاّ أكون من هؤلاء. وذكرَ أهلَ النّار بسوء إعمالِهم، فإذا ذكرتَهم فَقُلْ إني لأرْجُو ألاّ أكون من هؤلاء وذكرَ آية الرَّحْمة مع آية العذاب ليكونَ العبدُ راغباً راهباً لا يتمنَّى على الله غيرَ الحقِّ، ولا يُلقي بيده إلى التَهْلُكة. فإنْ حفِظتَ وصيتي فلا يكونَنَّ غائبٌ أحبَّ إليك من الموت ولستَ بمُعْجِزه».

وصية عُمرَ بن الخطاب رحمه الله

قال فِطرُ بنُ خليفة وغيرُه: دعا عمرُ بن الخطّاب رضي الله عنه عند موته عبد الله بن عمر فقال:

---

(١) شَرَنْبَث: ضخم وضبارم: ضخم الرقبة.

(٢) هريت الشدق: واسع الشدق. والرئبال: الأسد. والأنجل: واسع شق العين.

(٣) تِعَار ويَذْبلُ: جبلان الأول في بلاد قيس لا نبات، فيه ولا ماء (معجم البلدان: ج ٢، ص ٣٣).

(٤) أبو بكر الحناط فطر بن خليفة المخزومي: مولى مخزوم رمي بالتشيع توفي حوالي ١٥ هـ (البيان والتبيين: ج ٢، ص ٤٥).

«أي بُنَيَّ: إذا قام الخليفةُ بعدي فَأتيه فقل إنَّ عُمرَ يَقرأ عليك السلام ويوصيكَ بتَقوى الله لا شريكَ له، ويوصيك بالمهاجرين الأوَّلين خَيراً: أنْ تعرِفَ لهم سابِقَتَهُمْ. ويوصيك بالأنصار خيراً: أن تَقْبلَ من مُحْسنِهِمْ وتتَجاوزَ عن مُسيئهم. ويوصيكَ بأهْلِ الأمْصار خيراً، فإنَّهم غيظ العَدوِّ وجُباة الفَيء، لا تحمِلْ فَيئَهُم إلا عن فضلٍ منهم، ويوصيك بأهل البادية خيراً، فإنهم أصلُ العرب ومادَّةُ الإسلام: أن تأخذ من حواشي أموالهم فتَرُدَّ على فقرائهم. ويوصيك بأهل الذِّمَّة خيراً: أن تُقاتِلَ مِنْ ورائهم، ولا يُكَلِّفوا فوق طاقتهم».

وصية عليّ بن أبي طالب رحمه الله

قال لوطُ بنُ يحيى[1]: حدَّثني عبد الرحمن بن جُنْدَب عن أبيه قال: دخلت على عليّ بن أبي طالب أَسألُ عنه حين ضربه ابن مُلْجَمْ[2] لعنه الله. فقمت ولم أجلس لمكان ابنةٍ له دخلت عليه وهي مُستترةٌ، فدعا الحسن والحسين رحمهما الله فقال: «إني أُوصيكما بتقوى الله، ولا تَبْغِيا الدُّنيا وإنْ بَغَتْكُما، ولا تَبْكِيا على شيء منها زُوِيَ عنكما. قولا الحقَّ، وارْحَما اليتيمَ، وأعينا الضائعَ، واصنعا للآخرة، وكونا للظالمَ خصماً، وللمظلوم عوناً، ولا تأخذْكما في الله لَوْمَةُ لائم».

ثم نظر إلى ابن الحنفية فقال له: «فهِمتَ ما أوصيتُ به أَخوَيْكَ»؟ قال: «نعم». قال: «أُوصيك بمثله، وأُوصيك بِتوْقير أخويك، وتَزْيين أمرهما، ولا تَقْطَعْ أمراً دونهما» ثم قال: «وأُوصيكما به فإنه شقيقكما، وابن أبيكما، وقد علمتما أنَّ أباه كان يُحبُّه فأحِبَّاه».

وصية معاوية بن أبي سفيان رحمه الله

قال عيسى بنُ يَزيدَ بن بكر بن دَأْب[3]: لما ثَقُلَ معاوية، بعَثَ إلى يزيدَ

---

(١) لوط بن يحيى بن سعيد بن مخنف الأزدي الغامدي «أبو مخنف» راوية عالم بالسير والأخبار له تصانيف كثيرة في تاريخ عصره (../١٥٧ هـ) (الأعلام: ج ٥، ص ٢٤٥).

(٢) عبد الرحمن بن ملجم المرادي التدؤلي الحميري: فاتك ثائر من أشداء الفرسان ومن أهل العبادة والفقه شهد مع علي صفين ثم خرج عليه وضربه غيلة فقتله الحسن (.../٤٠ هـ) (الأعلام: ج ٣، ص ٣٣٩).

(٣) عيسى بن يزيد بن بكر بن دأب الليثي «أبو الوليد»: خطيب وشاعر وراوية من المدينة أبوه عالم بالأخبار والأشعار (-/ ١٧١ هـ) (الأعلام: ج ٥، ص ١١١).

وهو في ضِياعه، فأتاه غلام له يقال له عجلان، فأخبره بثِقَل أبيه، فأقبل وقد قال في ذلك شعراً:

[البسيط]

جـاءَ الـبَـرِيـدُ بِـقِـرْطـاسٍ يَـخُـبُّ بِـهِ ... فأَوْجَسَ الـقَـلْـبُ مِـنْ قِـرْطـاسِـهِ جَـزَعـا
قُلْنا: لَكَ الوَيْلُ ماذا في صَحِيفَتِكُمْ ... قـالَ: الـخَـلِـيـفَـةُ أَمْـسَـى مُـثْـبَـتـاً وَجِـعـا
فَـمـادَتِ الأَرْضُ أَوْ كـادَتْ تَـمـيـدُ بِـنـا ... كَـأَنَّ أَغْـبَـرَ مِـنْ أَرْكـانِـهـا انْـصَـدَعـا
ثُـمَّـتَ مِـلْـنـا إلـى عِـيـسٍ مُـزَمَّـمَـةٍ ... نَـغْـشى الفِـجـاجَ بِـهـا لا نَـأْتَلِـي سَـرَعـا
لَـسْـنـا نُـبـالـي إذا بَـلَّـغْـنَ أَرْحُـلَـنـا ... ما مـاتَ مِـنْـهُـنَّ بِـالْـبَـيْـداءِ أَو ظَـلَـعـا
حَـتَّـى دَفَـعْـنـا لِـرَأْسِ الـنَّـاسِ كُـلِّـهِـمُ ... هَـدْيـاً، وَخَـيْـرِهِـمُ فِـعْـلاً وَمُـصْـطَـنَـعـا
مَـنْ لَـمْ تَـزَلْ نَـفْـسُـهُ تُـوفِي عَـلَى شَـرَفٍ ... تُـوشِـكُ مَـقـادِيـرُ تِـلْـكَ الـنَّـفْـسِ أَنْ تَـقَـعـا
لَـمّـا انْـتَـهَـيْـنـا وَبـابُ الـدَّارِ مُـنْـصَـفِـقٌ ... لِـصَـوْتِ رَمْـلَـةَ رِيـعَ الـقَـلْـبُ فـانـقَـلَـعـا

قال: فلما دخل على معاوية خلا به وأخرج عنه أهل بيته وقال: «يا بُني قد جاءَ أمرُ الله، وهذا أوان هَلاكي، ما أنتَ صانعٌ بهذه الأمة بعدي؟ فمن أجلك آثرتُ الدُّنيا على الآخرة، وحملتُ الوِزْر على ظهري لِتعلوَ بني أبيك». قال يزيدُ: «آخُذُهم بكتاب الله وسُنَّةِ رسوله وأقتُلُهم عليه». قال: «أوَ لا تسير بسيرة أبي بكر الذي قاتل أهلِ الرِّدَّة ومضى والأمة عنه راضون؟». قال: «لا، إلاَّ بكتاب الله وسنَّة نبيِّه، آخُذُهم به وأقتلهم عليه». قال: «أو لا تسير بسيرة عمر الذي مَصَّرَ الأمْصار وجنَّدَ الأجناد، وفرض الأعْطِيةَ، وجبَى الفَيْء وقاتل العَدوّ، ومضى والأمة عنه راضون؟». قال: «لا، إلاَّ بكتاب الله وسنة نبيّه عليه السلام، آخذهم به وأقتلهم عليه». قال: «أوَ لا تسير بسيرة عَمِّكَ عثمان بن عفّان الذي أكلَ في حياته، وورَّثَ في مماته، واحتمل الوِزْرَ على ظهره؟». قال: «لا، إلاَّ بكتاب الله وسنَّة نبيّه، آخذهم به واقتلهم عليه». قال: «يا يزيد، انقطع منك الرجاء وأظنك ستخالف هؤلاء جميعاً فتقتلُ خِيار قومك وتغزو حرَمَ ربك بأُشاباتِ الناس فَتُطْعِمُهُمْ لحومَهم بغير الحق فَتُدْرِكُكَ مِيتةٌ فُجاءَةٌ، فلا دنيا أصبتَ، ولا آخرة أدركتَ. يا يزيد أمَّا إذا لم تُصبِ الرّشد فإني قد وطّأت لك الأمور، وذلَّلْتُ لك أهل العِزّ، وأخضعتُ لك رقاب العرب، وكفيتُك الرِّحلة والتَّرحال، وجمعت لك ما لم يَجمعْه واحِدٌ، وإني لست أخاف أن يُنازعك في هذا الأمر إلا ثلاثةُ نفرٍ: الحُسينُ بن عليّ، وعبدُ الله بن عمر، وعبد الله بن الزُّبير. فأما عبد الله بن عمر فرجلٌ قد وَقذَتْه العبادة وتخلَّى من الدنيا وشغلَ نفسه بالقرآن. وما أظنه يُقاتل عليها إلا أن تأتيَه عفواً. وأمَّا الذي يجثِمُ جُثوم الأسد ويَروغُ رَوَغان الثعلب، فإن

أمْكنتهُ الفرصة وَثب فابنُ الزبير، فإن هو فعَل فاستمكنتَ منه فقطِّعه إرباً إرْباً إلاَّ أن يلتمس منك صُلحاً. فإن فعَل فاقبَل منه واحقُنْ دماء قومه تُقبِلْ قلوبهم إليك. وأمَّا الحسين بن علي فإن له رَحِماً وحَقاً وولادة من رسول الله ﷺ ولا أظنُّ أهل العراق تاركيه حتى يُخرجوه عليك، فإذ قدَرْت عليه فاصفح عنه. فإني لو كنتُ صاحبَه صَفَحتُ وعفوت عنه. قُم عنّي». وصلى عليه عمرو بن العاص.

وصية أبي عُبيدة بن الجرَّاح(١)

تحدث لوط بن يحيى أبو مِخْنَف، قال: لما طُعِن أبو عبيدة بن الجراح بالأُرْدُنّ ـ وبها قبره ـ دعا مَن حضره من المسلمين فقال: «إنِّي أوصيكم بوصية إنْ قبلتموها لم تزالوا بخير: أقيموا الصلاة وآتوا الزكاة، وصوموا شهرَ رمضان، وتصدَّقوا وحُجُّوا واعتمِروا، وتَواصلوا، وانصحوا لأمرائكم ولا تَغُشّوهم، ولا تُلْهِكُمُ الدنيا، فإن امرءاً لو عُمِّر ألف حوْل ما كان له بدٌّ من أن يصير إلى مثل مصرعي هذا الذي تَروْنَ. إنَّ الله كتب الموت على بني آدم، فهم ميِّتون، وأَكْيسُهم أطْوَعُهم لربه، وأعملهم ليوم ميعاده. والسَّلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته. يا مُعاذُ بن جبَل(٢)، صلِّ بالناس».

ومات رحمه الله، فقام معاذ بن جبل إلى الناس فقال:

«يا أيها النَّاس، توبوا إلى الله من ذنوبكم توْبةً نَصوحا، فإن عبداً لا يَلقى الله تائباً من ذنبه إلا كان حقاً على الله أن يغفر له. من كان عليه دَيْن فَليَقضِه، فإن العَبد مُرتَهَنٌ بدَينه، ومن أصبح منكم مهاجراً أخاه فلْيَلقَه فليصالِحْه، ولا يَنْبَغي أن يهجُر أخاه أكثر من ثلاث، والذنب في ذلك عظيم. إنكم، أيها المسلمون، قد فُجِعْتم برجلٍ ما أزعُمُ أني رأيت عبداً أبرّ صدراً، ولا أبعدَ من الغائِلة وأشدَّ حُباً للعافية، ولاَ أنْصح للعامَّة منه. فترحَّموا عليه رحمه الله، ثم احضُروا للصلاة عليه».

---

(١) أبو عُبَيْدَة عَامِر بن عبد الله بن الجرّاح بن هلال الفهري القرشي: أمير قائد فتح الديار الشامية صحابي شهد المشاهد كلها توفي بطاعون عمواس ودفن في غور بيسان وانقرض عقبه (٤٠ ق هـ ـ ١٨ هـ) (الأعلام: ج ٣، ص ٢٥٢).

(٢) أبو عبد الرحمن معاذ بن جبل الأنصاري الخزرجي: صحابي جليل وأحد الستة الذي جمعوا القرآن شهد المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ وبعثه بعد غزوة تبوك قاضياً ومرشداً إلى اليمن عاد إلى المدينة بعد وفاة النبي واستخلفه أبو عبيدة عند إصابته بطاعون عمواس ومات في ذلك العام (٢٠ ق هـ ـ ١٨ هـ) (الأعلام: ج ٧، ص ٢٥٨).

قال: ولما احْتُضِر مُعاذُ بن جَبَل قال لوط بن يحيى: حدثنا الصَّعب بن زهير عن شهرِ بن حَوْشب قال: أتى آتٍ معاذَ بن جَبَل عند موته فقال: «يا مُعاذ، أَوصِني بما يَنْفعني قبل أنْ تفارقني، فلعَلي أحتاج إلى سؤال الناس بعدك، فلا أجدُ فيهم مثلك». قال معاذ: «بلى، صُلحاء الناس بحمد الله كثير، ولن يضيِّع الله أهلَ هذا الدين. خُذْ عني ما آمرك به: كُنْ من الصائمين بالنهار، والمستغفرين بالأسحار، والذاكرين الله على كل حال، ولا تشرب الخمرَ، ولا تغْفُق والديك، ولا تأكل مالَ اليتيم، ولا تفِرَّ من الزحف، ولا تأكل الرِّبا، وَلا تَدَعِ الصلاة المكتوبة، وَصِلْ رَحِمَك لله، وكن بالمؤمنين رؤوفاً رحيماً. وأنا لكَ بالجنة زعيم». ثم مات رحمه الله. فصلى عليه عمرو بن العاص.

وصية عبد الملك بن مروان رحمه الله

وأوصى عبد الملك بن مروان حين حضَرتْه الوفاة فقال لبنيه: «أُوصيكم بتقوى الله، فإنها عِصْمةٌ باقية وجُنَّة واقية. والتقوى خيرُ زاد، وأفضل في المَعاد، وأحْصَنُ كهف، وأَزْينُ حِلية. لِيعطف الكبيرُ منكم على الصغير وليعرفِ الصغيرُ منكم حقَّ الكبير مع سلامة الصدور والأخْذِ بجميل الأمور. فإنكم إذا فعلتم ذلك كنتم للعز خُلَقاء، وهابتكم الأعداء. إياكم والتَّباغي والتحاسُدَ فإنَّ بهما هلك الملوك الماضون، وذَوُو العِز المتكبرون. انظروا يا بَنيَّ، مَسلمَةَ بن عبد الملك فاصدُروا عن رأيه، فإنه نابُكُم الذي تَفترُّون عنه، ومِجَنُّكم الذي تَستَجنُّون به. وأكرموا الحَجَّاج، فإنه الذي وطّأ لكم المنابر، وكفاكم قَحْم تلك القناطر. كونوا أولاداً أبراراً، وفي الحرب أحراراً، وللمعروف مَناراً، واحْلَوْلوا في مَرارة، وَلِينوا في شِدَّة». ثم رفع رأسه إلى الوليد فقال: «لا أُلْفِيَنَّك يا وليدُ، إذا وضعتني في حُفرَتي تُعَصِّر عينيك كما تفعل الأمة، بل شَمِّرْ واتَّزِرْ، والْبَس جِلد نِمر، وادعُ الناس إلى البَيعة، فمن قال برأسه هكذا فقل بالسيف هكذا. أوصيك بأخيك عبد الله بن عبد الملك وَبعمُر بن عبد العزيز خَيراً. لا تعْزِلهُما ولا تستبدل بهما. وأوصيك بابن عمنا هذا خيراً ـ يعني علي بن عبد الله بن العباس. فأما الحجاج فلست تستغني عنه».

ثم أرسل إلى خالدٍ وعبد الله، ابنيْ يزيد بن معاوية. فلما جلسا قال: «ما تقولان: أأُقيلكما بيعة الوليد»؟ قالا: «معاذ الله يا أمير المؤمنين». قال: لو قلتما غير ذلك لقتلتكما على حالي هذه. قوما. فقاما فخرجا. ثم دعا بقداحٍ بعِدّة ولدِه فأمر بها فجُمِعتْ ثم دفعها إلى الوليد فقال: اكسرها. فلم يقدر علىَ ذلك. ثم

دُفعت إلى آخر، ثم آخر، حتى استقراهم جميعاً، فأعياهم كَسرُها، فأمر بها ففُرّقت، ثم دفع إلى كل واحد منهم قِدْحاً وَأمرَهُ بكسره ففعل، فقال: هكذا أنتم بعدي، إن اجتمعتم لم يَكْسِركم أحد، وإن تَفرَّقتم كُسِرْتم. وقال: احفظوا عني هذه الأبيات:

[الكامل]

انـفُـوا الـضَّـغـائِـنَ عَـنْـكُـمُ وَعَـلَـيْـكُـمُ   عِـنْـدَ الـمَـغِـيـبِ وفي الـحُـضُـورِ الـشُّـهَّـدِ
بِـصَـلاَحِ ذاتِ الـبَـيْـنِ طـولَ بَـقـائِـكُـمْ   إنْ مُـدَّ فـي عُـمْـرِي وَإِنْ لَـمْ يُـمْـدَدِ
فَـلِـمِـثْـلِ رَيْـبِ الـدَّهْـرِ أُلِّـفَ بَـيْـنَـكُـمْ   بِـتَـواصُـلٍ وتَـرَاحُـمٍ وَتَـوَدُّدِ
حَـتَّـى تَـلِـيـنَ قُـلُـوبُـكُـمْ وَجُـلُـودُكُـمْ   لِـمُـسَـوَّدٍ مِـنْـكُـمْ وَغَـيْـرِ مُـسَـوَّدِ
إنَّ الـقِـداحَ إذا اجْـتَـمَـعْـنَ فَـرَامَـهـا   بـالـكَـسْـرِ ذُو حَـنَـقٍ وَكَـسْـرٍ أَيِّـدِ
عَـزَّتْ فَـلَـمْ تُـكْـسَـرْ وإنْ هـيَ بُـدِّدَتْ   فـالـوَهْـنُ وَالـتَّـكْـسِـيـرُ لِـلْـمُـتَـبَـدِّدِ

فلما توفي سجّاه الوليد، ثم صعد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، وصلى على النبي ﷺ، ثم قال: «لم أرَ مثلها مصيبةً ولا مثلها نعمةً. فُقِد الخليفة، فإنا لله وإنا إليه راجعون، على عِظَم المصيبة. والحمد لله ربِّ العالمين، على عظيم النِّعمة». ثم دعا الناسَ إلى البيعة، فبايع الناس ولم يتخلَّف أحدٌ. فَسَمِع أحدَ وَلَدِ عبد الملك يبكي ويقول: مات، والله، أميرُ المؤمنين. فقال: وَيْلك لا تقلْ هكذا، ولكن قُلْ كما قال أخو بني أُسيدٍ أَوْسُ بن حَجر:

[الطويل]

إذا مُـقْـرَمٌ مِـنَّـا ذَرا حَـدُّ نـابِـهِ   تَـخَـمَّـطَ فِـيـنـا نـابُ آخـرَ مُـقْـرَمِ

وأوصى أبو قيس بنُ صِرْمَةَ الأنصاري ولده عند موته فقال:

[الخفيف]

يـا بَـنـيَّ، الأَرْحـامُ لا تَـقْـطَـعُـوهـا   وَصِـلُـوهـا قَـصِـيـرَةً مِـنْ طِـوالِ
وَاتَّـقُـوا اللهَ فـي ضِـعـافِ الـيَـتـامَـى   رُبَّـمـا يُـسْـتَـحَـلُّ غَـيْـرُ الـحَـلالِ
اعْـلَـمُـوا أَنَّ لِـلْـيَـتِـيـمِ وَلِـيّـاً   عـالِـمـاً يَـهْـتَـدي بِـغَـيْـرِ الـسُّـؤالِ
يـا بَـنـيَّ الأَيّـامُ لا تَـأْمَـنُـوهـا   واحْـذَروا مَـكْـرَهـا وَكَـرَّ الـلَّـيـالـي
واعْـلَـمـوا أنَّ مَـرَّهـا لِـنَـفـادِ الـ   ـخَـلْـقِ مـا كـانَ مِـنْ جَـديـدٍ وبـالِ
وَاجْـمَـعُـوا أَمْـرَكُـمْ عَـلـى الـبِـرِّ وَالـتَّـقْـ   ـوى وَتَـرْكِ الـخَـنـا وأَخْـذِ الـحَـلالِ

وأنبأنا أبو عبد الرحمن قال: أنبأنا أبو يعقوب الثَّقفي عن عبد الملك بن عمير اللَّخْمي قال: جاء أبو جَهْم بن حُذيْفة العَدَويِّ، وهو يومئذٍ ابن مئة سنة،

إلى مجلس لِقُرَيش، فأوْسَعوا له عن صدر المجلس وقائل يقول: بل كان عُروة بن الزُّبير مكان أبي جَهْم فقال: يا بَني أخي، أنتم خيرٌ لِكبيركم من مَهْرَة[١] لكبيرهم. قالوا: وما شأن مهرة وكبيرهم؟ قال: كان الرجل منهم إذا كَبِرَ وضعُف أتاه ابنه أوْ وَليُّه فعَقله بعِقال ثم قال: قمْ. فإن استتمّ قائماً وإلاّ حمله إلى مَحْبِس لهم يُجرَى على أحدهم فيه رزقه حتى يموت. قال: فجاء شاب منهم إلى أبيه ففعل ذلك، فلم يستتمّ قائماً، فحمله فقال: أيْ بُنيَّ إلى أين؟ قال: إلى سُنَّة آبائك، فقال: أي بُنَّي لا تفعل، فوالله لقد كنت أوعِدُكَ فلا أُحِقُّك[٢]، وأُماشيك فما أَبُذُّك[٣] وأسقيك الدّأدَأة[٤] ـ قال: وكانت العَرَبُ تقول: إذا سُقِيَ الغلامُ اللبنَ وهو قائم كان أسرع لشبابه ـ فقال الفتى: لا جَرَم، والله، لا يُذْهَب بك، فاتخذتها مَهرةُ سُنَّةً.

وأخبر عبدُ الرحمن بن إسرائيل عن أشياخه قال: لما حضرت الوفاةُ سعيدَ بن العاصي قال: يا بَنيّ، أيكم يَكفُلُ عَني دَيْني؟ قال عمرو بن سعيد: عليّ دَينك يا أبَهْ. كم هو؟ قال: ثمانون ألف دينار. قال: وفيم استَدنتها؟ قال: في كريم سددت خلَله، أو لئيم اشتريت عِرضي منه، ثم قال سعيد: هذه خَصلةٌ وبقيتْ خَصْلتان. قال: ما هما يا أبَهْ؟ قال: يا بُنيّ لا تزوجنَّ بناتي إلاّ من الأكْفاء ولو بفَلَقِ خُبز الشعير. قال: أفعلُ. قال: يا بني، ذهبت خصلتان وبقيت خصلة. قال: وما هي يا أبَهْ؟ قال: يا بُنيّ، إنْ فَقَدَ إخواني وجهي فلا يفقِدوا معروفي. قال: أفعلُ يا أبَهْ. قال: يا بُنيّ ما زلت أعرف الكرم في حَماليق عَينيْك وأنت يُحرَّكُ بك في مَهدك حتى بلغت ما أرى. يا بُنيّ، ما شاتمتُ رجلاً مذ كنتُ رجلاً، ولا زاحمتْ ركبتاي ركبته ولا كلَّفتُ من يرتجيني أنْ يسألني فيَبذُلَ وجهه ويَرْشَح جبينُه رَشْحَ السِّقاءِ، إذن، والله، فما وصَلته. يا بُنيّ، أخزى اللهُ المعروفَ إذا لم يكن ابتداءً عن غير مَسْألةٍ. فأمَّا إذا أتاك تكاد ترى دمه في وجههُ مخاطراً، لا يدري أتعطيه أم تمنعه، فوالله لو خرجتَ له من جميع ما تملكه ما كافأتَه، ولا الذي بات يتَململ على فراشه يُعقِّب بين شفتيْه أيجدني موضعاً لحاجته أم لا، لهوَ أعظم عليّ مِنَّةً منّي عليه، إذا قضيتُها له».

---

(١) مَهْرة بن حَيْدان بن عمرو بن الحافي من قضاعة: جدّ جاهلي يماني كانت بلاد بنيه في ناحية الشِّحر وإليهم تنسب الإبل المهرية (.../...) (الأعلام: ج ٧، ص ٣١٤).

(٢) حقّه وأحقّه: غلبه على الحق.

(٣) بذّه يَبُذُّه: سبقه وغلبه.

(٤) الدأدأة: السرعة والإحضار.

وفي هذا الحديث بغير هذا الإسناد، ولكن عن الزبير بن أبي بكر قال: كانت عِلَّته التي مات فيها في ضَيعةٍ له بقرب المدينة، فلما اشتدت عِلّته قال لابنه عمرٍو: يا بُنيَّ، قد ترى ما نزل بي، فقال له عمرو: يا أبَهْ، لو حُملتَ إلى المدينة. فقال: يا بُني، إنّ الحركةَ تتعبني، وإنَّ أهلي لا يبخلون عليّ بحملي على رقابهم ساعةً. يا بُنيَّ، إنّ ضيعتي هذه مُتريِّفٌ وليست بمال غَلةٍ، فإذا أنا مُتُّ ففرَغْتَ من دَفْني، فوجِّه مطيَّتك نحو معاوية فانعَني له، فإنه سيسألك عن دَيني ويتضمَّنُه، فأعْلِمه أني قد علمت ذلك وَجَزِّه خيراً. ثم قل له: يا أمير المؤمنين، إنّ له ضَيْعةً أمرَ ببَيْعها لقضاء دَيْنه، فإنه سيشتريها منك، فاسأله أن يكتب لك بمالها إلى المدينة فأقم بها دَيني وَعِداتي. فلما دفن كانت مطايا عمرو موقوفةً فعُزِّي عنه، وركب يريد معاوية من ساعته حتى ورد عليه فنعاه له فتفجّع وقال: ما خلَّف من الدَّين فهو عليَّ. فقال: يا أمير المؤمنين، قد علم ذاك فوَصَلَتْكَ رَحِمٌ، ولكنه أمرني ببيع ضَيْعةٍ له وهي الفلانية. قال: قد اشتريتُها بدَيْنِه، وكتب له بالمال إلى المدينة، فجاءه صعلوك من صعاليك قريش بصكٍّ على أبيه بعشرين ألف درهم، فيه شهادة مولًى له، فقال له: يا هذا، إني أعرف الخطَّ وإني أُنكرُ أن يكونَ لمثلك مثلُ هذا المال عليه، فدعا مَوْلاه فقال له: أتعرف هذا؟ فشهد به؛ فقال له: ما سببه؟ فقال: إن أباك في وقت عَزْلِهِ ـ وكان معاويةُ يُوَليهِ المدينة سنَةً ويُولِّي مروانَ بنَ الحَكَم سنَةً ـ رآه وحْدَه وقد رَكِبَ لبعض حاجاته، فسار معه حتى بلغها ورَجع. فلما انتهى قال له: يا فتى، ألك حاجةٌ؟ فقال: لا، ولكني رأيتك مفرداً فأحببت أن أصِلَ جَناحَك، فالتمسَ مالاً يَهَبُه له فلم يَحْضُرْهُ فقال لي: عَجِّلْ عليَّ بصحيفةٍ، فكتب له بهذا دَيْناً عليه حالاً. فقال عمرو: إذن والله لا يأخذها إلاّ مُعجَّلةً مُنْتَقدَةً.

قال ابن دَأب: لما حضرتْ عُمرَ بن عبد العزيز الوفاةُ قيل له: يا أمير المؤمنين، اكتب إلى يزيدَ بن عبد الملك فأوصِه بالأمّة خيراً فقال: وبمَ أُوصيه؟ إني لأعلم أنه من بني مروان. ثم أمرَ بالكتاب إليه: أما بعدُ. فاتَّق، يا يزيدُ، الصَّرْعَةَ بعدَ الغَفْلةِ فلا تُقالُ العَثْرَةُ، ولا تَقدِرُ على الرَّجعة. تترك ما تترُك لمن لا يَحْمَدُك، وتقدَمُ على من لا يَعْذِرك والسلام.

ويُروى أنَّ هشام بن عبد الملك لما احتُضِر نظر إلى حَشَمِهِ ولُحْمَتِهِ يبكون، ففتح عينيه فاطّلعَ في وجوههم ثم قال: جاد عليكم هشام بالدنيا، وجُدْتُم عليه بالبكاء، وتركَ لكم ما خَلّفَ وتركتم عليه ما اكتسب! ما أَسْوأَ حالَ هشام إن لم يَغفر الله له!

ولما احتُضر معاوية أقبل على ابْنة قَرَظة[1] فقال: بكّيني، فقالت:

[الهزج]

ألا ابْـكـيـهِ ألا ابْـكـيـهِ ... ألا كُـلُّ الـفـتـى فـيـهِ

ثم قال لابنتيْه: قَلِّباني. فجعلتا تُقلِّبانه لِجنْبِ بعد جَنبٍ فقال: إنكما لتُقلِّبانه حُوّلاً قُلّباً إن وُقيَ كبَّة النَّارِ. ثم أنشد:

[الكامل]

لاَ يَـبْـعَـدَنَّ رَبـيـعَـةُ بـنُ مُـكَـدَّمٍ ... وَسَـقـى الـغَـوادي قَـبْـرَهُ بِـذَنـوبِ

ثم قال ليزيد: إذا أنا قضيت فاحْسِنْ غسلي، واجعل في آخره مسكاً وكافوراً، وأحسِن الصَّلاة عليَّ ثم ادفِنّي في لحدي ودَعْني وربّي. فلما بلغ ابنَ عباسٍ موتُه قال:

[الكامل]

جَـبَـلٌ تَـصَـدَّعَ ثُـمَّ مـالَ بِـجُـمْـعِـهِ ... في الـبَـحْـرِ لا رَتَـقَـتْ عَـلَـيْـهِ الأبْـحـرُ

وصيةُ الرَّبيع بن خُثَيم[2]

وروى إسرائيل عن يونس بن أبي إسحاق السَّبيعي عن سعيد بن مَسْروق الثَّوري عن مُنذر بن يَعْلى الثَّوري قال: أَوْصى الربيع بن خُثَيم: هذا ما أوصى الربيع بن خُثَيم: «شَهدَ أن لا إله إلاّ الله وكفَى بالله شهيداً، وجازياً لعباده الصالحين ومُثيباً. إني رضِيتُ بالله ربّاً، وبالإسلام ديناً، وبمُحمَّدٍ ﷺ نبيّاً، وبالقرآن إماماً. وإني أُوصي نفسي ومن أطاعني أن يعبُد الله في العابدين، ويَحْمَدَه في الحامدين، ويَنْصَحَ لجماعة المسلمين».

وصية جندب بن عبد الله البجلي

وروى شُعْبَةُ بن الحجّاج[3] عن يونس بن جُبير قال: شيَّعَنا جُندَب بنُ عبد الله، فقلنا له: أَوصِنا. فقال: «أُوصيكمْ بتقْوى الله وبالقرآن فإنه نور الليل المظلم،

---

(1) قَرَظة: إحدى زوجات معاوية.

(2) الرَّبيع بن خُثَيم الثوري الكوفي «أبو زيد» زاهد تابعي روى عن عبد الله بن مسعود وروى عنه الشعبي والثوري توفي سنة ٦٥ هـ (البيان والتبيين: ج ٣، ص ١٢٩).

(3) شعبة بن الحجاج بن الورد العتكي الأزدي «أبو بسطام» من أئمة رجال الحديث حفظاً ورواية ولد بواسط وسكن وتوفي بالبصرة وكان عالماً بالأدب والشعر (٨٢ ـ ١٦٠ هـ) (الأعلام: ج ٣، ص ١٦٤).

وهَدْيُ النهار، فاعلموا واعملوا به على ما كان من جهد وَفاقةٍ. فإنْ عَظُمَ بَلاءٌ فقدِّمْ مالَك دون نفسك، فإنْ جاوزَ البلاء فقدِّم مالَك ونفسك دونَ دينِك. واعلمْ أنّ المَحروبَ مَنْ حُرِبَ دينَه، والمَسْلوب من سُلب دِينَه، واعلمْ أنَّه لا غِنى بعدَ النّارِ، ولا فَقْرَ بعدَ الجنَّة، وأنَّ النار لا يُفَكُّ أسيرُها، ولا يستغني فقيرُها».

ولما حضرت الوفاةُ عُمرَ بنَ هُبيرَةَ[1] جَزِعَ وجعل يقول: لِلَّهِ دَرُّ البَغلات المسرَجات الواقفات بأبواب السلطان. والله لَوددْتُ أني كنتُ راعيَ إبلٍ مِئةٍ لرجلٍ سَيِّىء المَلَكة.

ولما احتُضر إبراهيم بنُ يزيد النَّخعي[2] جَزِعَ جزَعاً شديداً وجعل يقول: نفسي أعزُّ الأنفسِ عليّ. فقيل له: يا أبا عِمْران، أتجزَعُ هذا الجَزَع من الموت؟ فقال: وأيُّ غَرَرٍ أَعْظَمُ مِمَّا أنا فيه، إنما أتوقع رسولاً من ربي إما بجنَّةٍ وإما بنار.

ويروى أن فتىً من الأعراب حضرتْهُ الوفاة، فنظر إلى أبيه وأمه يبكيان حواليه بُكاءً ذريعاً، فقال: ما يُبكيكما؟ فقالا له: إنّا لنَعْلَمُ أنَّ للموتِ ما تَلِدُ الوالدةُ، ولكن لِزَهْوٍ كان فيك. فقال: آلله، ما يُبكيكما إلاَّ ذاك، فحلفا على ذلك فقال: فواللهِ الذي لا إله إلا هو ما يَسرُّني أنَّ إليكما مِنْ أمري ما إلى ربّي.

ويروى أنّ رجلاً من أبناء فارس احتُضر فجَزِع فقيل له: ما بك؟ فقال: ما ظنُّكم بمَنْ يقطعُ سفراً بعيداً بلا زاد، ويَقْدُمُ على حَكَمٍ عادل بلا حُجَّة، ويسكن قبراً موحشاً بلا مؤنس؟.

وصية المهلَّب بن أبي صُفْرَة الأزْدي[3]

ولما احتُضِر المُهلَّبُ بن أبي صفرة أوصى بَنيه فقال: «أُوصيكُم بتقوى الله وصِلَةِ الرَّحم، فإنّ تقوى الله تُعقِبُ الجنَّةَ، وإنَّ صلة الرَّحم تُنسىءُ في الأجل، وتُثري المال، وتجمع الشَّمل وتُكثر العدد، وتُعمِر الديارَ، وتُعزُّ الجانبَ. وأنهاكُم عن معصية الله، فإنها تُعقب النار، وإنَّ قطيعة الرَّحم تورثُ القلَّة والذِّلة، وتُفرِّقُ

---

(١) عُمر بنُ هُبَيْرة الفَزَاري «أبو المثنى» أمير شجاع من أعوان بني أمية الدهاة (ـ/ ١١٠ هـ) (الأعلام: ج ٥، ص ٦٨).

(٢) إبراهيم بن يزيد النَّخعي «أبو عمران» كوفي من التابعين صادق الرواية حافظاً للحديث مات مختفياً من الحجاج (٤٦ ـ ٩٦ هـ) (الأعلام: ج ١، ص ٨٠).

(٣) المهلَّب بن أبي صُفْرَة ظالم بن سرّاق الأزدي العتكي «أبو سعيد» أمير شجاع جواد حارب الخوارج تسعة عشر عاماً وانتصر عليهم أخيراً تولى خراسان لعبد الملك وبقي عليها حتى وفاته (٧ ـ ٨٣ هـ) (الأعلام: ج ٧، ص ٣١٥).

الجَمع، وتذَرُ الدّيارَ بَلقَعاً وتُذهبُ المال، وتُطمع العدوَّ، وتبدي العَورة، يا بَنيّ، قومَكمْ قومَكمْ! إنه ليس لكم عليهم فضلٌ بل هم أفضلُ إذ فضّلوكم وسوّدوكم ووطّؤوا أعقابكم، وبلغوا حاجاتكمْ لما أرْدتم، وأعانوكم، فلهم بذلك حقٌّ عليكم، وبلاء عندكم لا تؤدّون شكره ولا تقومون بحقه. فإن طَلَبوا فأطلِبُوهم، وإن سألوا فأعطوهم، وإن لم يسألوا فابتدِئوهم، وإن شتَموا فاحتملوهم، وإن غَشُوا أبوابَكم فلْتُفْتحْ لهم ولا تُغلَقْ دونهم. يا بَنيّ، إني أُحبُّ للرجل منكم أن يكون لفعله الفضلُ على لسانه، وَأكرهُ للرجل منكم أن يكون للسانه الفضل على فعله. يا بنيَّ، اتقوا الجوابَ وَزلَّة اللسان، فإني وجدتُ الرجل تعثُرُ قدمه فيقومُ من زلَّته وينتعش منها، ويزِلُّ لسانه فيُوبقه، وتكونُ فيه هَلَكَتُه. يا بنيَّ، إذا غدا عليكم رجل أو راح فكفى بذلكم مَسألةً وتذكِرَةً بنفسه. يا بنيَّ، ثيابُكم على غيركم أحسن منها عليكم، ودوابُّكم تحت غيركم أحسنُ منها تحتكم. يا بنيَّ، أحبُّوا المعروف، واكرهوا المنكر واجتنِبوه، وآثروا الجود على البُخل، واصطنعوا العَرب وأكرموهم، فإنَّ العربيَّ تعِده العِدة فيموت دونك ويشكر لك، فكيف بالصنيعة إذا وَصلت إليه، في احتماله لها، وشكره والوفاء لصاحبها. يا بَنيَّ، سوِّدوا كباركم واعرِفوا فضلَ ذوي أسنانِكم تعظمُوا به، وارحموا صغيركم وقرِّبوه وألطِفوه وَاجبروا يتيمَكم وعودوا عليه بما قَدَرتم، وَخذوا على يَدَيْ سفهائكم، وتعاهدوا فقراءكم وجيرانكم بما قدرتم عليه، واصبروا للحقوق ونوائب الدهر. وعليكم في الحرب بالأناةِ، والتؤدة في اللِّقاء. وعليكم بالتماس الخديعة، في الحرب، لعدوِّكم، وإياكم والنَّزَق والعجلة، فإن المكيدة والأناة والخديعة في الحرب أنفعُ من الشجاعة. واعلموا أن القتال والمكيدة مع الصبر، فإذا كان اللقاء نَزَلَ القضاء، فإن ظفِرَ امرُؤٌ وقد أخذ بالحزْم قال القائل: قد أتى الأمرَ من وَجهه، وإن لم يظفر قال: ما ضيَّع وَلا فرَّط ولكنّ القضاء غالب. والزموا الحَزم على أيِّ الحالتين وقعَ الأمرُ، والزموا الطاعة والجماعة، وإياكم والخلاف. تواصلوا وتَآزروا وَتعاطفوا، فإن ذلك يثبت المودَّة. وَخذوا فيما أوصيكم به بالجد والقوة والقيام به تَظفروا بدُنياكم ما كنتم فيها، وبآخِرَتكم إذا صِرْتم إليها ولا قوة إلاّ بالله. وليَكن أوَّل ما تبدؤون به إذا أصبحتم تعليم القرآن والسُّننِ والفرائض، وتأدّبوا بآداب الصالحين منْ قبلكم مِنْ سَلفِكم، ولا تُقاعدوا أهلَ الدَّعارة والرِّيبة، ولا يَطمعْ في ذلك منكم طامع. وإياكم والخفَّةَ في مجالسكم وكثرة الكلام، فإنه لا يسلمُ منه صاحبه، وأدُّوا حقّ الله عليكم، فإني قد أبلغت إليكم في وَصيَّتي، واتخذتُ لله الحجَّة عليكم».

وَتُوفِّيَ بمَرْوِ الرُّوذْ[1] ووليَ خراسانَ أربعَ سِنينَ. فقال نَهارُ بنُ تَوْسِعةَ[2]:

[الطويل]

أَلا ذَهَبَ الغَزْوُ المُقَرِّبُ لِلغِنى ... وَماتَ النَّدى وَالحَزْمُ بَعْدَ المُهلَّبِ

أَقاما بِمَرْوِ الرُّوذِ رَهْنَ تُرابِهِ ... وَقَدْ غُيِّبا عَنْ كُلِّ شَرْقٍ وَمَغْرِبِ

قال: ثم وُلّيَ بعد المُهَلَّب قتيبةُ بنُ مُسلم فدخل عليه نهارُ بن توسعة وهو يعطي الناسَ، فلما رآه عرفه وقال: أنت القائل في المهلب ما قلت؟ قال: بل أنا الذي أقول:

[الطويل]

وما كانَ مُذْ كُنّا وَلا كانَ قَبْلَنا ... وَلا هُوَ فينا كائِنٌ كَابْنِ مُسْلِمِ

أَعَمَّ لأَهْلِ الشِّرْكِ قَتْلاً بِسَيْفِهِ ... وَأَقْسَمَ فينا مَغْنَماً بَعْدَ مَغْنَمِ

قال: إن شئت فأقلل، وإن شئت فأكثر، لا تصيبُ مني خيراً. يا غلام، حَلِّق على اسمه فلزم بيته حتى وَلي يزيد بن المهلب خراسان، فأتاه فدخل عليه وهو يقول:

[الطويل]

فَإِنْ يَكُ ذَنْبي يا قُتَيْبَةُ أَنَّني ... بَكَيْتُ امْرءاً قَد كان في الجودِ أَوْحَدا

أَبا كُلِّ مَظْلومٍ وَمَنْ لا أَبا لَهُ ... وَغَيْثَ مُغَيَّباتٍ أَطَلْنَ التَّلَدُّدا

فَشَأْنَكَ إِنَّ اللهَ إِنْ سُؤْتَ مُحْسِنٌ ... إِلَيَّ فَقَدْ أَبْقى يَزيدَ وَمَخْلَدا

فقال له: «احتكم»، فقال: «مئة ألف».

ويقال: إن مخلدَ بن يزيد هو الذي أعطاه، لأن أباه كان قدّمه خليفةً على خراسان. فكان يقول بعد موت مخلد: «رَحم اللهُ مخلداً، ما ترك لي بعدَه من قول».

وكان يزيد بن المهلّب أوصى مخلداً ابنه، لما سار من خراسان إلى جُرْجان[3] فاستخلفه على خراسان، أن قال له: «يا بُنيّ، انظر هذا

---

(١) مَرْوُ الرُّوذ: مدينة قريب من مرو الشاهجان مات فيها المهلب بن أبي صفرة (معجم البلدان: ج ٥، ص ١١٢).

(٢) نهَار بن تَوْسِعَة بن أبي عِتْبان من بكر بن وائل: شاعر مداح هجاء رثا المهلب بن أبي صفرة وهجا قتيبة بن مسلم وكان أبوه شاعراً أيضاً (../٨٣ هـ) (الأعلام: ج ٨، ص ٤٩).

(٣) جُرْجَان: مدينة مشهورة بين طبرستان وخراسان (معجم البلدان: ج ٢، ص ١١٩).

الحيّ من اليَمن فكن فيهم كما قال أبو دُؤاد الإيادي[1]:

[الطويل]

إذا كُنْتَ مُرْتادَ الرِّجالِ لِنَفْعِهِمْ   فَرِشْ وَاصْطَنِعْ عِنْدَ الَّذِينَ بِهِمْ تَرْمي

وكُنْ لهذا الحيِّ من بَكْرِ بن وائلٍ كما قال امرؤ القيس:

[السريع]

يا راكِباً قُولا لإِخْوانِنا   مَنْ كانَ مِنْ كِنْدَةَ أَوْ وائِلِ

إِنَّا وَإِيَّاكُمْ وَما بَيْنَنا   كَمَوْضِعِ الزَّوْرِ مِنَ الكاهِلِ

قال: ونَمي إليَّ عن مسلمة بن عَلقمة قال: كتب مروان بن محمد[2] إلى ولدِ المسور يُعزم عن أبيهم: «قد بلغ أميرَ المؤمنين الذي كان من نازِل قضاء الله في المسور بن عمرو، وما اختار الله له من المصير إليه، فعند الله يحتَسب أميرُ المؤمنين مصابه وَنِعْمَ المُتوفَّى توفاه الله من بينكم. وفي جود الله الخَلَفُ الكافي. وقد أعاضكم الله من رزيئتكم رأياً من أمير المؤمنين جميلاً، فيه حُسن الخلف عليكم. فَلْتحسن ظنونكم بربِّكم وخليفتكم فإن الله لم يقبض ولياً له إلاّ أحسن خلافته في ولده وأهل لُحمَته».

وتحدث يعقوب بن داود قال: عُزِّي السّائب بن الأقرع[3] عن ابنٍ له، فقال السائبُ: «هكذا الدنيا تصبح لك سارّةً، وتمسي عليك متنكرة». ثم تمَثَّل:

[الطويل]

أَلاَ قَدْ أَرَى أَنْ لا خُلُودَ وَأَنَّهُ   سَيَنْعَقُ في دارِي غُرابٌ وَيَحْجِلُ

وَيَقْسِمُ ميراثي رِجالٌ أَعِزَّةٌ   وَتَذْهَلُ عَنِّي الوالِداتُ وَتُشْغَلُ

وتحدث النضر بن إسحاق قال: ماتت امرأة بكر بن عبد الله المُزني فاشتد حزنه عليها، فنهاه الحسن فقال: «يا أبا سعيد، إنها كانت مواتية، وكانت.. وكانت..» فقال له الحسن: «لا تيأس، فعند الله خيرٌ منها». فتزوّج أختها بعدَها، فمرّ به الحسنُ بعد ذلك فقال: «يا أبا سعيد، هذه خير من أختها».

---

(١) أبو دؤاد جارية بن الحجاج الإيادي: شاعر جاهلي من وصاف الخيل المجيدين (.../...) (الأعلام: ج ٢، ص ١٠٦).

(٢) مروان بن محمد بن مروان بن الحكم «أبو عبد الملك» المعروف بالجَعْدِي أو الحمار آخر خلفاء بني أمية (٧٢ ـ ١٣٢ هـ) (الأعلام: ج ٧، ص ٢٠٨).

(٣) السَّائب بن الأقرع الثقفي: ولاه عمر قسمة الغنائم يوم نهاوند مات بأصبهان (البيان والتبيين: ج ٢، ص ١٩٨).

قال أبو الحسن المدائني عن الحسن الجُفْري قال: لما مات سعيد، أخو الحسن، حزن عليه الحسن وقال: «إنه لأعزُّ أهلي عليّ، ولأنْ يكون لي أحبُّ إليّ من أنْ أكون له». فعاتبه بَعضُ إخوانه فقال الحسن: يا عبد الله، قد حزن يعقوب على ابنه يوسف فلم يُعنِّفْه الله عز وجلَّ بذلك.

وقال عن كُلَيْب بن خلف: قال عبد الكريم المازني لعبد الله بن عبد الله بن الأهتم: كيف كان جَزعُك على أهل بيتك؟ فقال: ما ترك حبُّ الغداء والعشاء في قلبي حُزناً على أحد.

وقال يزيد بن عياض بن جُعدُبة: كان عبد الله بن الزبير إذا أصابته مصيبة قال: قد قُتل أبي وإمامي عثمان بن عفان فصبرتُ.

وقال أبو عبد الرحمن العجلاني: أخبرنا إسماعيل بن يسار قال: مات ابنٌ لأرْطاة بن سُهَيَّة المرّي، من غطفان، فأقام على قبْرهِ حَوْلاً يأتيه كلَّ غداةٍ فيقول: يا عمرو، إنْ أقمتُ حتى أمسيَ هل أنت رائح معي؟ ويأتيه عند المساء فيقول مثل ذلك، ثم ينصرف. فلما كان في رأس الحوْل تمثَّل:

[الطويل]

إلى الحَوْلِ ثُمَّ اسْمُ السَّلامِ عَلَيْكُما ... وَمَنْ يَبْكِ حَوْلاً كامِلاً فقَدِ اعْتَذَرْ

ثم انصرف عنه وهو يقول:

[الطويل]

وَقَفْتُ على قَبْرِ ابْنِ لَيْلَى فَلَمْ يَكُنْ ... وُقوفي عَلَيْهِ غَيْرَ مَبْكًى وَمَجْزَعِ
هَلَ أنتَ ابْنَ لَيْلَى إنْ نَظَرْتُكَ رَائِحٌ ... مَعَ القَوْمِ أَوْ غادٍ غداةَ غدٍ مَعي؟
فَلَوْ كانَ لُبِّي شاهِداً ما أصابَني ... شَهيقٌ عَلى قَبْرٍ بِأَخْجارِ أَجْرَعِ
فَما كُنْتُ إلاّ والِهاً بعْدَ زَفْرَةٍ ... عَلى شَجْوِها بَعْدَ الحَنينِ المُرَجَّعِ
مَتى لاَ تَجِدْهُ تَنْصَرِفْ لِطيَاتِها ... مِنَ الأرْضِ أَوْ تَرْجِعْ لإلفٍ فَتَرْتَعِ
عَلى الدَّهْرِ فَاعْتُبْ إنَّهُ غَيْرُ مُعْتِبٍ ... وَفي غَيْرِ مَنْ قَدْ وَارَتِ الأرْضُ فاطْمَعِ

وقال أبو محمد الكعبي: قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه حين اسْتُشهدَ أخوه زَيدُ بن الخطاب باليمامة ـ وحضره رجلٌ من بني عديّ بن كعب، فرجع إلى المدينة، فلما رآه عمر دمعت عينه ثم قال:

أَخَلَّفْتَ زيداً ثاوياً وَأَتَيْتَني

وقال المثنَّى بن عبد الله بن عوف: كان عمرُ بن الخطاب رحمه الله إذا

أصابته مصيبة قال: قد فَقَدتُ زيداً فصبرت. وكان يقول: ما هبَّت الصبا إلاّ وجدتُ نسيمَ زيْد.

وقال أبو الحسن: أخبرني من أثق به عن حكيم من الحكماء قال: مات أخٌ له فجَزِع عليه، فقال له قائلٌ من أصحابه: اصنَع بنفسك ما يصنعهُ بك الدهر.

وَأخبرَ عن أبي إبراهيم قال: قال عَبّاد بن مُخاشن: «استُشهد لي ابنان فجَزِعت عليهما». فقال له رجل: «ثم ماذا؟» قال: «كان جُرحاً فبَرَأ».

وتحدث قال: لما مات معاويةُ دخل على يزيد أشرافُ أهل الشام، فلم يجتمع لأحد منهم تعزيةٌ مع تهنئة إلاّ عطاءُ بن أبي صَيْفيَّ فإنه قال: «يا أمير المؤمنين، أصبحتَ قد رزئت خليفةَ الله، وأُعطيتَ خلافةَ الله. قضى معاوية نحبَه، فغفر الله له ذنبه، وأُعطيتَ بعده الرئاسة، ومُنحتَ السياسة؛ فاحتسِبْ عند اللّهِ عظيمَ الرزيَّة، واشكره على جميل العطيّة».

وقال الأصمعيُّ: لما ماتت «البانوقة»، ابنةُ المهدي، اشتد جزعه عليها فحَجبَ الناسَ، فتلطَّف شَبيبُ بنُ شَيْبَة(١) فدخل عليه فقال: «يا أمير المؤمنين، واللّهِ للَّهُ خيرٌ لها منك، وَلثوابُ الله خيرٌ لك منها. وإنَّ أحقَّ ما صُبرَ عليه ما لم يُقْدَرْ على دفعه». فكان هذا أولَّ ما تسلَّى به، وأَذِنَ للناس.

وقال جُوَيْرِيَة بنُ أسماء: اشتكى ابنٌ لعبد الله بن عمر بن الخطاب، فجَزِع عليه. فلما مات لم يَظهر منه مثل ما كان يَظْهَر في مرضه. فقيل له في ذلك فقال: كان ذلك مني رَحمةً له وَرِقَّة، فلما وقع القضاء رضيت وسلّمتُ.

وقال أبو الحسن: أصبح رجلٌ من بني نهْشل وقد موَّتت له عِدَّة أباعر وشاءٍ، فقال: لئن كانت المنيّة باتت تُطيف بي ثم أصبحتُ، وقد زالت عني إلى شاتي وبعيري، ثم جزعتُ إني لجزوع ثم قال:

[مجزوء الكامل]

المَرْءُ يَسْعى سادِراً حَتّى يُقالَ لَهُ تَعالَهْ

وتحدث أبو الحسن المدائني، أو غيره، عَن أبانَ بن تغلب النحوي قال:

---

(١) شبيب بن شيبة بن عبد الله التميمي المنقري الأهتمي «أبو معمر» بصري يقال له الخطيب لفصاحته أديب الملوك وجليس الفقراء كان شريفاً من الدهاة يفزع إليه أهل بلده في حوائجهم (.../١٧٠ هـ) (الأعلام: ج ٣، ص ١٥٦).

شهدتُ امرأةً من الأعراب وبين يَديها ابنٌ لها رجلٌ وهو يجود بنفسه وعندها جماعة من قومها. فلما قضى وثبت إليه فغَمَّضته وعَصَّبتهُ وترحمَّتْ عليه ثم تنحَّت إلى مجلِسها فقالت: يا أبانُ، ما أحقَّ من أُلْبسَ النعمة وأطيلت به النَّظِرَة ألاّ يعجز عن التوثُّق لنفسِه من قبل حلِّ عُقدَته والحلولِ بعَقْوتِه[1] والحيالة بينه وبين نفسه. قال: فقال رجلٌ من الأعراب ممَّن حضرها: إنا لم نزل نسمع أنما الجزع للنساء، فوأبيكِ لقد كرُم صبرُكِ، وما أشبهْتِ النساء! فقالت: ما ميَّز إنسان بين صبر وجزعٍ إلاّ وجد بينهما منهجين بعيدَيْ التفاوت في حالتيهما. أمَّا الصبرُ فحَسَنُ العلانية، محمود العاقبة. وأما الجزع فغيرُ معوَّضٍ عِوَضاً مع مَأثَمِه. ولو كانا رَجلين في صورة كان الصبرُ أَوْلاهما بالغلبة على الحسْن في الخِلقة والكرم في الطبيعة.

وقال أبان: حدثنا ابن السَّمّاك[2] قال: جلسنا ننتظر جَنازةً لتخرج إذ مرَّ بنا أعرابيّ فوقف علينا فسلَّم ثم قال: إنّ أعظمَ المصيبة مُصابكم برسول الله ﷺ، عظَّم الله أجرَكم، ورحم مَيتكم قال ابنُ السمَّاك: فما يُخيَّل إليَّ أنيِّ سمعتُ كلماتٍ أوجزَ منهنّ: إنه صدَّر كلامه برسول الله ﷺ، وعَزَّانا، وترحم على مَيِّتنا في كلمة واحدة.

وقال أبان: سمعت بعض الأعراب يتلهف على حميم له ثم تنفس الصُّعداء وقال: أيْهات[3]! عَتِب النّاسُ على الدهر فلم يُعْتِب مُسْتعتِباً، ولم يَرْثِ لمُتلهَّف عليه، ثم قال: كل امْرىء منَّا يجري في السوابقِ منْ حتمِ الله عليه.

وتحدث الحِرمازِي رحمه الله عليه قال: كان مروان بن عبد الملك، وأمه عاتكة بنت يزيد بن معاوية، من أَحَبِّ ولد عبد الملك إليه، فتوفي في حياة عبد الملك، وكان أهل العلم بعبد الملك بن مروان يَرَوْنَ أنه لو بقي لَثلَّثَ به في العهد. فكتب إلى عبد الملك بعض عمومتهِ من بني الحكم وهو غائبٌ يُعزِّيه عنه ويسأله كيف كان صبره. فكتب إليه عبد الملك:

[البسيط]

كَـتَبْـتَ تَـسْـأَلُ عَـنْ صَـبْـرِي لِـتَـعْـلَـمَـهُ ‏ ‏ ‏ عَـلَـى الـرَّزيَّـةِ بِـالـمـأْمـولِ مَـرْوانِ

---

(١) العَقْوة: ساحة الدار.

(٢) محمد بن صُبْح «أو صُبَيح» «أبو العباس» ويعرف بابن السَّمَاك: زاهد واعظ مكث في بغداد أيام الرشيد ثم توفي في الكوفة سنة ١٨٣ هـ (الوفيات: ج ٣، ص ٤٢٨).

(٣) أَيْهات: بَعد ذلك (هيهات).

فَقَدْ صَبَرْتُ بِعَوْنِ اللَّهِ مُحْتَسِباً   لِموعِدِ اللَّهِ مِنْ فَوْزٍ وَرِضْوانِ
وَلَوْ حَزِنْتُ وَلَمْ أَصْبِرْ لِفُرْقَتِهِ   ما كانَ في فَقْدِهِ مَنْهاةُ أَحْزاني

وقال الحرمازيّ: كان سببَ موت مروان بن عبد الملك أنه وقع بينه وبين أخيه سليمان كلامٌ فعجَّل عليه سليمان فقال له: «يا بن مُلخِّنٍ[1] أمه»، ففتح فاه ليجيبه وإلى جانبه عمرُ عبد العزيز فأمسك على فيه وردّ كلمته وقال له: «يا أبا عبد الملك، أخوك إمامك ولهُ السِّنُّ عليك». فقال: «يا أبا حفص قتلتني». قال: «وما صنعتُ بك؟» قال: «رددتَ في جوفي أحرَّ من الجمر». ومال لجنبه فمات. وفيه يقول جريرٌ يخاطب أخاه لأمه، يزيد بن عبد الملك:

[الطويل]

أبا خالِدٍ فارَقْتَ مَرْوانَ عَنْ رضًى   وَكانَ يَزِينُ الأَرْضَ أَنْ تَنْزِلا مَعا
فَسيروا فَلا مَروانَ لِلْحَيِّ إنْ شَكَوْا   وَلاَ الرَّكْبِ إنْ أَمْسَوْا مخِفِّينَ جُوَّعا

قال: وبلغني أن عبد الملك أمَر غاسله إذا فَرغَ من جِهازه أن يؤْذِنه، ففعل، فكشف عن وجهه ثم قال: الحمد لله الذي يقتل أولادنا ونحبُّه.

قال أبو الحسن: لما حضرت أيوبَ بن سليمان بن عبد الملك الوفاةُ ـ وكان وليَّ عهد أبيه ـ دخل عليه وهو يجود بنفسه، ومعه عمر بن عبد العزيز وسعيد بن عُقبة ورجاء بن حَيوَة[2] قال: فجعل ينظرُ في وجهه وهو يفوق[3] بنفسه فخنقَته العبرة فردّها ثم نظر إلينا فقال: إنه، والله، ما يملِك العبد أن يسبق إلى قلبه الوجدُ عند المصيبة والناس عند ذلك أخيافٌ[4]، فمنهم من يغلب صَبرُه جَزَعه، فذلك الجَلْدُ الحازم المحتسب، ومنهم من يغلب جزعُه صبرَه، فذلك المغلوبُ الضعيف العقدة، وليست منكم حِشمةٌ، وإني أجد في قلبي لوعةً إن لم أُبردِّها بعَبرةٍ خشيتُ أن تنصدع كبدي كمداً وأسفاً. فقال له عمر بن عبد العزيز: يا أمير المؤمنين، الصبر أَوْلى بك فلا تُحبِطنَّ أجْرَك. قال سعيد بن عقبة: فنظر إليَّ وإلى رَجاء بن حَيْوة نظر مُستغيثٍ يرجو أن نساعده على ما أراد من البكاء.

---

(١) لخَنَ ولخّنه: قال له يا بن اللخناء واللخَن نتن المغابن (مطاوي الجسد).

(٢) رجاء بن حَيوَة بن جرول الكندي «أبو المقدام» واعظ فصيح من الشام لازم عمر بن عبد العزيز أميراً وخليفة (ـ/ ١١٢ هـ) (الأعلام: ج ٣، ص ١٧).

(٣) فاق بنفسه يفوق: جاد.

(٤) الناس أخياف: أي مختلفون.

فأمَّا أنا فكرهت أن آمرَه أو أنهاه، وأمَّا رجاء فقال: يا أميرَ المؤمنين، افعَلْ، فإني لا أرى بأساً ما لم تأتِ الأمرَ المفْرِط. فقد بلغني أن رسول الله ﷺ لما هلَك إبراهيم اشتدّ وَجده عليه فدمعتْ عيناه فقال: تَذمع العينُ ويوجع القلب ولا نقول ما يسخط الربَّ، وإنا بك لمحزونون يا إبراهيم. قال: وأرسل عينيه فبكى حتى ظنَنّا أنَّ نياطَ قلبِهِ قد انصدَع، فقال عمر: يا رجاء، هذا ما صنعتَ بأمير المؤمنين! فقال: دَعه، يا أبا حفص، يَقْض من بُكائِه وَطراً، فإنه لو لم يُخرِج من صدره ما ترى لَخِفْتُ أن يأتيَ عليه، ثم رَقَأتْ عَبْرَتُهُ فدعا بماء فغسلَ وجهه فأقبل علينا وقد قضى الفتى، فأمر بجهازه وخرج يمشي أمام جنازته، فلما دُفِنَ وَحُثيَ عليه التراب وقف قليلاً ينظر إلى قبره ثم قال:

[الطويل]

وَقَفْتُ عَلى قَبْرِ مُقيمٍ بِقَفْرَةٍ مَتاعٌ قَليلٌ مِنْ حَبيبِ مُفارِقِ

ثم قال: السلام عليك يا أيوب.

[السريع]

كُنتَ لَنا أُنساً فَأَوْحَشْتَنا فَالعَيْشُ مِنْ بَعْدِكَ مُرُّ المَذاقْ

ثم قال: أَدنِ، يا غلامُ، دابتي، فركب ثم عطف برأس دابته إلى القبر ثم قال:

[البسيط]

فَإنْ صَبَرْتُ فَلَمْ أَلْفِظْكَ مِن شَبَعٍ وَإنْ جَزِعْتُ فَعِلْقٌ مُنْفِسٌ ذَهَبا

فقال عمر: يا أمير المؤمنين، بل الصبر، فإنه أقربُ إلى الله وسيلة وليس الجزع يحيي منْ مات، وبالله العصمةُ والتوفيق.

وقال الحسن بن عمارة[1] عن عبد الرحمن بن القاسم بن محمد عن أبيه عن عائشة قالت: لما مات عبدُ الله بن أَبي بكر وجَد عليه أبو بكر وجداً شديداً ثم دخل عليَّ فقال: يا عائشة، والله لكأنما أُخِذ بأذن شاة من دارنا فأخرِجتْ، فقلت: الحمد لله الذي عَزَم لك على رُشدك، وربط على قلبك. قالت: ثم جاء بعد ذلك فقال: أيْ بُنَيّة، أتخافين أن تكونوا دفنتم عبد الله وهو حي؟. فقلت: اسْتَعِذْ بالله يا أبه. فقال: أستعيذُ بالله السَّميع العليم من الشَّيطان الرجيم، أيْ بُنَيَّة،

---

(١) الحسن بن عمارة «أبو محمد» كوفي مولًى لبجيلة فقيه محدث قضى للمنصور في بغداد وتوفي سنة ١٥٣ هـ (تاريخ بغداد: ج ٧، ص ٣٤٥).

إنه ليس أَحدٌ إلاّ وله من الشيطان لَمَّةٌ. فرَثَتْهُ عاتكةُ امرأته، وهي ابنةُ زيد بن عَمرو بن نُفَيل[1] فقالت:

[الطويل]

فَآلَيْتُ لا تَنْفَكُّ عَيْنِي سَخِينَةً عَلَيْكَ وَجِلْدِي آخِرَ الدَّهْرِ أغْبَرا

وهذا يتصل بخبر ليس من هذا الباب.

ولما مات عبد الرحمن بن أبي بكر لم تَحْضُره عائشة، فأتت قبره فقالت: يا أخي، لو كنتُ شهدتُ وفاتك لم أَزُرْ قبرك ثم تمثلت:

[الطويل]

وَكُنَّا كَنَدْمَانَيْ جَذِيمَةَ حِقْبَةً مِنَ الدَّهْرِ حَتَّى قيلَ لن نتصدَّعا

فلمَّا تَفَرَّقنا كأنّي وَمالكاً لِطولِ اجْتِماعٍ لم نَبِتْ ليلةً مَعا

وحدثنا ابنُ عائشة، وحدثنيه غيره وحديثه أتمّ أن عائشة حضرت أبا بكر رحمة الله عليه وهو يقضي فقالت: وهذا والله قوله:

[الطويل]

أَماوِيَّ مَا يُغْني الثَّراءُ عَنِ الفتى إذا حَشْرَجَتْ يَوْماً وَضاقَ بِها الصَّدْرُ

فقال: أي بُنيَّة، لا تقولي كذا وقولي: ﴿وجاءَتْ سَكْرَةُ المَوْتِ بالحقِّ﴾[2] وهكذا كان يقرؤها أبو بكر رحمه الله.

قال الهلالي: كان أبو بكر الصدِّيق، رحمة الله عليه، إذا قيل له: مات فلان قال: لا إله إلا الله. وكان عثمان، رحمه الله، إذا قيل له: مات فلانٌ قال: لا إله إلاّ الله.

وقال الهلالي: قيل لمعاوية: مات زياد، فقال: وارَجُلاه، ثم قال:

[الطويل]

افردْتُ سَهْماً في الكِنانَةِ واحِداً سَيُرْمى بِهِ أَوْ يَكْسِرَ السَّهْمَ كاسِرُ

وقال: لما هلَكَ ابنُ معاذ بن جَبَل، كتب إليه رسول الله ﷺ: «من محمدٍ رسولِ الله إلى مُعاذ بن جبَل، سلامٌ عليك، فإني أحمدُ إليك الله الذي لا إله إلاّ هو. أما بعدُ. فإنَّ أنفسَنا وأهلينا وأموالنا ودائع الله جلَّ ذكره وعواريُّه المُسْتَودعة

---

(١) عاتكة بنت زيد بن عمرو بن نفيل القريشية العدوية: شاعرة صحابية من المهاجرات تزوجها عدد من الصحابة (.../٤٠ هـ) (الأعلام: ج ٣، ص ٢٤٢).

(٢) سورة ق: الآية ١٩.

يُمتّعُ بها من يشاء إلى أجلٍ معدود، ويقبِضُها لوقتٍ معلوم، فأمرنا بالشكر إذْ أعطانا، وبالصبر إذِ ابتلانا، فكان ابنك من مواهب الله الهنيَّة، ومن عَواريّه المُستودَعة يُمَتِّع بها من يشاء إلى أجل معدود، ويقبضها لوقت معلوم. وقد مَتَّعك الله به، في غِبطةٍ وسرور، وقَبَضه منك بأجر كبير، فالصلاة والرَّحمة والهُدى، يا مُعاذ إنْ صبرتَ واحتسبتَ، . فلا يُذْهِبَنَّ جزَعُكَ أجرَك فتَنْدمَ على ما فاتك. فإنك لو قَدِمت على ثواب مُصيبتك، قد أرضَيتَ ربَّك وتنَجَّزْتَ موعودَه علمتَ أنَّ المُصيبة قد قصُرتْ عنك. واعلم أنَّ الجزعَ لا يَرُدُّ ميتاً ولا يدفع حُزْناً. فأحْسِنِ العزاء، وتَنجَّزِ الموعود، ولْيُذْهِبْ أسفَك ما هو نازل بك فكأنْ قَدْ».

ولما مات مِسْمعٌ[١] جاءَ شبيبُ بن شَيْبةَ حتى أخذ بالباب الذي فيه ولده وأهله وبنو عمه فقال: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ثم قال:

[الكامل]

بَكُّوا حُذَيفَةَ لَنْ تُرَثُّوا مِثلَهُ ... حَتَّى تَبيدَ قَبائِلٌ لَمْ تُخلَقِ

قال الأصمعي: مرّ رجل على بعض مقابر العرب فإذا هو بشيخٍ قاعدٍ على شفيرِ قبرٍ، وبين يديه فِتْيَةٌ كأنهم الرِّماح يدفِنون رجلاً، والشيخ يقول:

[الرجز]

أحْثُوا عَلى الدَّيْسَمِ[٢] من بَرْد الثَّرى ... قِدْماً أَبى رَبُّكَ إلاَّ ما تَرى

قال: فسألت الشيخ: من الميت؟ فقال: ابني. فقلت: فمن هؤلاء؟ قال: بنوه. وقال أبو جعفر الدمشقي: حدثنا أبو بكر السُّلَمي عن المُعافى بن عِمران[٣] عن شهاب بن خِراش عن عبد الرحمن بن عثمان قال: دخلنا على مُعاذ بن جَبل وهو قاعد عن رأسِ ابنٍ له يجودُ بنفسه، فما ملكنا أنفسَنا أنْ ذَرفَتْ أعيننا وانتحب بعضنا فزَجَره معاذ وقال: مَهْ، فواللّهِ لِعلْمُ اللّهِ برضايَ بهذا أَحَبُّ إليّ من كل غزوةٍ غزوتُها مع رسول الله ﷺ، فإني سمعتُه يقول: مَنْ كان له ابنٌ وكان عليه عزيزاً وبه ضَنيناً، فصبر على مصيبته واحْتَسبه أبدل الله الميّتَ داراً خيراً من داره، وقراراً خيراً من قراره، وأبدَل المُصاب الصلاة والرحمة والمغفرة والرضوان. فما بَرِحْنا حتى قضى الغلام حين أخذ المنادي في النداء لصلاة الظهر، فرُحْنا نُريدُ

---

(١) هو مسمع بن عبد الملك المسمعي.

(٢) الدَّيْسَم: اسم المرثي.

(٣) المعافى بن عمران الأزدي الموصلي «أبو مسعود»: شيخ الجزيرة ثقة حافظ للحديث صنف كتباً في الزهد والأدب والفتن وغير ذلك (ـ/ ١٨٥ هـ) (الأعلام: ج ٧، ص ٢٦٠).

الصلاة فما جئنا إلاّ وقد غسله وحنَّطه وكفَّنهُ ودخل بسريره غير مُنتظرٍ لشهادة الإخوان ولاَ لجَمْع الجيران.

قال: فلما بلَغنا ذلك تلاحَقْناه فقلنا: يغفر اللّهُ لك يا أبا عبد الرحمن، هلاّ انتظرتَنا حتى نَفْرَغَ من صلاتنا ونشهد ابن أخينا. فقال: أُمرنا ألاّ ننتظر بموتانا ساعةً، ماتوا من ليلٍ أو نهار. والإذنُ فيهم من نَعْيِ الجاهلية. قال: فنزل في القبر ونزل معه آخرُ فقلتُ: الثلث يا أبا عبد الرحمن، فقال: إنما يقول الثالث الذين لا يعلمون. فلما سوّى عليه التراب أراد الخروج فناولته يدي لأنتشِطه من القبر فأبى وقال: ما أدَعُ ذلك لفضل قوة، ولكن أكرَه أن يرى الجاهل أنّ ذلك مني جزَع أو استرخاءٌ عند المصيبة ثم أتى مجلسه فدعا بدهنٍ فادّهن وبكحلٍ فاكتحل وبِبُرْدةٍ فلبسها، وَأكثر في يومه ذلك في التبسُّم، ينوي به ما يَنوي، ثم قالَ: «إنَّا لله وَإنا إليه راجعون. في اللّهِ خلفٌ من كل هالك، وَعزاءٌ من كل مصيبة، ودَرك لِكلِّ ما فات. وقال: سمعت أبا القاسم ﷺ يقول: من أُصيب بمصيبة فدعا عليها وَيلاً غضب الله عليه، ومن لطمَ عليها وجهاً احتجَب الله عنه، ومن خَرّق عليها ثوباً خَرّق دينه ومزَّقه وبدَّده».

قال: فلما كان طاعونُ عمواس طُعِنَ معاذ في يده، فدخلنا عليه فرأيناهُ مغمّى عليه، باسطاً يده كأنه يصافح قوماً ويرحِّب بهم. فلما أفاق قلنا له: يا أبا عبد الرحمن، دخلنا عليك وكأنك تصافح قوماً وترحبُ بهم. فقال: أَجَلْ، شكرني ربي بصبري على ابني فأرسل إليّ ملائكة من الكَرُوبيِّينَ[1] يشيعوني إلى قبري.

باب

قال أبو العباس: وقصدنا في وقتنا هذا لذكرِ مراثٍ من أشعار المحدثين لنزل بها من خشونة أشعار القدماء إلى لطف المولَّدين لمشاكلة الدَّهر وملاحةِ القول لنُمضيَ من ذلك شيئاً ثم نعود إلى أمرنا الأول إن شاء الله تعالى من أشعارٍ قديمة ومواعظ حكيمة. وبالله الحَول والقوة.

قال مسلم بن الوليد[2] يرثي الفضل بن سهل ذا الرئاستين[3]:

[الطويل]

---

(١) الكَرُوبيّون مفردها «كروب» وهم سادة الملائكة أو المقربون منهم.

(٢) مسلم بن الوليد «المعروف بصريع الغواني» شاعر غزلي أول من أكثر في البديع في شعره (ـ/ ٢٠٨ هـ) (الأعلام: ج ٧، ص ٢٢٣).

(٣) أبو العباس الفضل بن سهل السَّرخَسي: وزير المأمون الملقب بذي الرئاستين لأنه تقلد الوزارة والسيف وكان أخير الناس بعلم النجامة وكان مصيباً في [illegible]، ثقل أمره على المأمون فدس إليه=

وَهِلْتُ فَلَمْ أُمْتَعْ عَلَيْكَ بِعَبْرَةٍ وَأَكْبَرْتُ أَنْ أَلْقَى بِيَوْمِكَ نَاعِيَا
فَلَمَّا رَأَيْتُ أَنَّهُ لاعِجُ الأَسَى وَأَنْ لَيْسَ إلاَّ الدَّمْعُ لِلْحُزْنِ شَافِيَا
بَعَثْتُ لَكَ الأَنْوَاحَ فَارْتَجَّ بَيْنَهَا نَوَائحُ يَنْدُبْنَ العُلَى وَالمَسَاعِيَا
أَلِلْبَأْسِ أَمْ لِلْجُودِ أَمْ لِمَقَاوِمٍ مِنَ المُلْكِ يَزْحَمْنَ الجِبَالَ الرَّوَاسِيَا
فَلَمْ أَرَ إلاَّ قَبْلَ يَوْمِكَ ضَاحِكاً وَلَمْ أَرَ إلاَّ بَعْدَ يَوْمِكَ بَاكِيَا

وقال إبراهيم بن المهدي(1) يرثي ابناً له أُصيب به بالبصرة وهو واليها. وكان فيما يؤثَرُ عنه يستحق أن يُرثى وأنْ يوصف، وشعره هذا يستحق أن يُبكي القلوب، ويَستنزل الدموعَ لحسنِ لفظه، وصحة معناه، وشرف قائله، وأنه إذا سُمع عُلم أنه عن نية صادقة. قال:

[الطويل]

نَأَى آخِرَ الأَيَّامِ عَنْكَ حَبِيبُ فَلِلْعَيْنِ سَحٌّ دائِمٌ وَغُروبُ
دَعَتْهُ نَوَى لا يُرْتَجى أَوْبَةٌ لَها فَقَلْبُكَ مَسْلوبٌ وَأَنتَ كَئيبُ
يَؤوبُ إلى أَوْطانِهِ كُلُّ غائِبٍ وَأَحْمَدُ في الغُيَّابِ لَيْسَ يَؤوبُ
تَبَدَّلَ داراً غَيْرَ داري وَجيرَةً سِوايَ وَأَحْداثُ الزَّمانِ تَنوبُ
أَقامَ بِها مُسْتَوطِناً غَيْرَ أَنَّهُ عَلى طُولِ أَيَّامِ المُقامِ غَريبُ
تَوَلَّى وَأَبْقَى بَيْنَنا طِيبَ ذِكْرِهِ كَباقي ضِياءِ الشَّمْسِ حينَ تَغيبُ
خَلا أَنَّ ذا يَفْنى وَيَبْلى وَذِكْرُهُ بِقَلْبي على طولِ الزَّمانِ قَشيبُ
كَأَنْ لَمْ يَكُنْ كالدُّرِّ يَلْمَعُ نُورُهُ بِأَصْدافِهِ لَمَّا تَشِنْهُ ثُقوبُ
كَأَنْ لَمْ يَكُنْ كالغصْنِ في مَيْعَةِ الضُّحى سَقاهُ النَّدى فاهْتَزَّ وَهْوَ رَطيبُ
كَأَنْ لَمْ يَكُنْ زَيْنَ الفِناءِ وَمعقِلَ النِّـ ساءِ إذا يومٌ يكونُ عَصيبُ
وَرَيْحانَ قَلْبي كانَ حينَ أَشَمُّهُ وَمُؤْنِسَ قَصْري كانَ حينَ أَغيبُ
قَليلاً مِنَ الأَيَّامِ لَم يُرْوَ ناظِري بِها مِنْهُ حَتَّى أَعْلَقَتْه شعوبُ
كَظِلِّ سَحابٍ لَم يَقُمْ غَيرَ ساعَةٍ إلى أَنْ أَطاحَتْهُ فَطاحَ جَنوبُ
أَوِ الشَّمسِ لَمَّا عَن غَمامٍ تَحَسَّرَتْ مَساءً وَقَدْ وَلَّتْ وَحانَ غُروبُ
كَأَنِّي بِهِ إذْ كُنْتُ في النَّوْمِ حالِمٌ نَفى لَذَّةَ الأَحْلامِ عَنْهُ هُبوب

= من قتله سنة ٢٠٢ هـ (وفيات الأعيان: ج ٤، ص ٤١).

(١) إبراهيم بن محمد المهدي بن عبد الله المنصور «أبو إسحاق» أخو هارون الرشيد ولاه دمشق دعا إلى نفسه عندما اختلف الأمين والمأمون سجنه المأمون ثم عفا عنه (١٦٢ ـ ٢٢٤ هـ) (الأعلام: ج ١، ص ٥٩).

فَلَسْتُ خُطوبَ الدَّهرِ أَحْفِلُ بعدَه ... وَلَوْ كانَ ما مِنْهُ الوليدُ يَشيبُ

وَلا لِيَ شَيْءٌ عَنْهُ ما عِشْتُ لَذَّةٌ ... وَلَوْ نِلْتُ ما هَبَّتْ عليه هُبوبُ

وكانَ نصيبَ العَيْنِ مِنْ كُلِّ لَذَّةٍ ... فَأَضْحى وَما لِلْعَيْنِ مِنْهُ نَصيبُ

وَكانَ وَقَدْ آزى الرجالَ بِعَقْلِهِ ... فَإنْ قالَ قَوْلاً قالَ وَهْوَ مُصيبُ

بِما تَتَهاداهُ الرُّكابُ لِحُسْنِهِ ... وَيَفْحَمُ مِنْهُ الكَهْلُ وَهْوَ أريبُ

وَكانت يَدي مَلأى بِهِ ثُمَّ أَصْبَحَتْ ... بِعَذْلِ إلهي وهْي مِنْهُ سَليبُ

وَكُنْتُ بِهِ في النَّائِباتِ إذا عَرَتْ ... وَظَهْرِيَ مُمْتَدُّ القَناةِ صَليبُ

بِحالِ الَّذي يَجْتاحُهُ السَّيْلُ بَغْتَةً ... فَيَفْتَقِدُ الأذْنَيْنِ وَهْوَ حَريبُ

جَمَعْتُ أَطِبَّاءَ العِراقِ فَلَمْ يُصِبْ ... دَواءَكَ مِنْهُمْ في البِلادِ طَبيبُ

وَلَم يَمْلِكِ الآسون دَفْعاً لِمُهْجَةٍ ... عَلَيها لإشْراكِ المنونِ رَقيبُ

سَأَبكيكَ ما أَبْقَتْ دُموعيَ وَالبُكا ... بِعَيْنَيَّ ماءً يا بُنَيَّ يُجيبُ

وَما لاحَ نَجْمٌ أَوْ تَغَنَّتْ حَمامَةٌ ... أوِ اخْضَرَّ في فَرْعِ الأَراكِ قَضيبُ

وَأُضْمِرُ إنْ أنْفَدْتُ دَمعيَ لَوْعَةً ... عَلَيْكَ لَها تَحْتَ الضُّلوعِ وَجيبُ

حَياتيَ ما كانَتْ حَياتي فَإِنْ أَمُتْ ... ثَوَيْتُ وَفي قَلْبي عَلَيْكَ نُدوبُ

يَعِزُّ عَلِيَّ أَنْ تَنالَكَ ذَرَّةٌ ... يَمَسُّكَ مِنْها في الممَرِّ دَبيبُ

وما زالَ إشْفاقي عَلَيْكَ عَشِيَّةً ... حواكَ بِها بَعْدَ النَّعيمِ قَليبُ

وَما زالَ إشْفاقي عَلَيْكَ عَشِيَّةً ... وِسادُكَ فيها جَنْدَلٌ وَجَبوبُ

فَما لِيَ إلاَّ المَوتَ بعدَكَ راحةٌ ... وَلَيْسَ لَنا في العَيشِ بعدَكَ طِيبُ

قَصَمْتَ جَناحي بعدَما هَدَّ مَنْكِبي ... أَخوكَ، وَرأسي قَدْ عَلاهُ مَشيبُ

فَأَصْبحتُ في الهُلاكِ إلاَّ حُشاشَةً ... تُذابُ بِنارِ الشَّوْقِ فَهيَ تَذوبُ

تَوَلَّيْتُما في حِجَّةٍ فَتَرَكْتُما ... صَدًى يَتَولّى تارَةً وَيَثوبُ

وَلا رُزْءَ إلاَّ دونَ رُزْئِكَ رُزْؤُهُ ... وَلَوْ فُتِّتَتْ حُزْناً عَلَيْكَ قُلوبُ

وَإنّي وَإنْ قُدِّمْتَ قَبْلي لَعالِمٌ ... بِأَنّي وَإنْ أَبْطَأْتُ مِنْكَ قَريبُ

وَإنَّ صَباحاً نَلْتَقي في مَسائِهِ ... صَباحٌ إلى قَلْبي الغَداةَ حَبيبُ

وقال إسماعيل بن القاسم، أبو العتاهية[1] يرثي أخاً له، يقال له

---

[1] إسماعيل بن القاسم بن سويد العيني العنزي «أبو العتاهية» شاعر مكثر لا يحاط بشعره أكثره في الزهد والحكمة والأمثال وكان جيد القول في المديح ولد في عين التمر قرب الكوفة وتوفي في بغداد (١٣٠ ـ ٢١١ هـ) (الأعلام: ج ١، ص ٣٢١).

عليُّ بن ثابت وكان عليٌّ ناسكاً فاضلاً أديباً شاعراً:

[الوافر]

أَلا مَـنْ لـي بِـأُنْسِـكَ أَيْ أُخَـيّـا ... وَمَـنْ لـيَ أَنْ أَبُـثَّـكَ مـا لَـدَيّـا
طَـوَتْـكَ خـطـوبُ دَهْـرِكَ بَـعْـدَ نَـشْـرٍ ... كَـذاكَ خُـطـوبُـهُ نَـشْـراً وَطَـيّـا
وَلَـوْ نَـشَـرتْ قُـواكَ لـيَ الـمـنـايـا ... شَـكـوتُ إليـكَ مـا صَـنـعـتْ إلـيّـا
بـكـيْـتُـكَ أَيْ أُخَـيَّ بِـدَرِّ عَـيْـنـي ... فَـلَـمْ يُـغْـنِ الـبُـكـاءُ عَـلَـيْـكَ شَـيّـا
وَكـانـتْ فـي حـيـاتـكَ لـي عِـظـاتٌ ... وَأَنْـتَ الـيَـوْمَ أَوْعَـظُ مِـنْـكَ حَـيّـا

قال: أخذ هذا المعنى مما يؤثَر عن بعض ملوك العجم أنه احتُضر فحضره من يحضرُ الملوكَ من الحكماء حتى قضى. فقال ذلك الحكيم: كان الملك أمسِ أنطقَ منه اليوم، وهو اليوم أوعظ منه أمس.

وقال أبو العتاهية أيضاً:

[الخفيف]

يـا عَـلـيَّ بْـنَ ثـابِـتٍ أَيْـنَ أَنْـتـا ... أَنْـتَ بَـيْـنَ الـقُـبـورِ حَـيْـثُ دُفِـنْـتـا
يـا عَـلـيَّ بْـنَ ثـابِـتٍ بـانَ مِـنِّـي ... صـاحِـبٌ جـلَّ فَـقْـدُهُ يَـوْمَ بِـنْـتـا
قَـدْ لَـعَـمْـرِي حَـكَـيْـتَ لي غُـصَـصَ الـمَوْ ... تِ وَحَـرَّكْـتَـنـي لَـهـا وَسَـكَـنْـتـا

أخذ هذا المعنى من قول بعض الحكماء وحضر ميتاً، فارتفع البكاء عليه حينَ قضى، فقال الحكيم: حرَّكنا بسكونه.

وقال فيه أيضاً:

[مجزوء الخفيف]

صـاحِـبٌ كـانَ لـي هَـلَـكْ ... وَالـسَّـبـيـلُ الَّـذي سَـلَـكْ
يَـا عَـلـيَّ بْـنَ ثـابِـتٍ ... غَـفَـرَ الـلَّـهُ لـي وَلَـكْ
كُـلُّ حَـيٍّ مُـمَـلَّـكٍ ... سَـوْفَ يَـفْـنـى وَمَـا مَـلَـكْ

قال أبو العباس: وأنشدني أبو محمد التَّوَّزي لرجل من قيس يرثي ابنه:

[الطويل].

أَجـارَتَـنـا لاَ تَـجْـزَعـي وَأَنـيـبـي ... أَتـاني مِنَ الـمَـوْتِ الـمُـطِـلُّ نَـصـيـبـي
بُـنـيَّ عَـلـى عَـيْـنـي وَقَـلْـبـي مَـكـانُـهُ ... ثَـوى بَـيْـنَ أَحْـجـارٍ وَبَـطْـنِ جَـبـوبِ
عَـجِـبْـتُ لإسـراعِ الـمَـنِـيَّـةِ نَـحْـوَهُ ... وَمـا كـانَ لَـوْ مُـلِّـيـتُـهُ بِـعَـجـيـبِ
وَمـا هَـدَّ رُكْـنـي أَنْ سُـلِـبْـتُ جَـمـالَـهُ ... عَـلـى أَنَّـنـي أَرْثـي لِـكُـلِّ سَـلـيـبِ

صَبَرْتُ عَلى خَيْرِ الفُتُوِّ[1] رُزْئتهُ / وَلَوْلا اتِّقاءُ اللَّهِ طالَ نَحيبي
وَما جَزَعي مِنْ نازِلٍ عَمَّ فَجْعُهُ / وَمِنْ وِرْدِ آباري وَقَصْدِ شَعيبي
لَعَمْري لَقَدْ دافَعْتُ مَوْتَ مُحَمَّدٍ / لَوْ أنَّ المَنايا تَرْعَوي لِطَبيبِ
وَكانَ كَرَيْحانِ العَروسِ بَقاؤهُ / ذَوى بَعْدَ إشْراقِ الغُصونِ وَطيبِ
فَيا حزنا نُغِّصْتُ قُرْبَ مُحَمَّدٍ / وَأيَّ فَتى نُغِّصْتُ يَوْمَ رُكوبي
أغَرُّ طَويلُ السَّاعِدَيْنِ مُشَيَّعٌ / كَسَيْفِ المحامي هُزَّ غَيْرَ كَذوبِ
دَعَتْهُ المَنايا فاسْتَجابَ لِصَوْتِها / فَلِلَّهِ مِنْ داعٍ دَعا وَمُجيبِ
فَأصْبَحْتُ أُبْدي لِلعَدوِّ جَلادَةً / وَيا لَكَ مِنْ قَلْبٍ هناكَ كَئيبِ
يُذَكِّرُني نَوْحُ الحَمام فِراقَهُ / وَإرْنانُ أبْكارِ النِّساءِ وَثيبِ
وَلي كُلَّ يَوْمٍ عَبْرَةٌ لا أُفيضُها / لأحظى بِصَبْرٍ أوْ بِحَطِّ ذُنوبِ
أظَلُّ لأحْداثِ المَنونِ مُفَزَّعاً / كَأنَّ فُؤادي في جَناحِ طَلُوبِ
إذا شِئْتُ راعَتْني مُقيماً وَظاعِناً / مَصارِعُ شُبَّانٍ لَدَيَّ وَشِيبِ
غَدا سَلَفٌ مِنَّا وَهَجَّرَ رائِحٌ / عَلى أثَرِ الغادينَ قَوْدَ جَنيبِ
وَما نَحْنُ إلاَّ كالخَليطِ الَّذي مَضى / فَرائِسَ دَهْرٍ مُخْطِىءٍ وَمُصيبِ
نُؤَمِّلُ عَيْشاً في حياةٍ ذَميمَةٍ / أضَرَّتْ بِأبْدانٍ لَنا وَقُلوبِ
وَما خَيْرُ عَيْشٍ لا يَزالُ مُفَزِّعاً / بِفَوتِ نَعيمٍ أوْ بِمَوْتِ حَبيبِ

قال أبو العباس: حدثنا المغيرة بنُ محمد المهَلبي عن الزبير بن بكار الزبيري عن سليمان بن العباس السَّعدي قال: جاء عبد الله بن عمر العَبْليّ[2] إلى «سويقة»[3] وهو طريد بني العباس وكان ذلك بزمان خروج ملك بني أمية وانتقاله إلى بني العباس، قاصداً لعبد الله وحسن، ابنَيْ حَسَن، فاستنشده عبد الله من شعره فأنشدهم فقالوا: نريد من شعرك ما رثيت به قومك، وما كان مِنْ أمركم وأمر القوم فأنشدهم قوله:

[المتقارب]

---

(١) الفُتُوّ: جمع فتى.

(٢) عبد الله بن عمر بن عبد الله بن عدي «أبو عدي» بن عبد شمس ينسب إلى جدته «عبلة بنت عبد الله التميمية» ولاه محمد ذو النفس الزكية «الطائف» وهرب إلى اليمن بعد مقتل محمد سنة ١٤٥ هـ (الأعلام: ج ٤، ص ١٠٩).

(٣) سويقة: موضع قرب المدينة يسكنه آل علي بن أبي طالب رضي الله عنه و (مواضع كثيرة في البلاد) (معجم البلدان: ج ٣، ص ٢٨٦).

تَــقُــولُ أُمــامَــةُ لَــمَّــا رَأَتْ نُشـوزي عَنِ المَـنْزِلِ المُـنْفِسِ
وَقِلَّـةَ نَـومي عَلـى مَضْجَعي لَـدى هَجْعَةِ الأَعْيُنِ النُّعَّسِ:
أَبـي، ما عَراكَ؟ فَقُلْتُ: الهُمو مُ عَـرَيْـنَ أَبـاكِ فَـلا تُـبْـلِـسـي
عَـرَيْـنَ أَبـاكِ فَـحَـبَّـسْـنَـهُ مِنَ الطَّرْدِ في شَرِّ ما مَحْبَسِ
لِفَقْدِ العَشيرَةِ إِذْ نالَها سِهامٌ مِنَ الحَدَثِ المُوئِسِ
رَمَـتْـهـا المَنونُ بِـلا نُـصَّـلٍ وَلاَ طـائِـشـاتٍ وَلاَ نُـكَّـسِ
بِأَسْهُمِها الخالِساتِ النُّفوسَ متى ما تُصِبْ مُهْجَةً تَخْلِسِ
فَصَرْعاهُمُ في نَواحي البِلا دِ مُلْقَى بِأَرْضٍ وَلَمْ يُرْمَسِ
تَـقِـيٌّ أُصـيـبَ وَأَثْـوابُـهُ مِنَ العارِ وَالعَيْبِ لَمْ تَدْنَسِ
وَآخَرُ قَدْ رُسَّ في حُفْرَةٍ وَآخَرُ طارَ فَلَمْ يُحْسَسِ
فَكَمْ مِنْ كَوابٍ بَواكي العُيو نِ حُزْناً وَمِنْ صِبْيَةٍ بُؤَّسِ
إِذا ما ذَكَرْنَهُمُ لَمْ تَنَمْ صِباحُ الوُجوهِ وَلَمْ تَجْلِسِ
يُرَجِّعْنَ مِثْلَ بُكاءِ الحَما مِ في مَأْتَمٍ قَلِقِ المَجْلِسِ
فَذاكَ الَّذي غالَني فاصْمُتي وَلاَ تَسْأَلِيني وَتَسْتَنْجِسي
وَفي ذاكَ أَشْياءُ قَدْ ضِفْنَني وَلَسْتُ لَهُنَّ بِمُسْتَخْلِسِ
أَفاضَ المَدامِعَ قَتْلَى كُدًى[1] وَقَتْلَى بِكُثْوَةَ لَمْ تُرْمَسِ
وَبِالزَّابِيَيْنِ[2] نُفوسٌ ثَوَتْ وَقَتْلَى بِنَهْرِ أَبي فُطْرُسِ
أُولئِكَ قَوْمٌ أَذاعَتْ بِهِمْ حَوادِثُ مِنْ زَمَنٍ مُتْعِسِ
فَذَلَّتْ قَناتي لِمَنْ رامَها وَأَنْزَلَتِ الرَّغْمَ بِالمَعْطَسِ

قال: فلما أتى عليها استبكى محمدَ بن عبد الله بن حسن، فنظر عبد الله إلى أخيه حسن فقال: مالك تنظر إلي! أما والله، لو كان ابنك على غير ما ترى لكان خيراً لنا ولك. فأقبل محمدٌ على عمّه بإظهار الشفقة على بني العباس ويقول: إنهم ليسوا كبني أمية لقرب بني العباس من رسول الله ﷺ، وقام الحسن إلى منزله فبعث إلى العَبْلي بخمسين ديناراً، وأمرَ له عبدُ الله، ومحمدٌ وإبراهيمُ ابناه، كل واحد بخمسين ديناراً. وكانت هند بنت أبي عُبيدة بن عبد الله بنِ زَمْعة مُقتفيَة بالعبليّ.

(١) كُدَى: موضع بمكة وفيه اختلاف (معجم البلدان: ج ٤، ص ٤٤١).
(٢) الزابيان وفطرس: نهران الزابيان قرب إربل والثاني قرب الرملة (معجم البلدان: ج ٣، ص ١٢٥) و (ج ٤، ص ٢٦٧).

وهند المذكورة هي امرأة عبد الله بن حسن، ومحمد وإبراهيم ولداها.

فقال العبليّ:

[الوافر]

أَقـامَ ثَـوِيُّ بِـنْـتِ أَبـي عُـبَـيْـدِ ... بِـخَـيْـرِ مَـنـازِلِ الـجـيـرانِ جـارا

أَتـاهُـمْ خـائِـفـاً وَجِـلاً طَـرِيـداً ... فَـصـادَفَ خَـيْـرَ دُورِ الـنَّـاسِ دارا

إذَا ذَمَّ الـجِـوارَ نَـزِيـلُ قَـوْمٍ ... شَـكَـرْتُـهُـمُ وَلَـمْ أَذْمُـمْ جِـوارا

فقالت هندٌ لعبد الله وابنيها محمد وإبراهيم: والله ما مدحكم بأفضل ممّا مدحني به فلْتُعْطُنَّهُ عني مثل ما أعطاه أحدُكم. فأعطَوْه عنها خمسين ديناراً.

فقال الزُّبيرُ: إنما يُنسب عَبْليّاً مَنْ كان مِنْ ولد أُمَيّة الأصغر، وليس عبد الله هذا من ولده، إنما أمية عمه.

يقال: فلان يقتفي بفلان إذا كان يُؤثره، والقَفِيَّة: الطعام يؤثِر به الرجلُ واحداً يُقدِّمه. ويقال للرجل يُختار ويُقصد بالبر: ألقيتُ قفيتي عليك.

وقال أحد الأعراب الفصحاء:

[الطويل]

لَـعَـمْـري لَـقَـدْ نـادى بِـأَرْفَـعِ صَـوْتِـهِ ... نَـعِـيُّ حُـيَـيٍّ أَنَّ سَـيِّـدَكُـمْ هَـوى

أَجَـلْ صـادِقـاً وَالـقـائِـلُ الـفـاعِـلُ الَّـذي ... إذا قـالَ قَـولاً أَنْـبَـطَ الـمـاءَ فـي الـثَّـرى

فَـتـى قَـبَـلٌ لـم تَـعْـنُـسِ الـسِّـنُّ وَجْـهَـهُ ... سِوى شُهُبٍ في الرَّأْسِ كالفَجْرِ في الدُّجى

أَشـارَتْ لَـهُ الـحَـرْبُ الـعَـوانُ فَـجـاءَهـا ... يُـقَـعْـقِـعُ بِـالأَقْـرابِ أَوَّلَ مَـنْ أَتـى

وَلَـمْ يَـجْـنِـهـا لَـكِـنْ جَـنـاهـا وَلِـيُّـهُ ... فَـآدى وَآسـاهُ فَـكـانَ كَـمَـنْ جَـنـى

وقال أيضاً يرثيه:

[الوافر]

أَلا لَـهْـفَ الأَرامِـلِ وَالـيَـتـامـى ... وَلَـهْـفَ الـبـاكِـيـاتِ عـلـى حُـيَـيٍّ

لَـعَـمْـرُكَ مـا خَـشِـيـتُ عَـلَـى حُـيَـيٍّ ... مَـتـالِـفَ بَـيْـنَ مَـجْـدٍ وَالـسُّـلَـيِّ

وَلـكِـنِّـي خَـشِـيـتُ عَـلَـى حُـيَـيٍّ ... جَـرِيـرَةَ رُمْـحِـهِ فـي كُـلِّ حَـيِّ

وقالت امرأة من كِندة ترثي إخوتها:

[الطويل]

أَبَـوْا أَنْ يَـفِـرُّوا وَالـقَـنـا في نُـحـورِهِـم ... فَـمـاتـوا وَأَطْـرافُ الـقَـنـا تَـقْـطُـرُ الـدِّمـا

وَلَـوْ أَنَّـهُـمْ فَـرُّوا لَـكـانـوا أَعِـزَّةً ... وَلَكِـنْ رأَوْا صَـبْـراً عـلـى الـمَـوْتِ أَكْـرَمـا

هَوَت أُمُّهُمْ ماذا بِهِمْ يَوْمَ صُرِّعوا ... بِجَيْشانَ مِنْ أَسْبابِ مَجْدٍ تَصَرَّما

وقال رجل من الخوارج يرثي عدداً منهم[1]:

[الوافر]

أَلا في اللهِ لا في النَّاسِ سالَتْ ... بِداوودٍ وَإِخْوَتِهِ الجُذُوعُ
مَضَوْا قَتْلاً وَتَشْريداً وَصَلْباً ... تَحُومُ عَلَيهِمُ طَيْرٌ وُقُوعُ
إذا ما اللَّيْلُ أَظْلَمَ كابَدُوهُ ... فَيُسْفِرُ عَنْهُمُ وَهُمُ رُكُوعُ
أَطارَ الخَوْفُ نَوْمَهُمُ فَقاموا ... وَأَهْلُ الأَمْنِ في الدُّنيا هُجُوعُ

وقالت الكنديّة:

[البسيط]

لا تُخْبِروا النَّاسَ إلاَّ أَنَّ سَيِّدَكُمْ ... أَسْلَمْتُمُوهُ وَلَوْ قاتَلْتُمُ امْتَنَعا
أَعْني فَتًى لَمْ تَهُبَّ الرِّيحُ رائِحَةً ... يَوْماً مِنَ الدَّهْرِ إلاَّ ضَرَّ أَوْ نَفَعا
الواهِبَ الأَلْفَ لا يَبْغي لَها ثَمَناً ... إلاَّ مِنَ اللهِ وَالحَمْدَ الَّذي صَنَعا

وقال أبو عبد الرحمن العُتْبيّ[2]:

[البسيط]

قَدْ كُنْتُ أَبْكي على مَنْ فاتَ مِنْ سَلَفي ... وَأَهْلُ وُدِّي جَميعٌ غَيْرُ أَشْتاتِ
وَالآنَ إذْ فَرَّقَتْ بَيْني وَبَيْنَهُمُ ... نَوًى بَكَيْتُ على أهْلِ المَوَدَّاتِ
وَما بَقاءُ امْرِئٍ كانَتْ مَدامِعُهُ ... مَقْسومَةً بَيْنَ أَحْياءٍ وَأَمْواتِ

وكان أبو عبد الرحمن وسيطاً في قُرَيش، من ولد عتبةَ بن أبي سفيان. وكان مَعْدِناً من معادن العلم بالأخبار ـ جاهليّها وإسلاميّها ـ وكان بالإسلامي أخبر. وتوالى له بنون مَوتاً. ورثاهم مراثي كثيرة نذكر بعضها مع ما في غيرهم من المراثي إن شاء الله.

فمن ذلك قوله:

[الكامل]

أَضْحَتْ بِخَدِّي لِلدُّموعِ رُسُومُ ... أَسَفاً عَلَيْكَ وَفي الفُؤادِ كُلُومُ
وَالصَّبْرُ يُحْمَدُ في المصائِبِ كُلِّها ... إلاّ عَلَيْكَ فَإِنَّهُ مَذْمُومُ

---

(١) هو عيسى بن فاتك الخَبَطِيّ.

(٢) محمد بن عبيد الله بن عمرو «أبو عبد الرحمن الأمويّ» من بني عتبة ابن أبي سفيان: أديب كثير الأخبار حسن الشعر من أهل البصرة ووفاته فيها (.../٢٢٨ هـ) (الأعلام: ج ٦، ص ٢٥٨).

يـا واحـداً مِـنْ سِـتَّـةٍ أَسْـكَـنْـتُـهُـمْ حُـفَـراً تُـقَـسَّـمُ بَـيْـنَـهُـمْ وَرُجُـومُ
لَـوْلا مَـعـالِـمُ رُوسِـهِـنَّ لـمـا اهْـتَـدى لِـحَـمـيـمـهِ بَـيْـنَ الـقُـبـورِ حَـمـيـمُ

وقال أيضاً:

[المنسرح]

كَـلَّ لِـسـانـي عَـنْ وَصْـفِ مـا أَجِـدُ وَذُقْـتُ ثُـكْـلاً مـا ذاقَـهُ أَحَـدُ
وَأُوطِـنَـتْ حُـرْقَـةً حَـشـايَ فَـقَـدْ ذابَ عَـلَـيْـهـا الـفُـؤادُ وَالـكَـبِـدُ
إنْ أَزْمَـعَـتْ بـالْـعَـزاءِ لَـجَّ بِـهـا الـشَّـ ـوْقُ فَـنـيـرانُ حـرِّهـا تَـقِـدُ
مـا عـالَـجَ الـحـزنَ وَالـحَـرارَةَ فـي الـ ـأَحْـشَـاءِ مَـنْ لَـمْ يَـمُـتْ لَـهُ وَلَـدُ
فُـجِـعْـتُ بـابْـنَـيـنِ لَـيْـسَ بَـيْـنَـهُـمـا إلاّ لَـيـالٍ لَـيْـسَـتْ لَـهـا عَـدَدُ
فَـالـنَّـفْـسُ تُـطْـوى عـلـى أَحَـرَّ مِـنَ الـ ـجَـمْـرِ وَأَدْنـى أَرْجـائِـهـا الـكَـمَـدُ
وَكُـلُّ حُـزْنٍ يَـبْـلَـى عـلـى قِـدَمِ الـدَّ هْـرِ وَحُـزْنـي يُـجِـدُّهُ الأَبَـدُ

ويروى عن الحسن البصري أنه قال: قدم علينا بِشرُ بن مَرْوان[١] وهو أشرف الناس، وأجملُ الناس، وأشبُّ الناس، ابن خليفة وأخو خليفة، فلبث خمسة وأربعين يوماً ثم طُعنَ في نَيْطِه فمات. فخُرِج به إلى قبره والناس معه. وجاء سودانٌ ثلاثة يحملون أسودَ، فدُفِن هذا وهذا. وخرجتُ إلى الصحراء ثم رجعتُ وقد انصُرف عنهما، فلمْ أعرفْ قبر هذا من قبر هذا.

قال أبو العباس: حدثني هارون بن محمد بن عبد الملك المعروف بالزيّات ـ وحدثني بهذا الحديث الذي أذكره غيرُه أيضاً ـ أنّ محمد بن عبد الملك[٢] كانت له جارية وكان بها ضنيناً، وكان له منها ابنٌ يقال له عمر وهو باق الآن، فماتت وابنها هذا صغير. وسمعتُ أبا أيوب سليمانَ بن وهب[٣] يتحدث بقطعة

(١) بشر بن مروان بن الحكم: ولي إمرة العراقين في عهد أخيه عبد الملك وتوفي في البصرة (ـ/ ٧٥ هـ) (الأعلام: ج ٢، ص ٥٥).

(٢) محمد بن عبد الملك بن أبان بن حمزة «أبو جعفر» المعروف بابن الزيات وزير المعتصم والواثق العباسيين وعالم باللغة والأدب من بلغاء الكتاب والشعراء عمل على تولية ابن الواثق وحرمان المتوكل فنكبه المتوكل وعذبه حتى الموت وكان من العقلاء الدهاة (١٧٣ ـ ٢٢٣ هـ) (الأعلام: ج ٦، ص ٢٤٨).

(٣) سليمان بن وهب بن سعيد بن عمرو بن حصين بن قيس بن فنال: من أسرة كلها كتاب للخلفاء الأمويين والعباسيين كتب سليمان للمأمون ثم ولي الوزارة للمهتدي بالله والمعتمد على الله مات في حبس الموفق بالله (ـ/ ٢٧٢ هـ) (وفيات الأعيان: ج ٢، ص ٤١٥).

من خبر محمد بن عبد الملك في ضَنّه بابنه هذا. فرثاها ببيتين هما جاريان على ألسنِ الناس مشهوران:

[الطويل]

يَقولُ ليَ الخِلانُ لَوْ زُرْتَ قَبرَها فَقُلْتُ: وَهَلْ غَيْرُ الفُؤادِ لَها قَبْرُ؟
عَلى حالِ لَمْ أُحْدِثْ فَأَجْهَلَ عَهْدَها وَلَمْ أَبْلُغِ السِّنَّ الَّتي مَعَها الصَّبْرُ

ورثاها فقال شعراً يَقرُب من القلب، ويُضطر إلى تصديقه، ويُرتاح لعهد قائله، ويُرحم لشكوى بثّه وهو:

[الطويل]

أَلا مَنْ رأَى الطِّفْلَ المُفارِقَ أُمَّهُ بُعَيْدَ الكَرَى عَيْناهُ تَنْسَكِبانِ؟
رَأَى كُلَّ أُمٍّ وَابْنَها غَيْرَ أُمِّهِ يَبيتانِ تَحْتَ اللَّيْلِ يَنْتَجِيانِ
يَرِنُّ بِصَوْتٍ فَضَّ قَلْبي نَشيجُهُ وَسَحُّ دُمُوعٍ ثَرَّةِ الهَمَلانِ
وَباتَ وَحيداً في الفِراشِ تَحُثُّهُ بَلابِلُ قَلْبٍ دائِمِ الخَفَقانِ
أَلا إِنَّ سَجْلاً واحِداً إِنْ هَرَقْتُهُ مِنَ الدَّمْعِ أَوْ سَجْلَيْنِ قَدْ شَفَياني
فَلا تَلْحَياني إِنْ بَكَيْتُ فَإِنَّما أُداوي بِهذا الدَّمْعِ ما تَرَيانِ
وَإِنَّ مَكاناً في الثَّرى خُطَّ لَحْدُهُ لِمَنْ كانَ مِنْ قَلْبي بِكُلِّ مَكانِ
أَحَقُّ مَكانٍ بالزِّيارَةِ وَالهَوى فَهَلْ أَنتُما إِنْ عُجْتُ مُنْتَظِرانِ؟
فَهَبْني عَزَمْتُ الصَّبْرَ عَنْها لأَنَّني جَليدٌ، فَمَنْ بالصَّبْرِ لابْنِ ثَمانِ؟
ضَعيفُ القُوى لا يَطْلُبُ الأَجْرَ حِسْبَةً وَلاَ يَأْتَسي بالنّاسِ في الحَدَثانِ
أَلاَ مَنْ أُمَنّيهِ المُنى وَأُعِدُّهُ لِعَثْرَةِ أَيّامٍ وَصَرْفِ زَمانِ؟
أَلاَ مَنْ إذا ما جِئْتُ أَكْرَمَ مَجْلِسي وَإِنْ غِبْتُ عَنْهُ حاطَني وَكَفاني؟
فَلَمْ أَرَ كَالأَيّامِ كَيْفَ تُصيبُني وَلا مِثْلَ هذا الدَّهْرِ كَيْفَ رَماني
وَلاَ مِثْلَ أَيّامٍ فُجِعْتُ بِفَقْدِها وَلا مِثْلَ يَوْمٍ بَعْدَ ذاكَ دَهاني
أَعَيْنَيَّ إِلاّ تُسْعِدا اليَوْمَ عَبْرَتي فَبِئْسَ إِذَنْ ما في غَدٍ تَعِداني
أَعَيْنَيَّ إِنْ أَنْعَ السُّرورَ وَأَهْلَهُ وَعَهْدَ الصِّبا عِنْدي فَقَدْ نَعَياني
أَعَيْنَيَّ إِنْ أَبْكِ البَشاشَةَ وَالصِّبا فَقَدْ آذَنا مِنّي وَقَدْ بَكَياني
أَلا إِنَّ بَيْتاً لَمْ أَزُرْهُ لَشَدَّ ما تَلَبَّسَ مِنْ قَلْبي بِهِ وَعَناني
أَلا إِنَّ بَيْتاً لَمْ أَزُرْهُ لَعَزَّ ما تَضَمَّنَ مِنْهُ في الثَّرى الكَفَنانِ

وقال رجل من الأنصار يذكر امرأة كانت له، وكانت به برّة، وله حافظة إذا غاب، وسارّة إذا حضر، فأصيب بها:

[الطويل]

أَلاَ ما لِـهـذا البَيْتِ بِذي أَهْلِ ... تَنَكَّرْتَ ما قَدْ كُنْتَ تَأْلَفُ مِنْ قَبْلي
أَيا جارَتا لاَ تَبْعَدي خَيْرَ جارَةٍ ... لِبَعْلٍ وَأَخْناهُ على وَلَدٍ طِفْلِ
فَلَوْ أَنَّني كُنْتُ العَليلَ لأَيْقَظَتْ ... بَنِيها وَما نامَتْ وَلاَ فَعَلَتْ فِعْلي

وقال رجل من بني شَيْبان[1] يرثي مَعْنِ بن زائدة[2]:

[الطويل]

أَحينَ ثَوى مَعْنٌ ثَوى الجُودُ وَالنَّدى ... وَأَصْبَحَ عِرْنينُ المَكارِمِ أَجْدَعا
فَيا قَبْرَ مَعْنٍ أَنْتَ آخِرُ خُطَّةٍ ... مِنَ الأَرْضِ خُطَّتِ لِلْمَكارِمِ مَضْجَعا
وَيا قَبْرَ مَعْنٍ كَيْفَ وارَيْتَ جُودَهُ ... وَقَدْ كانَ مِنْهُ البَرُّ وَالبَحْرُ مُتْرَعا
بَلى قَدْ وَسِعْتَ الجُودَ وَالجُودُ مَيِّتٌ ... وَلَوْ كانَ حَيّاً ضِقْتَ حَتّى تَصَدَّعا
فَتًى عِيشَ في مَعْرُوفِهِ بَعْدَ مَوْتِهِ ... كَما عادَ غَيْثٌ بَعْدَ جَدواهُ مَرْتَعا

وقال عبد الصمد بن المعَذَّل[3] يرثي سعيد بن سَلْم. وشهرةُ أفعال سعيدٍ وبُعْد صيته في عقله وأدبه، وجاهه وقدره، وكثرة معروفه وتَمكُّنِه من الخلفاء، تُغنية عن ذكر شيء من أفعاله:

[البسيط]

ما لِلسَّماءِ عَلَيْهِ لَيْسَ تَنفَطِرُ ... وَلِلْكَواكِبِ لا تَهْوي فَتَنْتَثِرُ؟
وَلِلْبِلادِ أَلا تَسْمُو زَلازِلُها ... وَالرّاسِياتِ أَلا تَرْدى فَتَنْقَعِرُ؟
إِنَّ النَّدى وَأَبا عَمْرٍو يَضُمُّهُما ... قَبْرٌ بِبَغْدادَ يُسْتَسْقى بِهِ المَطَرُ
لِلَّهِ حَزْمٌ وَجُودٌ ضَمَّهُ جَدَثٌ ... وَمَكْرُماتٌ طَواها التُّرْبُ وَالمَدَرُ
يا طالِباً وَزَراً مِنْ رَيْبِ حادِثَةٍ ... أَوْى سَعِيدٌ فَلاَ كَهْفٌ وَلا وَزَرُ
أَبكى عَلَيكَ عيونَ الحَيِّ مِنْ يَمَنٍ ... وَمِنْ رَبيعَةَ ما تَبْكي لَهُ مُضَرُ
كُلُّ القَبائِلِ قَدْ رَدَّيتَ أَرْدِيَةً ... مِنْ فَضْلِ نُعْماكَ لا يَجْزي بِها شُكُرُ

---

(١) الحسين بن مطير بن مكمل الأسدي: شاعر متقدم في القصيد والرجز من مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية وفد على معن بن زائدة في اليمن ومدحه ولما مات رثاه (.../١٦٩ هـ) (الأعلام: ج ٢، ص ٢٦٠).

(٢) معن بن زائدة بن عبد الله بن مطر الشيباني «أبو الوليد» من أشهر أجواد العرب وأحد الشجعان الفصحاء أدرك العصرين الأموي والعباسي وكان مكرماً ولاه المنصور لدفاعه عنه يوم الهاشمية على اليمن ثم سجستان قتل غيلة (.../١٥١ هـ) (الأعلام: ج ٧، ص ٢٧٣).

(٣) عبد الصمد بن المعذّل بن غيلان «أبو القاسم» شاعر عباسي كان هجّاء سكيراً (ـ/ ٢٤٠ هـ) (الأعلام: ج ٤، ص ١١).

ما خَصَّ رُزْؤك لا قَيساً وَلا مُضَراً إنَّ الرَّزِيَّةَ مَغمُومٌ بِها البَشَرُ
لَوْ كانَ يَبْكي كِتابُ اللهِ مِنْ أَحَدٍ لِطولِ إِلْفِ بَكَتْكَ الآيُ وَالسُّوَرُ
أَبو الأرامِلِ وَالأَيتام لَيْسَ لَهُ إلاّ مُراعاتَهُمْ هَمٌّ وَلا وَطَرُ
لِلْهارِبينَ مَصادٌ غَيْرُ مُطَّلَعٍ وَلِلْعُفاةِ جَنابٌ مُمْرِعٌ خَضِرُ
مِنْ كُلِّ أُفْقٍ إلَيْهِ العِيسُ مُعْمَلَةٌ وَكُلِّ حَيٍّ عَلى أَبْوابِهِ زُمَرُ

المصادَ: رأس الجبل يتحصَّن فيه الخائفون، كما قال أوْس بنُ حجر:

[الطويل]

إذا أبْرزَ الخَوْفُ الكَعابَ فَإنَّهُمْ مَصادٌ لِمَنْ يَأْوي إلَيْهِمْ وَمَعْقِلُ
مُشَيَّعٌ لا يَفُوتُ الذَّحْلُ صَوْلَتَهُ وَأكْرَمُ النَّاسِ عَفْواً حينَ يَقْتَدِرُ
لا يَزْدَهيهِ لِغَيْرِ الحَقِّ مَنْطِقُهُ وَلاَ تُناجيهِ إلاَّ بالتُّقى الفِكَرُ
ثَبْتٌ عَلى زَلَلِ الأَيّام مُضْطَلِعٌ بالنَّائِباتِ لِصَعْبِ الدَّهْرِ مُقْتَسِرُ
سامي الجُفونِ يَروقُ الطَّرْفَ مَنْظَرُهُ وَأَطْهَرُ النَّاسِ غَيْباً حينَ يُخْتَبَرُ
الحِلْمُ يُصْمِتُهُ وَالعِلْمُ يُنْطِقُهُ وَفي تُقى اللهِ مَا يأتي وَمَا يَذَرُ
لَم تَسْمُ هِمَّتُهُ يَوماً إلى شَرَفٍ إلاَّ حَباهُ بِما يَسْمو لَهُ الظَّفَرُ
يُعْطيكَ فَوْقَ المُنى مِنْ فَضْلِ نائِلِهِ وَلَيْسَ يُعْطيكَ إلاَّ وَهْوَ مُعْتَذِرُ
يَزيدُ مَعْروفَهُ كِبْراً وَيَرْفَعُهُ إنَّ الجَسيمَ لَدَيْهِ مِنهُ مُحْتَقَرُ
وَلَيْسَ يَسْعى لِغَيْرِ الحَمْدِ يَكْسِبُهُ وَلَيْسَ إلاّ مِنَ المَعْرُوفِ يَدَّخِرُ
عَفُّ الضَّميرِ رَحيبُ الباعِ مُضطلِعٌ لِحُرْمَةِ اللهِ وَالإسْلامِ مُنْتَصِرُ.
ما انْفَكَّ في كُلِّ فَجٍّ مِنْ نَدى يَدِهِ لِلنَّاسِ جُودانِ: مَحْوِيٌّ وَمُنْتَظَرُ
لَوْ هابَ عَنْ عِزَّةٍ أَوْ نَجْدَةٍ قَدَرٌ مِنَ البَرِيَّةِ خَلْقاً هابَكَ القَدَرُ
لِيَبْكِ فَقْدَكَ أَطْرافُ البِلادِ كَما لَمْ يَخْلُ مِنْ نِعْمَةٍ أَسْدَيْتَها قُطُرُ
وَلْيَبْكِكَ المُرْمِلونَ الشُّعْثُ ضَمَّهُمُ مِنْ كُل أَوْبٍ إلى أبياتِكَ السَّفَرُ
وَذاتُ هِدْمَيْنِ تُزجي دَرْدَقاً قَزَماً مِثْلَ الرِّئالِ حَباها البُؤسُ وَالكِبَرُ
وَيَبْكِكَ الدِّينُ وَالدُّنْيا لِرَغْيِهِما وَالبَرُّ وَالبَحْرُ وَالإعْسارُ وَاليُسُرُ
كَفَلْتَ عِتْرَةَ أَقْوامٍ مُهاجِرَةٍ عُثْمانُ جَدُّهُمُ أَوْ جَدُّهُمْ عُمَرُ
وَقَدْ نَصَرْتَ وَقَدْ آوَيْتَ مُحْتَسِباً «أَبْناءَ قَوْمٍ هُمُ آوَوْا وَهُمْ نَصَروا»
يا رُبَّ أَرْمَلَةٍ مِنْهُمْ وَمُكْتَهِلٍ أَيْتَمْتَهُ وَهُوَ مُبْيَضٌّ لَهُ الشَّعَرُ
لِلَّهِ شَمْلُ جَميعٍ كانَ مُلْتَئِماً أَضْحى لِيَوْمِ سَعيدٍ وَهو مُنْتَشِرُ
أَمْسى لِفَقْدِكَ ظَهْرُ الأَرْضِ مُخْتَشِعاً بادي الكآبَةِ وَاخْتالَتْ بِكَ الحُفَرُ

أَخْـيـاكَ عَـمْـرٌو وَلَـوْلاهُ وَإِخْـوَتُـهُ عَـفـا الـنَّـوالُ فَـلَـمْ يُـسْـمَـعْ لَـهُ خَـبَـرُ
أَلْـهَـمْـتَـهُـمْ طَـوعَـهُ فَـانْـقـادَ رُشْـدُهُـمُ كُـلٌّ يَـراهُ بِـحَـيْـثُ الـسَّـمْـعُ وَالـبَـصَـرُ
كَـأَنَّـهُـمْ كَـنَـفـاهُ وَهْـوَ بَـيْـنَـهُـمُ بَـدْرُ الـسَّـمـاءِ حَـوَتْـهُ الأَنْـجُـمُ الـزُّهُـرُ
بَـنـو قُـتَـيْـبَـةَ نُـورُ الأَرْضِ نُـورُهُـمُ إِذا خَـبـا قَـمَـرٌ مِـنْـهُـمْ بَـدا قَـمَـرُ
إِذا تَـشـاكَـهَـتِ الأَيَّـام وَاشْـتَـبَـهَـتْ أَبـانَ أَيَّـامَـكَ الـتَّـحْـجِـيـلُ وَالـغُـرَرُ
إِمَّـا ثَـوَيْـتَ فَـمـا أَبْـقَـيْـتَ مَـكْـرُمَـةً إِلاّ بِـكَـفَّـيْـكَ مِـنْـهـا الـعَـيْـنُ وَالأَثَـرُ
إِنَّ الـلَّـيـالـي وَالأَيَّـامَ لَـوْ نَـطَـقَـتْ أَثْـنَـتْ بِـآلائِـكَ الآصـالُ وَالـبُـكَـرُ
كانَ النَّدى في شهورِ الحَوْلِ مُقتَسَماً بَـيْـنَ الـبَـرِيَّـةِ فـاغْـتـالَ الـنَّـدى صَـفَـرُ

قال: وكان سعيدٌ عامراً لطرقِ الخير، عوّاداً على الأيتام والأرامل، وعلى أبناء المهاجرين والأنصار. وكان حسن العزاء، وكان يُقدِّم من بنيه عمراً وسَلْماً فأتاه موت ابن له يقال له العباس في يوم مات سَلْمٌ بحضرته، وكانت ميتةُ العباس بِكرْمانَ[1]، قتلَه بها الخوارج، فذكرَ الحسنُ بن رجاء أنهم دخلوا عليه مع رجاء بن أبي الضَّحاك ليُعَزّوه عنهما، فرَأَوْا عنده من العزاء ما لوْ شهدَهُ من لَمْ يَعرف القصَّة لظنَّ أنَّه المعزِّي.

وحدثني ابنٌ لموسى بن سعيدِ بن سَلم أن سعيداً كان عنده قومٌ على الطعام في عقب موت سَلْم، فحدّثهم حديثاً ثم قال لهم، واللقمةُ في يده: حدَّثني بهذا ابني سلمٌ رحمه اللهُ. ثم وضع اللقمة في فيه.

وقال عبد الصمد فيه:

[الخفيف]

ربَّ طِـفْـلٍ نَـعَـشْـتَـهُ بَـعْـدَ يُـتْـمٍ وَفَـقـيـرٍ أَغْـنَـيْـتَـهُ بَـعْـدَ عُـدْمِ
كُـلَّـمـا عَـضَّـتِ الـحَـوادِثُ نـادى رَضـيَ اللهُ عَـنْ سَـعـيـدِ بـنِ سَـلْـمِ

وقال عبد الصمد يرثي عمرو بن سعيد بن سلم:

[الطويل]

هَـرِيـقـا دَمـاً إِنْ أُنْـفِـدَت عَـبْـرَةٌ تَـجْـري أَبى الصَّـبْـرَ أَنَّ الـرُّزْءَ جَلَّ عَنِ الـصَّبْـرِ
وَلاَ تَـجْـمُـدا عَـيْـنَـيَّ قَـدْ حَـسَّـنَ الـبُـكـا وَفَرْطَ الأَسَى فَقْدُ الـمُغَيَّب فِي الـقَبْرِ
لـيُـغْـرِكـمـا بِـالـبَـثِّ أَنْ لَـسْـتُ واقِـفـاً مِنَ الصَّبْرِ يَوْماً بَعْدَ عَمْرٍو عَلَى عُذْرِ

(١) كِرْمَان أو كَرْمَان: ولاية مشهورة وناحية كبيرة بين فارس ومكران وسجستان وخراسان (معجم البلدان: ج ٤، ص ٤٥٤).

سَلامٌ وَسُقيا مِنْ يدِ اللهِ ثَرَّةٌ ... عَلَى جَسَدٍ بالٍ بِلَمَّاعَةٍ قَفْرِ
جَرَتْ فَوْقَهُ الأرْواحُ أمْناً لِجَرْيِهِ ... وَقَدْ كُنَّ حَسْرى حينَ يَجْري كَما تَجْري
تَوَلَّى النَّدى وَالبَأْسُ وَالحِلْمُ وَالتُّقى ... فَلَمْ يَبْقَ مِنْهَا بَعْدَ عَمْرٍ وسِوى الذِّكْرِ
فَإنْ تَطْوِهِ الأيَّامُ لاَ تَطْوِ بَعْدَهُ ... صَنائِعَ مِنْهُ لا تَبيدُ على النَّشْرِ
مَتى تَلْقَهُ لا تَلْقَ إلاّ مُمَنَّعاً ... حِماهُ، مَصُونَ العِرْضِ مُبْتَذَلَ الوَفْرِ
وَأَيُّ مَحَلٍّ لا لِكَفَّيْهِ نَعْمَةٌ ... عَلَى أهْلِهِ مِنْ أرْضِ بَرٍّ وَلا بَحْرِ
وَمَا اخْتَلَفَتْ حالانِ إلاّ رَأَيْتَهُ ... رَكوبَ الّتي تَسْبي هَيوبَ الّتي تُزْري
وَمَنْ تَكُنِ الأوْراقُ وَالتِّبْرِ ذُخْرَهُ ... فَما كانَ غَيْرَ الحَمْدِ يَرْغَبُ في ذُخْرِ
كِلا حالَتَيْهِ الجُودُ أنّى تَصَرَّفَتْ ... بِهِ دُوَلُ الأيّامِ في العُسْرِ وَاليُسْرِ
وَمَا عُدِمَتْ يَوْماً لِكَفَّيْهِ أنْعُمٌ ... تُضافُ لَهُ مِنْها عَوانٌ إلى بِكْرِ
وَما انْتَسَبَتْ إلاّ إلَيْهِ صَنيعَةٌ ... وَمَا نَطَقَتْ إلاّ بِهِ ألْسُنُ الفَخْرِ
يَرى غَبْناً يَوْماً يَمُرُّ وَلَيْلَةً ... عَلَيْهِ وَلَمْ يَكْسِبْ طَرِيقاً مِنَ الشُّكْرِ
تُغَضُّ له الأبْصارُ عِنْدَ اجْتِلائِهِ ... وَلَيْسَ بِهِ إلاَّ الجَلالَةُ مِنْ كِبْرِ
تَرى جَهْرَهُ جَهْرَ التَّقيّ وَسِرَّهُ ... إذا ما اخْتَبَرْتَ السِّرَّ أتْقى مِنَ الجَهْرِ
وَلَمْ يَضْحُ مِنْ يَومٍ وَلَمْ يُمْسِ لَيْلَةً ... بِغَيْرِ اكْتِسابِ الحَمْدِ مُشْتَغِلَ الفِكْرِ
وَكانَتْ تَعُمُّ النّاسَ نَعْماءُ كَفِّهِ ... فَعَمُّوا عَلَيْهِ بالمُصيبَةِ وَالأجْرِ
تَناعاهُ أَقْطارُ البِلادِ تَفَجُّعاً ... لِمَصْرَعِهِ تَبْكيهِ قُطْراً إلى قُطْرِ
تَباشَرَ بَطْنُ الأرْضِ أُنْساً بِقُرْبِهِ ... وَأَضْحَتْ عَلَيْهِ وَهْيَ خاشِعَةُ الظَّهْرِ
وَلَمْ تَكُ تُسْقَى الأرْضُ إلاّ بِسَيْبِهِ ... إذا ما جَفا أقْطارَها سُبُلُ القَطْرِ
إذا نَشَأَتْ يَوْماً لِكَفَّيْهِ مُزْنَةٌ ... أُديلَ الغِنى في كلِّ فَجٍّ مِنَ القَفْرِ
هَوى جَبَلُ اللهِ الّذي كانَ مَعْقِلاً ... وَعِزّاً لِدينِ اللهِ، ذلاًّ عَلى الكُفْرِ
عَجِبْتُ لأيْدي الحَتْفِ كَيْفَ تَغَلْغَلَتْ ... إلَيْكَ وَبَيْنَ النَّسْرِ بَيْتُكَ وَالنَّسْرِ(١)
وَمَا كُنْتَ بالمُغْضي لِدَهْرٍ عَلَى القَذى ... وَلا لَيِّنٍ لِلْحادِثاتِ عَلَى القَسْرِ
وَلَوْ دَفَعَ العِزُّ الحِمامَ عَنِ امْرِئٍ ... لَما نالَ عَمْراً لِلْحِمامِ شَبا ظُفْرِ
أَلَمْ تَكُ أسْبابُ الرَّدى طَوْعَ كَفِّهِ ... تُبينُ لِصَرْفي ما يُريشُ وَما يَبْري(٢)
إذا صاحَ داعي الرَّوْعِ سارَ أمامَهُ ... لِواءانِ مَعْقودانِ بالفَتْحِ وَالنَّصْرِ

---

(١) النسران: كوكبان «النسر الطائر» و «النسر الواقع».

(٢) فلان لا يريش ولا يبري: لا ينفع ولا يضر. برى السهم: نحته وراشه: جعل له ريشاً.

يُقَسِّمُ آجالَ العِدى عَزْمُ بَأسِهِ بِهِنْدِيَّةٍ بِيضٍ وَخَطِّيَّةٍ سُمْرِ
وَما ذَبَّ إلاّ عَنْ حِمى الدِّينِ سَيْفُهُ وَلاَ قادَ خَيْلَ اللهِ إلاّ إلى ثَغْرِ
وَقَدْ كانَ يَقْري الحَتْفَ أَعْداءَ سِلْمِهِ فَأَضْحى قِرى ما كانَ أَعْداءَهُ يَقْري
تَوَلّى أَبو عَمْرٍو فَقُلْنا لَنا عَمْرٌو كَفانا طُلوعُ البَدْرِ غَيْبُوبَةَ البَدْرِ
وَكانَ أَبو عَمْرٍو مُعاداً حَياتُهُ بِعَمْرٍو، فَلَمَّا ماتَ ماتَ أَبو عَمْرِو
وَكُنَّا عَلَيْهِ نَحْذَرُ الدَّهْرَ وَحْدَهُ فَلَمْ يَبْقَ ما يُخْشى عَلَيْهِ مِنَ الدَّهْرِ
وَهَوَّنَ وَجْدي أَنَّ مَنْ عاشَ بَعْدَهُ يُلاقي الَّذِي لاقى وَإِنْ مُدَّ في العُمْرِ
وَهَوَّنَ وَجْدي أَنَّني لا أرى امْرَءاً مِنَ النَّاسِ إلاّ وَهْوَ مُغْضٍ عَلَى وَتْرِ
رَمَتْنا اللَّيالي فيكَ يا عَمْرُو بَعْدَ ما حَمِدْنا بِكَ الدُّنْيا، بِقاصِمَةِ الظَّهْرِ
سَأَجْزيكَ شُكْري ما حَيِيتُ فَإنْ أَمُتْ أُبَقِّ ثَناءً فيكَ يَبْقى إلى الحَشْرِ
وأُوثِرُ حُزني فِيكَ دُونَ تَجَلُّدي وَإِسْبالَ دَمْعٍ لا بَكِيءٍ وَلا نَزْرِ

قال أبو العباس: وكان مروانُ بن أبي الجَنُوب بن سليمان بن يحيى بن أبي حفصة[1] مدَّاحاً للخلفاء من لدنِ المهديّ إلى أن قام مُحمَّدٌ وليَّ عهدٍ، ولم يبلغ خلافته. وكان مطبوعاً خطيباً في شعره، صحيح المعاني، قليل الإغماض[2] صُلبَ الكلام، وأعطاه المهدي فأكثر. وفي ذلك يقول:

[البسيط]

صَدَّقتَ يا خيرَ مَأمولٍ وَمُنْتَجَعٍ ظَنّي بِأَضْعافِ ما قَدْ كُنْتُ أَحْتَسِبُ
أَعْطَيْتَ تسعينَ أَلْفاً غَيرَ مُتْبِعِها مَنّاً وَلَسْتَ بِمَنّانٍ لِما تَهَبُ

فلما مات المهدي جَزِع عليه جزعاً شديداً، ورثاه بأشعارٍ اختَرنا منها قوله:

[الكامل]

لَوْ خُلِّدَتْ بَعْدَ الإمامِ مُحَمَّدٍ نَفْسي لَما فَرِحَتْ بِطولِ بَقائِها
كَمْ قائِلٍ لَمَّا أَتاهُ نَعِيُّهُ: لَيْتَ اللَّيالي آذَنَتْ بِفَنائِها
إنَّ البِلادَ غَداةَ أَصْبَحَ ثاوِياً كادَتْ تَعودُ جِبالُها كَصِفائِها
تَرَكَ المَسامِعَ فَقْدُهُ مُسْتَكَّةً وَشَجا النُّفوسَ وَحالَ دونَ عَزائِها
فَاليَوْمَ شاغَبَتِ النُّفوسَ حرارَةٌ كَالنَّارِ مُوصَدَةً عَلى أَحْشائِها

---

(١) مروان بن سليمان بن يحيى بن أبي حفصة يزيد: شاعر جمع ثروة واسعة من مدحه للخلفاء والقواد تقرب للرشيد بمدح العلوية وأعطى بكل بيت ألف درهم على مدحه الخلفاء توفي ببغداد (١٠٥ - ١٨٢ هـ) (الأعلام: ج ٧، ص ٢٠٨).

(٢) الإغماض: الإبهام.

وَاليَوْمَ أَظْلَمَتِ البِلادُ وَرُبَّما / كَشَفَتْ بِغُرَّتِهِ دُجى ظَلْمائِها
وَاليَوْمَ أَصْبَحَتِ الأَرامِلُ وُلَّهاً / تَدْعو وَما ظلمتْ بِطولِ شَقائِها
كانَتْ تَعوذُ مِنَ الشِّتاءِ إذا شَتَتْ / بِفَنائِهِ وَتَعيشُ في أَذْرائِها[1]
وَتَبيتُ آمِنَةً لَدى حَجَراتِهِ / كَحَمامِ مَكَّةَ قُطَّناً وَظِبائِها
أَفْنى البُكاءُ على الإمام مُحمَّدٍ / ماءَ العُيونِ فَأَسْعَدَتْ بِدِمائِها
لَمّا اسْتنارَ بِبَطْنِ مَكَّةَ هُلْكُهُ / حَنَّ التُّرابُ إِلَيْهِ مِنْ بَطْحائِها
فَرِحَتْ بُطونُ الأَرْضِ إذ كُسِيَتْ بِهِ / نُوراً جَلا ظُلُماتِها بِجَلائِها
وَبَكَتْ أَمِيرَ المُؤمنينَ ظُهورُها / إذْ غابَ زَيْنُ عَشِيِّها وَضَحائِها
كانَتْ خِلافَتُهُ خِلافَةَ رَحْمَةٍ / حَتّى مَضَتْ أَيّامُهُ لِمَضائِها
ما مَرَّ مِنْ يَوْمٍ عَلَيْهِ وَلَيْلَةٍ / إلاَّ تَدَفَّقَ كَفُّهُ بِعَطائِها
رَوَّى الظِّماءَ بَوادِياً وَغَوادِياً / عَفْواً بِأَرْشِيَةِ النَّدى وَدِلائِها
عَمَّ الصِّحاحَ بِعَدْلِهِ وَبِعُرْفِهِ / وَشَفى المِراضَ بِسَيْفِهِ مِنْ دائِها
وَصَلَتْ جَناحيَ مِنْ فَواضِلِ سَيْبِهِ / سَبْعُونَ أَلْفاً راشَني بِجِبائِها
فَلأَتْبِعَنَّ لَهُ المَديحَ مَراثِياً / يَبْقى على المَهْدِيّ حُسْنُ ثَنائِها
أُثْني لأَجْزِيَهُ أَيادِيَ عُرْفِهِ / عِنْدي وَلَسْتُ بِبالِغٍ لِجَزائِها
أَقْلي الحَياةَ إذا رَأَيْتُ قُصورَهُ / غُبْراً خَواشِعَ بَعْدَ طولِ بَهائِها
وَجِيادُهُ قَدْ عُرِّيَتْ وَقِبابُهُ / مُخْتَلَّةً عَرَصاتُها لِخَلائِها
فَقَدَتْ مُشَرِّفَها الجِيادُ فَأَصْبَحَتْ / تَبْكيهِ عِنْدَ صَباحِها وَمَسائِها
فَفُحولُهُنَّ عَنِ الحُجورِ ذَواهِلٌ / وَحُجورُهُنَّ تَصُدُّ عَنْ أَفْلائِها
سُقِيَتْ على الظَّمَإِ القِراحَ لِفَقْدِها / مَنْ كانَ يَعرِضُها على أَسْمائِها
وَلَقَدْ تراها وَالحَليبُ صَبوحُها / وَغَبوقُها في قَيْظِها وَشِتائِها
قُلِعَتْ لِتَرْكِ رُكوبِها غِلْمانُها / وَلَقَدْ تُرى ثَبْتاً عَلَى أَقْرائِها[2]

القَلِع: الذي لا يستقر على سرج.

يا مَنْ عَلا شَمْسَ النهارِ لِفَقْدِهِ / رَهَجُ القَتامِ[3] فَحالَ دونَ ضِيائِها
إنَّ القُبورَ قَديمَها وَحَديثَها / لِصَداكَ فاضِلَةٌ على إصْدائِها

---

(١) أذراء: جمع ذرى كل ما استظلت به.

(٢) قرء الفرس: أيام سفادها.

(٣) رهج القتام: الغبار الأسود.

مـا حُـفْـرَةٌ أَسْـنـى وَأَكْـرَمُ سـاكِـنـاً مِـنْ حُـفْـرَةٍ حَـدَرُوكَ فـي أَرْجـائِـهـا
إلاّ الَّـتـي أَمْـسـى الـنَّـبـيُّ مُـحَـمَّـدٌ فـيـهـا فَـإِنَّ لِـتِـلْـكَ فَـضْـلَ سَـنـائِـهـا
يـا لَـيْـتَ نَـفْـسي قَـبْـلَ نَـفْسِـكَ غالَـهـا رَيْـبُ الـمَـنـونِ فـحـالَ دُونَ ثَـوائِـهـا
وَبَـقِـيـتَ مـا بَـقـيَ الـنَّـهـارُ لأُمَّـةٍ مـا إنْ تَـمَـلُّ عَـلَـيْـكَ طـولَ بُـكـائِـهـا
فُـجِـعَـتْ بِـسِـيـرَتِـكَ الـرَّعِـيَّـةُ بَـعْـدَمـا أَنْـسَـيْـتَـهـا الـمـاضـيـنَ مِـنْ خُـلَـفـائِـهـا
أَلْـبَـسْـتَـهـا كَـنَـفَـيْ رَؤُوفٍ حـافِـظٍ حُـرَمَ الـحُـقـوقِ، مُـوَكَّـلٍ بِـأَدائِـهـا
يَـمْـشـي الـيَـتـامـى فـي ذَراهُ كَـأَنَّـمـا يَـأْوي الـمـيـتُ بـهـا إلـى آبـائِـهـا
لَـوْلا ابْـنُـكَ الكـافي الـخُـطـوبَ لأَدْبَـرَتْ عَـنَّـا بَـقِـيَّـةُ عَـيْـشِـنـا بِـرَخـائِـهـا

قال أبو العباس: كتب الحَسنُ بن وَهب[١] إلى الأمير محمَّد بن عبد الله بن ظاهر يُعَزِّيه عن مصيبةٍ: «بسم الله الرحمن الرحيم، أطال الله بقاء الأمير مسروراً غير محزون، وَمُعطًى غير مسلوب، ووفَّقه في أحواله كلِّها لما يستديمُ به النِّعمة، ويستحقُّ عنده المَثوبَة. أفظعَني ـ أعزّ الله الأمير ما رأيتُ بالأمير ـ جعلني الله فداءه ـ من هذه الرزيَّة التي كادت تكون أَشبهَ بالنِّعم منها بالرزايا، لما وَفَر الله، إن شاء الله، للأمير ـ أيده الله ـ من ثوابها، وَبقَّي له في نفسه ـ حاطهُ الله ـ من بعدها. فإنَّ حياة الأمير مدَّ الله في عمره ـ حياةٌ لأهله وذوي تأميله، بعدَ الذي جعل الله للدِّين والخلافة من الأنسِ والعزِّ بسلامته، وللأمّة من جميل مكانه وموضعه، وَوقَّر الله للأمير، ولا نقصَه وتولاَّه بحُسْنِ المدافعة عنه والحياطة، ولا أراه سوءاً في نفسٍ ولا حميم، بقدرته. وهذه جُعلتُ فداءَ الأمير ـ أبياتٌ ينظر فيها أيَّده الله عند نشاطه إن شاء الله:

[مجزوء الكامل]

قُـلْ لِـلْـمُـجِـيـرِ عَـلَـى الـدُّهـورِ وَمُـقِـيـلِ ذي الـجَـدِّ الـعَـثـورِ
وَلِـمَـنْ يُـصَـغِّـرُ كِـبْـرُهُ مُـسْـتَـعْـظَـمَ الـخَـطْـبِ الـكَـبـيـرِ
حَـتَّـى يُـرى بَـعْـدَ الـجَـلا لَـةِ مِـنْـهُ فـي حـالِ الـصَّـغـيـرِ
إنَّ الأَمـيـرَ أَجَـلُّ قَـدْ راً فـي مُـلِـمَّـاتِ الأُمـورِ
مِـنْ أَنْ تَـفـيـضَ دُمـوعُـهُ لِـفِـراقِ إِلْـفٍ أَوْ عَـشـيـرِ
لا، بَـلْ يَـكـونُ مُـسَـلِّـمـاً لِـحُـكـومَـةِ الـمَـلِـكِ الـقَـديـرِ

(١) الحسن بن وهب بن سعيد بن عمرو بن حصين الحارثي «أبو علي» كاتب من الشعراء عاصر أبي تمام استكتبه الخلفاء وهو أخو الوزير سليمان بن وهب رثاه البحتري (../ ٢٥٠ هـ) (الأعلام: ج ٢، ص ٢٦٦).

وَيَبُثُّهُ مِنْهُ الرِّضى | عَنْهُ بِإِخْلاصِ الضَّميرِ
وَالصَّبْرَ في البَلْوى فَيُعْطى وافِياً أَجْرَ الصَّبورِ
وَالشُّكْرَ في النُّعْمى لِيَغْنَمَ ما يُضاعَفُ لِلْشَّكورِ
فَاللهُ يُنْسِيءُ عُمْرَهُ | في مُنْتَهى رُتَبِ الحُبورِ
وَإِذا بَكَتْ غُزْرُ العُيونِ فَلا بَكَتْ عَيْنُ الأَميرِ
لا بَلْ تَبيتُ قَريرَةً | أَبَداً عَلى بَرْدِ السُّرورِ
ماذا بِعَبْدِكَ مُذْ رَآكَ مِنَ الكَآبَةِ وَالفُتورِ
عَبْدٌ يَراكَ وَلِيَّ نِعْمَتِهِ إِلى يَوْمِ النُّشورِ
وَيَراكَ جابِرَ ما وَهى | مِنْ عَظْمِهِ ذاكَ الكَسيرِ
وَيُجِنُّ وُدّاً، خُبْرُهُ | عِنْدَ العَليمِ بِهِ الخَبيرِ

قال: وكان الحسَنُ بنُ وهب يقدِّم حبيبَ بنَ أوسٍ أبا تمام الطائيَّ تقديماً يتجاوزُ فيه، ولا يرى له في الشعر نِدّاً قديماً فضلاً عن حديث. فأتاه خبرُ موته بالموصِل فرثاه بشعر سلك فيه مثلَ طريقه، وترك مذهبه في السهولة والبيان وألفاظِ الكتّاب فقال:

[الوافر]

سَقى بِالمَوْصِلِ القَبْرَ الغَريبا | سَحائِبُ يَنْتَحِبْنَ لَهُ نَحيبا
إِذا ظَلَّلْنَهُ أَطْلَقْنَ فيهِ | شَعيبَ المُزْنِ تُتْبِعُها شَعيبا

الشَّعيب: المزادة التي يحملها البعير.

إِذا ظَلَّلْنَهُ أَطْلَقْنَ فيهِ | شَعيبَ المُزْنِ تُتْبِعُها شَعيبا
وَلَطَّمَتِ البُروقُ لَها خُدوداً | وَشَقَّقَتِ الرُّعودُ لَها جُيوبا
فَإِنَّ تُرابَ ذاكَ القَبْرِ يَحْوي | حَبيباً كانَ يُدْعى لي حَبيبا
لَبيباً شاعِراً فَطِناً أَديبا | أَصيلَ الرَّأْيِ في الجُلّى أَريبا
إِذا شاهَدْتَهُ رَوّاكَ مِمّا | يَسُرُّكَ رِقَّةً مِنْهُ وَطيبا
أَبا تَمّامٍ الطّائِيَّ إِنّا | لَقينا بَعْدَكَ العَجَبَ العَجيبا
فَقَدْنا مِنْكَ عِلْقاً لا نَرانا | نُصيبُ لَهُ مَدى الدُّنْيا ضَريبا
وَكُنْتَ أَخاً لَنا يُدْني إِلَيْنا | ضَميرَ الوُدِّ وَالنَّسَبَ القَريبا
وَكانَتْ مَذْحِجٌ تُطْوى عَلَيْنا | جَميعاً ثُمَّ تَنْشُرُنا شُعوبا
فَلَمّا بِنْتَ نَكَّرتِ اللَّيالي | قَريبَ الدّارِ وَالأَقْصى الغَريبا
وَأَبْدى الدَّهْرُ أَقْبَحَ صَفْحَتَيْهِ | وَوَجْهاً كالِحاً جَهْماً قَطوبا

فَأَخرِ بِأَنْ يَطيبَ الموتُ فيهِ | وَأَخرِ بِعيشَةٍ أَلاّ تَطيبا

وقال أبو عبد الرحمن العُتْبي يرثي بنيه:

[المتقارب]

أَمَا يَزْجُرُ الدَّهْرُ عَنّا المَنونا | يُبَقِّي البَناتِ وَيُفْني البَنينا
وَأَنْحَتْ عَلَيَّ بِلا رَحْمَةٍ | فَلَمْ تُبْقِ فَوْقَ غُصوني غُصونا
وَكُنْتُ أَبا سِتَّةٍ كَالْبُدورِ | وَقَدْ فَقَؤوا أَعْيُنَ الحاسِدينا
فَمَرّوا عَلى حادِثاتِ المَنونِ | كَمَرِّ الدَّراهِمِ بِالنّاقِدينا
فَأَلْقَيْنَ ذاكَ إِلى صارِخٍ | وَأَلْقَيْنَ ذاكَ إِلى مُلْحِدينا
فَما زالَ ذلِكَ دَأْبُ الزَّما | نِ حَتّى أَماتَهُمُ أَجْمَعينا
وَحَتّى بَكى لِيَ حُسّادُهُمْ | وَقَدْ أَتْعَبوا بِالدُّموعِ العُيونا
وَحَسْبُكَ مِنْ حادِثٍ بامْرِئٍ | تَرى حاسِديهِ لَهُ راحِمينا
رَأَيْتُ بَنِيَّ عَلى ظَهْرِها | فَصاروا إِلى بَطْنِها يُنْقَلُونا
فَمَنْ كانَ يُسْليهِ مَرُّ السِّنينَ | فَحُزْني تُجَدِّدُهُ لِي السِّنونا

وقال فيهم:

[الكامل]

يا سِتَّةً أَوْدَعْتُهُمْ حُفَرَ البِلى | لِخُدودِهِمْ تَحْتَ الجَبوبِ وِسادُ
مَنَعوا جُفوني أَنْ يُصافِحَ بَعْضُها | بَعْضاً فَهُنَّ وَإِنْ قَرُبْنَ بِعادُ
لَمّا بَقيتُ عِمادَ بَيْتٍ مُفْرَداً | قَدْ أَسْلَمَتْ أَطْنابَهُ الأَوْتادُ
لَمْ تَبْقَ عَيْنٌ أَسْعَدَتْ ذا عَبْرَةٍ | إِلاّ بَكَتْ حَتّى بَكى الحُسّادُ
ماذا أُرَجّي بَعْدَ خَمْسٍ بَعْدَها | سِتّونَ أَكْمَلَها لِيَ المِيلادُ؟
وَسَطَتْ عَلَيَّ مِنَ الزَّمانِ يَدٌ بِها | فُلَّ الجَميعُ وَغُيِّبَ الأَوْلادُ

وقال يرثي أخته:

[الطويل]

لَقَدْ خانَني صَبْري بِأُمِّ مُحَمَّدِ | فَلَمْ يَبْقَ لي إِلاّ التَّأَسُّفُ مِنْ جَهْدي
سِوى أَنَّ صَدْري تَحْتَهُ مُسْتَكِنَّةٌ[1] | مِنَ الحُزْنِ ما تُبْقي عَلى الرَّجُلِ الجَلْدِ
وَإِنّي مُذِ اليَوْمَ الَّذي لَمْ أُطِقْ بِهِ | عَنِ ابْنَةِ أُمّي مَدْفَعاً لَعَلى وَعْدِ

---

(١) المستكنة: الوقدة من الحزن.

وقال يرثي محمد بن عبّاد بن حبيب بن المهلّب[(١)]:

[الطويل]

مُـحَـمَّـدُ إنْ آنَـسْـتَ مِـنّـيَ جـانِـبـا ... بِـقـربٍ لَـقَـدْ أَوْحَـشْـتَ بِـالـبُـعْـدِ جـانِـبـا
وَقَـدْ عَـظُـمَـتْ فـيـكَ الـمـصـائِـبُ إنَّـهـا ... تُـصَـغِّـرُ عِـنْـدي فـي سِـواكَ الـمَـصـائِـبـا
سَـلَـوْتُ بِـهِ عَـمَّـنْ تَـقَـدَّمَ قَـبْـلَـهُ ... وَآلَـيْـتُ أُصْـفـي بَـعْـدَهُ الـوُدَّ صـاحِـبـا
سَـتَـبْـكـيـكَ أَخْـلاقُ الـمُـروءَةِ إنَّـهـا ... مُـغَـيَّـبَـةٌ مـا دُمْـتَ عَـنْـهُـنَّ غـائِـبـا

وقال يرثي ابنه سليمان، وكان نفيساً من ولده:

[الطويل]

سُـلَـيْـمـانُ وَاللهِ الَّـذي أَنـا عَـبْـدُهُ ... لَـقَـلْـبـي عَـلـيـلٌ مـا بَـقِـيـتُ حَـزيـنُ
تَـقـاضـاكَ دَهْـرٌ فَـاقْـتَـضـاكَ بِـدَيْـنِـهِ ... وَلِـلـدَّهْـرِ فـي نَـفْـسـي عَـلَـيَّ دُيـونُ
فَـقَـرَّتْ عُـيـونٌ كُـنْـتَ شَـمْـلَ جُـفـونِـهـا ... وَجـادَتْ بِـحُـزْنٍ بـالـدِّمـاءِ عُـيـونُ
فَـلَـيْـسَ عَـلـى دَهْـرٍ مُـجـيـرٌ إذا عَـدا ... بِـكُـرهٍ، وَلاَ خَـلْـقٌ عَـلَـيْـهِ مُـعـيـنُ
دَفَـنْـتُ بِـكَـفّـي بَـعْـضَ نَـفـسـي فَـأَصْـبَـحَـتْ ... لَـهـا دافِـنٌ مِـنْ نَـفْـسِـهـا وَدَفِـيـنُ
فَـلِـلَّـهِ مـا أَعْـطـى وَلِـلَّـهِ مـا حَـوى ... وَأَخْـرِ بِـأَمْـرٍ كـائِـنٍ سَـيَـكـونُ
فَـيـا فَـجْـعَـةَ الـدُّنْـيـا بِـمَـنْ شِـبْـتُ بَـعْـدَهُ ... فَـسِـيّـانِ مَـضْـنـونٌ بِـهِ وَضَـنـيـنُ

وقال يرثي صديقاً له يقال له عيسى بن القاسم:

[الطويل]

بَكَتْ عَيْنُ مَنْ لَمْ يَبْكِ عِيسى بْنَ قَاسِمِ ... بِـأَرْبَـعَـةٍ حَـتّـى تَـجِـفَّ نَـواظِـرُهْ
فَـتًـى غـابَ عَـنْـهُ أَقْـرَبـوهُ فَـلَـمْ يَـكُـنْ ... لَـهُ مَـنْ يُـحـامـي دونَـهُ وَيُـوازِرُهْ
مَـرَرْتُ عَـلـى رَبْـعٍ لَـهُ بَـعْـدَ مَـوْتِـهِ ... فَـبـاطِـنُـهُ يَـشْـكـو الـخَـرابَ وَظـاهِـرُهْ
تَـكـادُ مَـغـانـيـهِ تَـقـولُ لِـفَـقْـدِهِ ... لِـسـائِـلِـهـا عَـنْ أَهْـلِـهِ: مـاتَ عـامِـرُهْ
سَـلامٌ عـلـى الإخْـوانِ وَالـعَـيْـشِ بَـعْـدَهُ ... وَمَـنْ كُـنْـتُ أُصـفـيـهِ الـهَـوى وَأُعـاشِـرُهْ
وَمَـنْ كـانَ يُـسْـلـي الْـهَـمَّ عَـنّـي حَـديـثُـهُ ... إلَـيَّ إذا ضـاقَـتْ بِـأَمْـري مَـصـادِرُهْ
فَـإنْ أَسْـلُ عَـنْ شَـيءٍ فَـمـا عَـنْـهُ سَـلْـوَةٌ ... وَمَـهْـمـا أُضَـيِّـعْـهُ فَـإِنّـي ذاكِـرُهْ

وقال في ابنٍ له يكنى أبا عمرو - مات في آخر ولده - قصيدة يطيلها، اخْتَرْت منها هذه الأبيات:

[الطويل]

---

(١) محمد بن عبّاد بن حبيب المهلبي: أمير البصرة في زمن المأمون توفي فيها وهو من أبناء المهلب بن أبي صفرة كان من أكابر الأمراء جواداً ممدحاً (. . ./٢١٦ هـ) (الأعلام: ج ٦، ص ١٨١).

لَـقَـدْ شَـمِـتَ الأَعْـداءُ بـي وَتَـغَـيَّـرَتْ عُـيـونٌ أَراهـا بَـعْـدَ مَـوْتِ أَبـي عَـمْـرِو
تَـجَـرّا عَـلَـيَّ الـدَّهْـرُ لَـمَّـا فَـقَـدْتُـهُ وَلَـوْ كَـانَ حَـيًّا لاجْـتَـرَأْتُ عـلى الـدَّهْـرِ
أَسُـكَّـانَ بَـطْـنِ الأَرْضِ لَـوْ يُـقْـبَـلُ الـفِـدى فُـديـتُـمْ وَأَعْـطَـيْـنا بِـكُـمْ سـاكِـني الـظَّـهْـرِ
فَـيا لَـيْـتَ مَـنْ فِـيـهـا عَـلَـيْـهـا وَلَـيْـتَ مَـنْ عَـلَـيْـهـا ثَـوَى فـيـهـا مُـقـيـماً إِلـى الـحَـشْـرِ
فَـماتُـوا كَـأَنْ لَـمْ يَـعْـرِفِ الْـمَوتَ غَـيْـرَهُـمْ فَـثُـكْـلٌ عـلـى ثُـكْـلٍ وَقَـبْـرٌ إِلـى قَـبْـرِ

وقالَ دِعبل بن علي الخُزاعيُّ يرثي أبا القاسم نصر بن حمزة[1]:

[البسيط]

كـانـتْ خُـزاعَـةُ مِـلءَ الأَرْضِ مـا اتَّـسَـعَـتْ فَـقَـصَّ مَـرُّ الـلَّـيـالـي مِـنْ حَـواشِـيـهـا
هـذا أَبـو الـقـاسِـمِ الـثّـاوِي بِـبَـلْـقَـعَـةٍ تَـسْـفـي الـرِّيـاحُ عَـلَـيْـهِ مِـنْ سَـوافِـيـهـا
هَـبَّـتْ وَقَـدْ عَـلِـمَـتْ أَنْ لا هُـبـوبَ بـه وَقَـدْ تَـكـونُ حَـسـيـراً إِذْ يُـجـارِيـهـا
أَضْـحـى قِـرًى لِـلْـمَـنـايـا إِذْ نَـزَلْـنَ بـهِ وكـانَ فـي سـالِـفِ الأَيّـامِ يَـقْـرِيـهـا

وقال أشجعُ بنُ عمرِو السُلَميُّ[2] يرثي محمَّد بن منصور:

[السريع]

أَنْـعَـى فَـتَـى الـجُـودِ إِلـى الْـجُـودِ مـا مِـثْـلُ مَـنْ أَنْـعَـى بِـمَـوْجـودِ
أَنْـعَـى فَـتًـى أَصْـبَـحَ مَـعْـروفُـهُ مُـنْـتَـسِـبـاً فـي الـبِـيـضِ وَالـسُّـودِ
أَنْـعَـى إِلـى الْـفِـتْـيـانِ أَعْـلاهُـمُ كَـعْـبـاً وَأَولاهُـمْ بِـتَـمْـجِـيـدِ
أَنْـعَـى ابْـنَ مَـنْـصـورٍ إِلـى سَـيِّـدٍ وَأَيِّـدٍ لَـيْـسَ بِـرِعْـدِيـدِ
وَأَشْـعَـثٍ يَـسْـعَـى عَـلـى صِـبْـيَـةٍ مِـثْـلِ فِـراخِ الـطَّـيْـرِ مَـجْـهـودِ
وَطـارِقٍ أَعْـيـا عَـلَـيْـهِ الْـقِـرى وَمُـسْـلَـمٍ فـي الـقِـدِّ مَـصْـفُـودِ
أَنْـعَـى فَـتًـى مَـصَّ الـثَّـرَى بَـعْـدَهُ بَـقِـيَّـةَ الْـمـاءِ مِـنَ الْـعُـودِ
وانْـثَـلَـمَ الْـمَـجْـدُ بِـهِ ثَـلْـمَـةً جـانِـبُـهـا لَـيْـسَ بِـمَـسْـدودِ
أَنْـعَـى فَـتًـى كـانَ وَمَـعْـرُوفُـهُ يَـمْـلأُ مـا بَـيْـنَ ذَرَى الْـبِـيـدِ
فَـأَصْـبَـحـا بَـعْـدَ تَـسـامِـيـهِـمـا قَـدْ جُـمِـعـا فـي بَـطْـنِ مَـلْـحـودِ
الـيـومَ تُـخْـشـى عَـثَـراتُ الـنَّـدى وَعَـدْوَةُ الْـبُـخْـلِ عـلـى الْـجُـودِ
يـا راكِـبَ الـعِـيـسِ الَّـتـي تَـخْـتَـطـي مـا بَـيْـنَ أَعْـنـاقِ الْـقَـرادِيـدِ

---

(١) دِعبل بن علي بن رزين الخزاعي «أبو علي» شاعر كوفي هجّاء أقام ببغداد وهجا الخلفاء وطال عمره وكان ضخماً طوالاً طروشاً (١٤٨ ـ ٢٤٦ هـ) (الأعلام: ج ٢، ص ٣٣٩).

(٢) أشجع بن عمرو السلمي «أبو الوليد»: شاعر فحل ولد باليمامة ونشأ بالبصرة واستقر ببغداد مادح الرشيد والبرامكة (ـ/ ١٩٥ هـ) (الأعلام: ج ١، ص ٣٣١).

إنَّ بِبابِ الْبَرْدانِ الفَتى الضَّـ ... ـامِنَ حاجاتِ المَجاهِيدِ
مَنْ قَنَّعَ المِسْكينَ لَمّا مَضى ... مِنْ رَغَدِ العَيْشِ بِتَصْرِيدِ
مَنْ لَمْ يَكُنْ سائِلُه مُمْسِكاً ... مِنْهُ بأَذْنابِ المَواعِيدِ
لا خَيْرَ في الدُّنيا وقَدْ أُغْلِقَتْ ... أَبوابُها دونَ الفَتى المُودي
لِيُرْتَجِ البُخْلُ عَلَيْها فَقَدْ ... مَضى فَتاها بالمَقالِيدِ
أَوْرَدَهُ حَوْضاً عَظِيمَ الشَّأْى ... في المَجْدِ يَومٌ غَيْرُ مَحْمودِ
كُلُّ فَتى يَسْعى إلى مُدَّةٍ ... مِنْ أَجَلٍ قَدْ خُطَّ مَعْدودِ
سَيَنْطِقُ الشِّعْرُ بِأَيَّامِهِ ... على لِسانٍ غَيْرِ مَعْقودِ
كَفاكَ أَنَّ المَجْدَ قَدْ أَصْبَحَتْ ... أَعْلامُهُ في بَطْنِ أُخْدُودِ
جُودي بِدَمْعٍ أَوْ دَمٍ جُودي ... يا عَيْنُ لا عُذْتِ بِمَجْلُودِ
فَكُلُّ مَفْقُودٍ إلى جَنْبِهِ ... - وَإِنْ تَغالى - غَيْرُ مَفْقودِ
يا وافِدَيْ قَوْمِهِما إِنَّ مَنْ ... طَلَبْتُما تَحْتَ الجَلامِيدِ
طَلَبْتُما الجُودَ وَقَدْ ضَمَّهُ ... مُحَمَّدٌ في جَوْفِ مَلْحُودِ
فاتَكُما المَوْتُ بِمَعْروفِهِ ... وَلَيْسَ ما فاتَ بِمَرْدُودِ
يا عَضُداً لِلْمَوْتِ مَفْتُوتَةً ... وَساعِداً لَيْسَ بِمَعْضُودِ
أَوْهَنَ زَنْدَيْهِ وَأَكْباهُما ... قَرْعُ المَنايا في الصَّناديدِ
وَهَدَّها الرُّكْنَ الذي كانَ بالـ ... أَمْسِ عِماداً غَيْرَ مَهْدُودِ

باب

قال أبو العباس قد أَملَيْنا من أشعار المحْدَثين جملةً يُخاف على مثلها الملل. وإنّما كتابُنا هذا - وإن كان يُقصَدُ به معنى واحد - فإنما يُخرجه شيء من ذلك المعنى إلى آخرَ منه. فكأنه بابٌ يخالف باباً. وهذا بابُ مواعظَ وتعازٍ وأشعارٍ داخلة في ذلك، موصولةٍ به.

وقد كُنّا أملينا أخباراً عن عُرْوَة بن الزبيرِ في قطع رجله، ومصاب ابنهِ بضرب دابةٍ إياه. وهذا الذي نذكره ممّا يتصل بجملة أخباره:

قال إسماعيلُ بن يسار يرثي محمد بن عروة:

[الخفيف]

تِلْكَ عِرْسي رامَتْ سَفاهاً فِراقي ... وَجَفَتْني فما تُريدُ عِناقي
زَعَمَتْ أَنَّما هَلاكي مَعَ الْما ... لِ وَأَنِّي مُحالِفي إمْلاقي

وَتَـنـاسَـتْ رَزِيَّـةً بِـدِمَـشْـقٍ أَشْخَصَتْ مُهْجَتي فُوَيْقَ التَّراقي
يَوْمَ نُدْعَى إِلى ابْنِ عُرْوَةَ نَعْشاً فَـوْقَ أَيْـدي الـرِّجـالِ وَالأَعْـنـاقِ
مُسْتَحَثّاً بِهِ سِياقٌ إِلى الْقَبْـ ـرِ وَما إِنْ يَحُثُّهُمْ مِنْ سِياقِ
بِـمَـقـامِ رَبْـخٍ أَجَـنُّـوا شَخْصَهُ ارْتَقَوْا وَلَيْسَ بِراقِ

مكان رَبْخ: إذا كان لا يُستقَرُّ عليه.

ثُمَّ وَلَّيْتُ مُوجَعاً قَدْ شَجاني قُرْبُ عَهْدٍ بِهِ وَبُعْدُ تَلاقِ
وَلَقَدْ كُنْتُ لِلْحُتوفِ عَلَيْهِ مُشْفِقاً لَوْ أَعاذَهُ إِشْفاقي
فَإِذا الْمَوْتُ لا يُرَدُّ بِجِرْصٍ لِحَريصٍ وَلا لِرُقْيَةِ راقِ
وَغَنِينا كَابْنَيْ نُوَيْرَةَ يَوْماً[1] في رَخاءٍ وَلَذَّةٍ واتِّفاقِ
ثُمَّ صِرْنا لِفُرْقَةٍ ذاتِ بُعْدٍ كُلُّ حَيٍّ مَصيرُهُ لِفِراقِ

وقال أيضاً يرثيه:

[الكامل]

صَلَّى الإِلهُ عَلى امْرِئٍ فارَقْتُهُ بِالشَّامِ في جَدِّ الضَّريحِ الْمُلْحَدِ
بَوَّأْتُهُ بِيَدَيَّ دارَ مُقامَةٍ نائي الْمَحَلَّةِ عَنْ مَزارِ الْعُوَّدِ
وَلَئِنْ تَرَكْتُكَ يا مُحَمَّدُ ثاوِياً لَبِما تَروحُ مَعَ الْكِرامِ وَتَغْتَدي
وَغَبَرْتُ أُعْوِلُهُ وَقَدْ أَسْلَمْتُهُ لِسَفَى الأَماعِزِ وَالْمَزارِ الأَبْعَدِ
وَأَرى الوُفودَ لَدى المَنازِلِ مِنْ مِنًى شَهِدوا وَإِنَّكَ غائِبٌ لَمْ تَشْهَدِ
أَعْني ابْنَ عُرْوَةَ إِنَّهُ قَدْ هَدَّني فَقْدُ ابْنِ عُرْوَةَ هَدَّةً لَمْ تَقْصِدِ
وَالمَرْءُ رَهْنُ مَنِيَّةٍ يُدْعى لَها لا بُدَّ أَسْرَعَ مِنْ رِداءِ المُرْتَدي
وَإِذا ذَهَبْتُ إِلى الْعَزاءِ أُريدُهُ غُلِبَ الْعَزاءُ وَحيلَ دُونَ تَجَلُّدي
غَلَبَ التَّعَزِّي أَنَّني لِفِراقِهِ لَبِسَ الْعَدُوُّ عَلَيَّ جِلْدَ الأَرْبَدِ

وقال البَعيثُ[2] ومات ابنٌ له فقال يرثيه بشعرٍ حُفِظ منه بيتٌ استحساناً:

[الطويل]

فَصادَفَ مِنِّي غُصَّةً لاَ يُسيغُها شَرابٌ وَلَمْ يُذْهِبْ مرارَتَها العَسَلْ

وأخبرنا عن مخلد بن حمزَة عن عبد الملك بن عمير قال: دخل عبد

(١) مالك ومتمم ابنا نويرة.

(٢) خِداش بن بشر بن خالد «أبو زيد التميميّ» المعروف بالبَعِيث: خطيب شاعر من أهل البصرة دامت مهاجاته لجرير أربعين سنة توفي بالبصرة (.../ ١٣٤ هـ) (الأعلام: ج ٢، ص ٣٠٢).

الله بن الزُّبير على أُمّه، أسماء ابنة أبي بكر الصديق رضي الله عنهما فقال: يا أُمّه، قد خذلني النّاسُ، فلم يبْقَ معي إلا من ليس عنده من المنع أكثرُ من صبر ساعة، والقومُ يعطونني ما أردتُ. فما رأيكِ؟ قالت: يا بُنيَّ، أنت أعلمُ بنفسك، إن كنت تعلمُ أنك على حق، وإليه تدعو، فامضِ على حقك، ولا تُمكّن غِلمان بني أُميَّة من نفسك. فقال: وفّقكِ الله، هذا رأيي، وإني لَحسَنُ الظنّ بربي، فإن هلكتُ فلا يشتدَّ جزعُك عليّ، فإنَّ ابنك لم يَتعمَّد إتيان دَنيّة، ولا عملاً بفاحشة، ولم يَسْعَ بِغدرٍ، ولم يَجُرْ في حُكم، ولم يكنْ شيءٌ آثرَ عنده من رضى ربه. اللهمَّ إني لا أقولُ هذا تزكيةً لنفسي. أنت أعلمُ بي. ولكني أقوله لتَسلوَ عني.

ويُروى أنه خرج فحمل على أهل الشّام وهو يتمثّل:

[الطويل]

فَلَسْتُ بِمُبْتَاعِ الحَياةِ بِسُبَّةٍ وَلاَ مُرْتَقٍ مِنْ خَشْيَةِ المَوْتِ سُلَّما

وقال رحمه الله تعالى:

[الرجز]

يا أُمّ إنْ مُتُّ فَلا تَبْكِيني
الدِّرْعُ وَالْبَيْضَةُ لا تُنْجِيني

مِنْ قَدَرِ اللّهِ إذَا يَأْتِيني
قَدْ عَلِمَ الأَعْبُدُ أَنَّ دوني

ضَرْباً كَإِيزاغِ المخاضِ الجونِ
إيهاً شِمالي عاوني يَميني

فَإنْ كَرِهْتِ صُحْبَتي فَبيني
فَإنَّما يُضَنُّ بِالضَّنينِ

وتحدث عن سفيان بن عُيَيْنَة(١) قال: رأى سعيدُ بنُ جُبَير(٢) ابنه يَطوف بالبيت فقال: هذا أعزُّ الخلق عليَّ، وما شيء أسرَّ إلي من أن يكون في ميزاني.

وأخبرنا عن عامر بن حَفص(٣) قال: جَزِعَ القلاّخُ بنُ حزن(٤) على أخيه جَحناء فقال:

[الطويل]

---

(١) أبو محمد سفيان بن عُيَيْنَة بن ميمون الهلالي الكوفي: محدّث الحرم المكي من الموالي ولد بالكوفة وسكن مكة وتوفي فيها كان حافظاً ثقة واسع العلم (١٠٧ ـ ١٩٨ هـ) (الأعلام: ج ٣، ص ١٠٥).

(٢) سعيد بن جبير «أبو عبد الله» تابعي من كبار العلماء قتله الحجاج بعد انتصاره على عبد الرحمن بن الأشعث (٤٣ ـ ٩٥ هـ) (الأعلام: ج ٣، ص ٩٣).

(٣) عامر بن حفص: عالم بالأنساب (تقدمت ترجمته).

(٤) هو القلاخ بن حزن بن جناب بن جندل.

أعـاذِلُ مَـنْ يُـرْزَأْ كَـجَـخْـنـاءَ لاَ يَـزَلْ   حَـزينـاً، وَيَـزْهَـدْ بَـعْـدَهُ فـي الـعـواقِـبِ
ثِـمـالُ أُنـاسٍ كـانَ يَـجْـمَـعُ بَـيْـنَـهُـمْ   وَيَـدْفَـعُ عَـنْـهُـمْ كُـلَّ أَبْـلَـخَ شـاغِـبِ[1]

الأبلخ: المتكبر. وقال ضمرَة بنُ ضمرة[2]:

[المتقارب]

مـــاويّ لَـــسْـــتُ بِـــرِغْـــديـــدَةٍ   أَبْـــلَـــخَ جـادَ عـــلـــى الـــمُـــعْـــدِمِ

وقال عن الحسن بن دينار: جزِع رجلٌ على ابنٍ له، فشكا ذلك إلى الحسن بن أبي الحسن فقال له الحسن: هل كان ابنك هذا يغيب عنك؟ قال: نعم كانت غيبته عني أكثرَ من حضوره قال: فَأَنْزِلْه غائباً، فإنه لم يَغِبْ عنك غَيْبةً، الأَجْرُ لك فيها، أعظمُ من هذه الغَيبة.

ومن غير هذا الإسناد أنه قال: فأَنْزِله غائباً عنك، فإنه إن لم يقدَم عليك قدِمْتَ عليه. قال: يا أبا سعيد، قد هوّنتَ من وجدي على ابني.

وأخبرني عن أبي إسماعيل الهمداني عن مجالد[3] عن الشَّعبي[4] قال: مات ابنٌ لشُريح[5] فلم يَشعر أحدٌ بموته، ولم يَصرُخ عليه أحد، فغدا قوم إلى شُرَيْح يسألونه عن ابنه فقالوا: كيف أصبحَ مريضُك يا أبا أميَّة؟ قال: قد سكن عَلَزُه، ورجاه أهلهُ، وما كان مُنْذُ اشتكى أسكنَ منه السَّاعةَ.

والعَلَز: شدة القلق.

وقال أحدُ بني كليب:

[البسيط]

وَإِنْ رَأَيْـتُ سُـهَـيْـلاً ظَـلْـتُ مُـكْـتَـئِـبـاً   كَـأَنَّـنـي راقِـبٌ لِـلـنَّـجْـمِ أوْ عَـلِـزُ

وأخبر عن أبي عمرو بن يزيد قال: احتُضر رجلٌ فوضعَ رأسه في حِجر

---

(١) شاغب: مهيج الشر والفتنة.

(٢) ضمرة بن ضمرة بن جابر النهشلي: شاعر جاهلي وفارس من بني دارم صاحب يوم «ذات الشقوق» من أيام العرب وكان له على بني أسد (الأعلام: ج ٣، ص ٢١٦).

(٣) مجالد بن سعيد بن عمير الهمداني: راوية للحديث والأخبار من أهل الكوفة اختلفوا في توثيقه (.../ ١٤٤ هـ) (الأعلام: ج ٥، ص ٢٧٧).

(٤) عامر بن شراحيل بن عبد ذي كبار الشعبي: نسبة إلى «شَعْب» وهو بطن من همدان كان فقيهاً شاعراً استقضاه عمر بن عبد العزيز (١٩ ـ ١٠٣ هـ) (الأعلام: ج ٣، ص ٢٥١).

(٥) أبو أمية شُرَيْح بن الحارث بن قيس بن الجهم الكندي: أشهر القضاة الفقهاء في صدر الإسلام مات بالكوفة (ـ/ ٧٨ هـ) (الأعلام: ج ٣، ص ١٦١).

أخيه، فدمعتْ عين أخيه فقطرت قطرَةٌ من دموعه على خدِّ المريض، فأفاق من غَشيَتِه، فنظر إلى أخيه يبكي فقال:

[الطويل]

أُخَـيَّـيْـنِ كُـنَّـا فَـرَّقَ الـدَّهْـرُ بَـيْـنَـنـا   إلى الأَمَدِ الأقْصى وَمَن يَأْمَنُ الدَّهْرَا؟

وتحدث عن عمر بن غياث عن محمد بن حَرب قال: كتب إبراهيمُ بن أبي يحيى إلى بعض الخلفاء يعزِّيه: أما بعدُ. فإنّ أَوْلى من عَرَف حقَّ الله عليه فيما أَخذ منه، مَنْ عظّم حقَّ الله جلّ وعزّ عنده فيما أبقى له. واعلمْ أن الماضي قبلك الباقي لك، وأَنَّ الباقي بعدك هو المأجورُ فيك، وأنَّ أجرَ الصابرين فيما يصابون به أعظم من النعمة عندهم فيما يعافَوْنَ منه.

وقال عُمر بن غياث: عزَّى رجل قوماً فيهم نصرانيٌّ فقال: مثلي لا يُعزِّيك، ولكن انظر إلى ما زهدَ فيه الجاهل فارغب فيه.

قال الأصمعيّ: حدّثني مُعْتمرُ بن سليمان[1] أن أخاً له مات، قال: فكنت أرغب إلى الله عزّ وجلّ أَنْ أراه في نومي، فذكرت ذلك لشُعَيب بن الحَبْحاب فقال: إنَّ الحزن ينضو عن ابن آدم كما ينضو صِبْغُ الثوب، ولو بقي على ابن آدم قتله.

وقال الأصمعيّ: سمعتُ بعضَ المحدثين يقول: نُعي مَجْزأَة بن ثَوْر السدوسي[2] إلى أخيه شقيقِ بن ثور فكأنه لم يُر ذلك فيه، فقال له صاحب البريد: هل نعاه إليك أحدٌ قبلي قال: نعم، قد خبَّرنا الله جلّ ذكره أنا كلّنا سنموت.

وقال الأصمعيّ: ماتت امرأة عبد الله بن مُطرِّف بن عبد الله بن الشِّخّير، فَتبخَّر ولبس حُلّةً، فقالوا له في ذلك، فقال: أكرَهُ أن أستكين للمصيبة.

وقال أبو الحسن المدائني عن سعيد بن عبد العزيز[3]: إن مسلمةَ بن عبد الملك كان له صديق يقال له شراحيل، فمات، فجزع عليه وخرج فصلّى عليه

---

(١) معتمر بن سليمان بن طرخان «أبو محمد» محدّث البصرة في عصره حدّث عنه أحمد بن حنبل له كتاب المغازي (١٠٦ ـ ١٨٧ هـ) (الأعلام: ج ٧، ص ٢٦٥).

(٢) مجزأة بن ثور بن عُفير السدوسي: صحابي شجاع فتح مدينة تُستَر وقتل في موقعتها (ـ/ ٢٠ هـ) (الأعلام: ج ٥، ص ٢٧٩).

(٣) سعيد بن عبد العزيز التنوخي الدمشقي «أبو محمد» فقيه دمشق في عصره (٩٠ ـ ١٦٧ هـ) (الأعلام: ج ٣، ص ٩٧).

ودخل قبره فلما خرج أتاه المعَزّون، وفيهم عبدُ الله بنُ عبد الأعلى، فعزّاه، فبكى مسلمةُ وقال:

[الطويل]

وَهَـوَّنَ وَجْـدي عـن شَـراحـيـلَ أَنَّـني إذا شِـئْـتُ لاقَـيْـتُ امْـرءاً مـاتَ صـاحِـبُـهْ

وقال القاسم بن الوليد: حدثني أبي، الوليدُ بن خَلف، أَنَّ الحجاج بن يوسف أوْفد مالك بن أسماء بن خارجة[1] إلى عبد الملك بن مروان فدخل عليه فسَمِع صوارخَ في داره، فقال: ما هذه الصوارخ يا أمير المؤمنين؟ فقال له عبد الملك: مات أبان بن عبد الملك في هذه الليلة، فقال له مالكٌ: آجرك الله يا أمير المؤمنين، فوالله ما على ظهر الأرض أهلُ بيتٍ أعظمَ مَرْزئةِ واحد على الناس ولا اللَّهُ أكفى لهم بالواحد الباقي من أنفسهم منكم أهل البيت. فأعجب عبدَ الملك كلامُه، فاستعاده، وفضَّله على أصحابه.

وكان الحجاج لا يستعمل مالكاً لإذمانه الشراب واستهتاره فكتب عبدُ الملك إلى الحجاج: إنك أوفدت إليّ رجل أهل العراق فولّه واستعمله وأكرمه.

قال أبو الحسن المدائني عن عامر بن الأسود وغيره أنَّ الحجاج رأى في منامه كأنّ عينيه ذهبتا. فلما طلّق هند ابنة أسماء، وهند ابنة المهلب ظَنّ أنها تأويل رؤياه. فلما مات ابنه محمدٌ وأتاه موتُ محمدٍ أخيه قال: **﴿هذا تأويل رؤيايَ من قبلُ﴾**[2].

وأخبر المدائني عن أبي محمد بن عمرو الثَّقَفيّ قال: لما مات محمد بنُ الحجَّاج جزَع عليه فقال: إذا غَسَّلتُموه فآذِنوني به. فأعلَموه به فدخل البيتَ فنظر إليه فقال:

[الكامل]

الآنَ لَـمَّـا كُـنْـتَ أَكْـمَـلَ مَـنْ مَـشـى وَافْـتَـرَّ نـابُـكَ عَـنْ شَـبـاةِ الْـقـارِحِ

وَتَـكـامَـلَـتْ فـيـكَ الـمُـروءَةُ كُـلُّـهـا وَأَعَـنْـتَ ذَلـكَ بِـالْـفَـعـالِ الـصَّـالِـحِ

فقيل له: اتَّق الله وَاسْتَرجِعْ، فقال: «إنّا لِلَّهِ وإنّا إليه راجعون» وقرأ: **﴿الذينَ إذا أصابَتْهم مُصيبَةٌ قالوا إنّا لِلَّهِ وإنّا إليْهِ راجعون أولئكَ عَلَيهم صلواتٌ من رَبِّهِمْ وَرَحمة وأولئك هُمُ المهتدون﴾**[3].

---

(١) مالك بن أسماء بن خارجة الفزاري «أبو الحسن»: شاعر من أشراف الكوفة تزوج الحجاج اخته هند وولاه خوارزم وأصبهان ثم حبسه مدة طويلة (ـ/ ١٠٠ هـ) (الأعلام: ج ٥، ص ٣٥٧).

(٢) سورة يوسف: الآية ١٠٠.

(٣) سورة البقرة: الآية ١٥٦ و ١٥٧.

وأتاه موتُ محَمَّد بنِ يوسف وكان بينهما جُمعَةٌ، فقال:

[الطويل]

حَسْبي حياةُ اللَّهِ مِنْ كُلِّ مَيِّتٍ ... وَحَسْبي بقاءُ اللَّهِ مِنْ كُلِّ هالِكِ
إذا ما لَقيتُ اللَّهَ رَبِّي مُسْلِماً ... فَإِنَّ نَجاةَ النَّفْسِ فيما هنالِكِ

وجلس الحجاج للمعَزِّين ووضع بين يديه مرآة، وَولّى الناسَ ظهرَه وقعد في مجلسه، فكان ينظر إلى ما يصنعون، فدخل الفرزدق فلما نظر إلى فِعْل الحجاج تبسَّم، فلما رأى الحجّاجُ ذلك منه قال: أتضحك وقد هلك المحمَّدان فأنشأ يقول:

[الطويل]

لَئِنْ جَزِعَ الحجَّاجُ ما مِنْ مُصيبَةٍ ... تَكونُ لِمَحْزونٍ أَجَلَّ وَأَوْجَعا
مِنَ المُصْطَفى وَالمُصْطَفى مِنْ خِيارِهِمْ ... جَناحَيْهِ لَمَّا فارَقاهُ فَوَدَّعا
أَخٌ كانَ أغْنى أَيْمَنَ الأَرْضِ كُلِّها ... وَأَغْنى ابْنُهُ أَمْرَ العِراقَيْنِ أجْمَعا
جَناحا عُقابٍ فارَقاهُ كِلاهُما ... وَلَوْ قُطِّعا مِنْ غَيْرِهِ لَتَضَعْضَعا
سَمِيّا نَبِيِّ اللَّهِ سَمّاهُما بِهِ ... أَبٌ لَمْ يَكُنْ عِنْدَ النَّوائِبِ أَخْضَعا

وكتب إليه الوليد يُعَزّيه عن محمد بن يوسف ويحُثُّه على الصبر فكتب إليه: «كتب إليَّ أميرُ المؤمنين يُعزّيني عن محمد بن يوسف ويذكر رضاه عنه، ويأمرني بالصبر، وكيف لا أصبر وقد أبقى الله لي أمير المؤمنين»؟.

وتحدَّث المدائني عن يُونس بن حبيب قال: كان الحجّاج إذا سمع نَوْحاً في دار هدَمها. فلما مات ابنُه وأخوه كان يعجبه أن يسمع النَّوح، وكان يتمثَّل بشعر الفرزدق:

[الطويل]

هَلِ ابْنُكِ إلاّ مِنْ بَني الناسِ فاصْبِري ... فَلَنْ يُرْجِعَ المَوْتي حَنينُ المَآتِمِ

قال أبو العباس: حدَّثني التَّوَّزيّ قال: سمعتُ أبا زيد يُنْشِد «خنينُ المآتم». وكان يتمثَّل أيضاً بشعرٍ ليزيد بن الحكم الثَّقفي[(١)]:

[الطويل]

أَنْ تَحْتَسِبْ تُؤجَرْ وَإِنْ تَبْكِهِ تَكُنْ ... كَباكِيَةٍ لَمْ يُحْيِ مَيْتاً بُكاؤها
وَمِنْ شَرِّ حَظَّيْ مُسْلِمٍ مِنْ حَميمِهِ ... بُكاءٌ وَأَحْزانٌ قَليلٌ جَداؤها

(١) يزيد بن الحكم بن أبي العاص الثقفي: شاعر أموي (ـ/ ١٠٥ هـ).

وتحدَّث المدائني عنْ عَوانة[1] قال: أرسل الحجَّاج إلى عليّ بن ثابت بن قيس الأنصاريّ فقال: أنشدْني مرثيَتك ابنَك فأنشدَه:

[المنسرح]

يـا كَـذَّبَ الـلَّـهُ مَـنْ نَـعـى حَـسَـنـاً ... لَـيْـسَ لِـتَـكْـذيـبِ نَـعْـيِـهِ ثَـمَـنُ
أَجُـولُ فـي الـدَّارِ لا أَراكَ وَفـي الـدَّ ... ارِ أُنـاسٌ جِـوارُهُـمْ غَـبَـنُ
كُـنْـتَ خَـلـيـلي وَكُـنْـتَ خالِـصَـتي ... لِـكُـلِّ حَـيٍّ مِـنْ أَهْـلِـهِ سَـكَـنُ
بُـدِّلْـتُـهُـمْ مِـنْـكَ، لَـيْـتَ أَنَّـهُـمُ ... أَمْـسَـوا وَبَـيْـنـي وَبَـيْـنَـهُـمْ عَـدَنُ

فقال الحجاج: إرْثِ ابني محمّداً، فرثاه. فقال الحجاج: مَرثيتُك ابنَك أجوَدُ. قال: إنَّ قلبي وَجِد على ابني ما لم يجِدْ على ابنك. قال: كيف كان حبُّك له؟ قال: لم أمَلَّ من النظر إليه، ولم يَغِب عني إلا اشتَقْتُ إليه قال: كذاك كنت أجدُ بابني محمد. وقال الفرزدق:

[البسيط]

إنّي لَـبـاكٍ عـلـى ابْـنَـيْ يُـوسُـفٍ عُـمُـري ... وَمِـثْـلُ هُـلْـكِـهِـمـا لِـلـدِّيـنِ يُـبْـكـيـني
مـاسَـدَّ حَـيٌّ وَلا مَـيْـتٌ مَـسَـدَّهُـمـا ... إلاّ الـخَـلائِـفَ مِـنْ بَـعْـدِ الـنَّـبِـيـئـيـنِ

وقال أيضاً:

[الكامل]

إنَّ الـرَّزِيَّـةَ لا رَزِيَّـةَ مِـثْـلُـهـا ... فِـقْـدانُ مِـثْـلِ مُـحَـمَّـدٍ وَمُـحَـمَّـدِ
مَـلِـكـانِ قَـدْ خَـلَـتِ الـمـنـابِـرُ مِـنْـهُـمـا ... أَخَـذَ الـمَـنـونُ عَـلَـيـهِـمـا بِـالـمَـرْصَـدِ

وأخبر المدائني عن سلمة بن عثمان وغيره أنَّ الحجاج جزع على ابنه محمد، فقيل لرجل من بني عُقَيل كان الحجاج قتل ابنه: إنّ الحجاج شديدُ الجزعِ على ابنه محمد وقد أتته وفاة أخيه محمدٍ بن يوسف، فتمثل العقيلي:

[الطويل]

ذُوقـوا كَـمـا ذُقْـنـا غَـداةَ مُـحَـرِّقٍ ... مِـنَ الـغَـيْـظِ فـي أَكْـبـادِنـا وَالـتَّـحَـوُّبِ

وتحدث المدائني عن إسحاق بن أيوب عن مُطَيْر، مولى يزيد قال: كتب الوليد بن عبد الملك إلى الحجاج يعزّيه عن أخيه محمد بن يوسف فكتب إليه الحجاج: ما التقيتُ أنا ومحمد بن يوسف مُذ كذا وكذا عاماً، وما غاب عني غيبة أنا، لطول اللقاء فيها أرجى من غيبته هذه في دارٍ لا نفترق فيها.

---

(١) عَوانة بن الحكم: مؤرخ وراوية تقدمت ترجمته.

وقال ابن كُناسة[١]: مات محمد بن الحجاج ونُعيَ محمدُ بن يوسف في جُمعة فخطب الحجاج الناس فقال: إنَّ محمد بن الحجاج ومحمد بن يوسف ماتا في جُمعة فكأنّ الباقي منا ومنكم قد فنيَ، وكأنّ الحي منا ومنكم قد بليَ، وتُدال الأرض منّا ومنكم فتأكل من لحومنا كما أكلنا من ثمارها، وتشرب من دمائنا كما شربنا من أنهارها، ولنَجِدنّها كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿**وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فإذا هُمْ من الأجْداثِ إلى ربّهم يَنْسِلون**﴾[٢].

وقال عَوانةُ بن الحكم: لما مات محمد بن الحجاج وأتاه نَعِيُّ أخيه بعث إلى مالك ابن أسماء وهو في السِّجن فقال: أنشدني مَرْثِيَتَكَ أخاك فأنشده:

[الخفيف]

أَقْطَعُ اللَّيْلَ زَفْرَةً وَنَحيبا ... وَلِما قَدْ لَقِيتُ أُمْسي كَئيبا

أَذْكُرُ اليَأْسَ مِنْ بَقائِكَ في الـ ... ـدُّنيا وَعَهْداً مِنّا وَمِنْكَ قَريبا

يَوْمَ أَدْعوكَ لِلْخُطوبِ وَلَوْ يُسْـ ... ـمَعُ داعيكَ مَنْ دَعا لأُجيبا

قال: وأنا، واللَّهِ، لو أسمعتُهما النداء لأجابا.

وقال إبراهيم بنُ سعد: سمع عليُّ بن الحسين واعيةً من بيته وهو في مجلسه وعنده جماعةٌ، فنهض إلى منزله فسكّتهم ثم خرج إلى مجلسه فقالوا له: أمِن حَدَثٍ كانت الواعية؟ فقال: نعم، ابنٌ لي، فعزَّوْه وتعجبوا من صبره. فقال: إنّا أهلُ بيتٍ نطيع الله جلَّ ذكره فيما نحبّ ونكره، ونحمده، فإذا نزلَ مكروهٌ حمِدنا واحتسبنا.

قال أبو القاسم بن قيس العامري: لما دَفن عليُّ بن أبي طالب فاطمة عليهما السلام، تَمثَّل عند قبرها:

[الطويل]

وَإنَّ افْتِقادي واحِداً بَعْدَ واحِدٍ ... دَليلٌ عَلى ألاّ يَدومَ خَليلُ

وتمام هذا الشعر:

ذَكَرْتُ أَبا أَرْوَى فَبِتُّ كَأَنَّني ... بِرَدِّ الأمورِ الماضِياتِ وَكيلُ

---

(١) محمد بن عبد الله بن عبد الأعلى المازني الأسدي «الملقب بابن كناسة»: شاعر عباسي من الكوفة عالم بالعربية وأيام الناس وهو ابن أخت الزاهد إبراهيم بن أدهم (١٢٣ ـ ٢٠٧ هـ) (الأعلام: ج ٦، ص ٢٢١.

(٢) سورة يسٓ: الآية ٥١.

لِكُلِّ اجْتِماعٍ مِنْ خَلِيلَيْنِ فُرْقَةٌ ... وَكُلُّ الذي دُونَ الفِراقِ قَلِيلُ
وإنّ افْتِقادي وَاحِداً بَعْدَ واحِدٍ ... دَليلٌ على ألاّ يَدومَ خَليلُ

وقال عليُّ بن أبي طالب ـ كرم الله وجهه ـ للأشعث بن قيس[1] وعزَّاه عن ابنٍ له: يا أشعثُ، إنْ تجزع على ابنك فقدِ استحقت ذلك منك الرّحِمُ، وإنْ تصبِرْ ففي الله الخَلَفُ. يا أشعثُ، إنَّك إن صبَرْتَ جرى عليك القدرُ وأنت مأجور، وإِن جَزِعت جرى عليك القدرُ وأنت مَوزور.

وكان عليّ بن أبي طالب ـ كرَّم الله وجهه ـ يقول إذا عزَّى: إن تجزعوا فالرَّحِمُ أهلُ ذلك منكم، وإن تصبِروا ففي ثواب الله خَلَفٌ من المصيبة. عظَّم اللَّهُ أجركم.

وعزّى رجلٌ رجلاً عن ابنه فقال: ذهب أبوك وهو أصلك، وذهب ابنُك وهو فرعك، فما حال الباقي بعد أصله وفرعه؟.

وعزّى رجلٌ رجلاً فقال: ما كان لك في الآخرة أجراً خيرٌ لك مما كان في الدُّنيا سروراً.

وقال موسى الهادي[2] لإبراهيم بن سَلْم وعزّاه عن ابنه: أيَسُرُّك وهو بليّةٌ وَفتْنة، ويُحزِنك وهو صلاةٌ ورحمة؟.

وقال سعيد بن عبد الله: قال الحسن لرجلٍ عزّاه عن ابنه: إنّما يستوجب على الله وعدَه منْ صبر لله بحقِّه. فلا تجمعْ، إلى ما أُصبْتَ به، الفجيعةَ بالأجر فإنها أعظمُ المصيبتين عليك وأنْكأُ المرزِئتَين لك.

وقال أبو الحسن المدائني: لما هَلَك يزيدُ بن الصَّعِق وَرِثهُ مَعِيَّةُ بن يزيد قِدْرَه وَجفْنَته فقالت ليلى بنت يزيد:

[الطويل]

يَزيدُ أَبا قيسٍ وَهَلْ تَسْمَعَنَّهُ ... وَعِنْدَكَ تَعبيرٌ لَو انَّكَ تَسْمَعُ
لأَصْبَحَ ما جَمَّعْتَ مِنْ كُلِّ صالِحٍ ... مَعِيَّةُ يُعْطي النَّاسَ مِنْهُ وَيَمْنَعُ

---

(١) الأشعث بن قيس الكندي «أبو محمد»: أمير كندة في الجاهلية والإسلام من ذوي الرأي والإقدام والهيبة له أخبار في الفتوح (٢٣ ق هـ ـ ٤٠ هـ) (الأعلام: ج ٢، ص ٣٣٢).

(٢) موسى الهادي بن محمد المهدي بن أبي جعفر المنصور «أبو محمد» خليفة عباسي قتلته أمه خنقاً على يد جواريها عندما أراد خلع أخيه هارون من ولاية العهد (١٤٤ ـ ١٧٠ هـ) (الأعلام: ج ٧، ص ٣٢٧).

فَلا تَأْمَنَنَّ الدَّهْرَ شَيْئاً رَأَيْتَهُ ... وَلا أَنْ يَسُوقَ النَّاسَ عَبْدٌ مُجَدَّعُ

وقال سعيد بن قيس المحاربيّ:

[الوافر]

أُبادِرُ قِسْمَةَ الشُّرَكاءِ مالي ... إذا حَسَبوا وَهُمْ حَوْلي قُعودُ
وَقالوا: حَقُّنا الثُّلثانِ مِنْهُ ... وَقَدْ صَدَقوا لَعَمْري أَوْ يَزيدُ
تَقولُ عَجوزُهُمْ في ذاكَ سَهْمي ... بَلى وبِسَهْمِك العَيْنُ الشديدُ
وَكانَتْ قَبْلُ تَمْلِكُهُ جَميعاً ... تُعَنِّيَ بِاليَدَيْنِ كَما تُريدُ

وقالت المُحَيَّاة بنت طَلْق الجشَميَّة، من بني تيم اللات بن ثعلبة في الإسلام، وجاء العَصَبةُ يقتسمون دارها التي كانت لزوجها، فسمعت أصواتهم فقالت:

[السريع]

يا دَعْوَةً ما دَعْوَتي عامِراً ... بِاللَّهِ لَوْ يَسْمَعُني لاَسْتَجابْ
تاللَّهِ لَوْ يَسْمَعُ دَعْواهُمُ ... لَفَلَّهُمْ عَنِّي بِظُفْرٍ وَنابْ

فرجعوا عنها وغبروا حيناً ثم عادوا، فقالت:

[الطويل]

لَقَدْ بُدِّلَتْ دارُ الأَحِبَّةِ بَعْدَهُمْ ... مَواليَ مِنْهُمْ مُلْحَقونَ وَتابِعُ
فَلَوْ أَنَّ داراً أَعْوَلَتْ فَقْدَ أَهْلِها ... بَكَتْ دارُنا وَالْتَخَّ(1) مِنْها المسامِعُ

فرجعوا فمكثوا حيناً ثم عادوا، فقالت:

[مجزوء الكامل]

الدَّارُ تَبْكي أَهْلَها ... وَبُكاؤُها شَيْءٌ عَجيبْ

فيقال: إنهم تركوها لها.

قال المدائني: تُوفي ابنٌ لخالد بن صفوان يكنى أبا الحُصين فقال: رحمَ اللَّهُ الحُصين. والله إنْ كان، ما علمته، لَبَرّاً بِوالديه، وَصولاً لِرحمِه بعيداً ممّا يُقرف به الشُّبّان.

قال أبو العباس: وحُدِّثت بهذا الخبر على غير هذا. إنه توفي ابنٌ له يقال له نُعَيْم فقال: لا أنسى نُعَيماً أبداً. وفي هذا الخبر: ولقد ذكرت عند موته قول الشاعر ـ يعني أبا خِراش الهذَليّ:

[الطويل]

---

(1) التخّ: اصطك.

فَـوَالـلَّـهِ لا أَنْـسـى قَـتـيـلاً رُزِئْـتُـهُ   بجانِبِ قَوْسى ما مَشَيْتُ على الأَرْضِ

ثم علم أنه سينساه فقال:

بَـلـى إنـهـا تَـعْـفـو الـكُـلـومُ وَإنَّـمـا   نُـوَكـلُ بِـالأَدْنـى وَإنْ جَـلَّ ما يَـمْـضـي

وقال أبو الحسن في أخبار الطاعون: الذي بلغنا من خبر الطاعون أن النَّاس لا يجزَعون فيه على موتاهم كَجَزعِهم في غيرِ الطاعون، وذلك لتَأسِّي الناس بعضِهم ببعض، ولما يَدخُلُهمْ من الخوف، فكلُّ إنسان يخاف على نفسه فيَسلو عن الولد والأهل والقرابة.

وقال: وكانت الطواعين المشهورة العظام في الإسلام بالعراق خمسة:

- طاعون شيرويه بالمدائن في سنة ست من الهجرة.
- والطاعون الجارف سنة تسع وسبعين في شوال. هلك في ثلاثة أيام في كل يوم سبعون ألفاً. مات لأنس بن مالك فيه ثلاثةٌ وثمانون ابناً ويقال: وسبعون. ومات لعبد الرحمن بن أبي بكرة أربعون ابناً، وهرَب عبيد الله بن عمير، مات له ثلاثون ابناً، وإنما هرب بهم من الطاعون. وقال البراء المازنيُّ: مات في الطاعون لصدقةَ بن عامر المازنيّ سبعةُ بنينَ في يوم واحد، فدخل، فوجدهم قد سُجُّوا جميعاً، فقال: اللّهم، إني مسْلِمٌ مُسَلِّمٌ.

وقال محمد أبو عبد الله التّميمي: هرب المرَقَّع بنُ العلاء، أحدُ بني ربيعة بن مالك بن زيدِ مناة، من الطاعون، وله اثنا عشر ابناً، فماتوا جميعاً، فدفنهم في سفح سنام فرثاهم فقال:

[الوافر]

دَفَـنْـتُ الـدَّافِـعـيـنَ الـضَّـيـمَ عَـنِّـي   بِـرابِـيَـةٍ مُـجـاوِرَةٍ سَـنـامـا

أَقُـولُ إذا ذَكَـرْتُـهُـمُ جَـمـيـعـاً   بِـنَـفْـسـي تِـلْـكَ أَصْـداءً وَهَـامـا

فَـلَـيْـتَ حِـمـامَـهُـمْ إذْ فـارَقـونـا   تَـلَـقَّـانـا وَكَـانَ لَـنـا حِـمـامـا

فَـلَـمْ أَرَ مِـثْـلَـهُـمْ هَـلَـكـوا جَـمـيـعـاً   وَلَـمْ أَرَ مِـثْـلَ هـذا الـعـام عـامـا

قال: أنشدني الرِّياشيّ ثلاثة أبياتٍ منها ولم ينشدني الرابع.

وقال عليُّ بن القاسم: حدثني رجل قال: رأيت في المنام أيام الطاعون كأنه أُخرجتْ من داري اثنتا عشرة جنازة وأنا وعِيالي اثنا عشر، فمات منا أحدَ عشرَ وبقيتُ وحدي، فقلتُ في نفسي: أنا تمام العِدَّة، فخرجتُ من الدار ثم رجعت من غدٍ إليها فإذا لصٌّ قد دخل المسرقة فطُعِن في الدار فمات، فأخرجنا جنازته.

قال أبو الحسن: بلغني أن رجلاً نبَش في الطاعون قبراً فأخرج الميت من قبره وأخذَ ثيابه فطُعن من ساعته فمات فوُجد والثياب معه.

وقال سليمان بن قَحذم: خرجت في الطاعون الجارف إلى مكة، ودارُنا مشحونة، فرجعتُ وقد خلت، فقال لي أبي: يا بنيَّ، ما بقي في الدار أحدٌ ممَّن تركتَ غيري وغيرُ أُمِّي جَدَّتِك.

وقال معاذٌ التمَّار: بلغني أنَّ دوراً كثيرة مات أهلها. فلما قدِمَ الحجّاج هدمها مخافةَ أن يكمُنَ فيها الخوارج، واشترى الناس دوراً كثيراً فدُفنوا فيها.

قال: بلغني أنَّ داراً مات أهلها جميعاً، فأغلقوا بابها وفيها صبي صغير رضيعٌ لم يعلموا به، فلما خفَّ الطاعون فتحوا الباب بعد أشهر فإذا صبيٌّ يحبو، فتعجبوا منه، فإذا كلبةٌ تطفِر إلى الدار فتربُض ناحية ويحبو إليها الصبيُّ فيشرب من أطْبائها ثم تطفِر الحائطَ إلى خارج. فلم يزل ذلك دأب الصبيّ حتى حبا حَبْواً.

قال: وأُخبرت أن الدار كانت تُصبح وفيها خمسون، وتُصبح الغدَ وليس فيها واحد.

قال: وكان الرجل بعد الطاعون يلقى المرأة، فلو شاء أن يغصِبها نفسَها فَعَل قبل أن يمرَّ أحد.

ثم خفَّ الطاعون وخليفة مُصعب بن الزُّبير[1] على البصرة سنانُ بن سلمة الهذليّ[2] فخطب الناس فقال: اتقوا الله أيّها الناس فإن عند الله أياماً مثل شوّال. قال: وكان طاعون القَيْنات في شوّالٍ سنة سبع وثمانين، مات فيه الجواري.

ثم كان طاعون سنة إحدى وثلاثين ومئة في رجب فاشتدَّ في شهر رمضان فكان يُحصى في سكَّة المِرْبَد في كل يومٍ عشرةُ آلاف جنازةٍ، أياماً، وخفَّ في شوال.

وقال طارق: أخبرني رجلٌ قال: تزوجت امرأة فدخلت بها ليلة الإثنين،

---

(١) مصعب بن الزبير بن العوام بن خويلد الأسدي القرشي «أبو عبد الله»: أحد الولاة في صدر الإسلام تولّى العراق لأخيه عبد الله حتى هزمته جيوش عبد الملك (٢٦ ـ ٧١ هـ) (الأعلام: ج ٧، ص ٢٤٧).

(٢) سنان بن سلمة الهذليّ: شجاع مذكور عمر طويلاً حتى زمن الحجاج ومولده يوم الفتح (البيان والتبيين: ج ٣، ص ١٤١).

وأصبحت غادياً من عندهم وهي عند أبيها وأمها وأختها وخادمهم، فعدت إليهم يوم الجمعةِ فلم يبقَ منهم أحدٌ.

وهرب من الطاعون عليُّ بن زيد بن جُدْعان إلى السَّيالة[1]، وكان يجمِّعُ كلَّ جمعة ويرجع فكان إذا جمَّع صاحوا به: فرَّ من الطاعون، فطُعن فمات بالسَّيالة. وهرب عَمْرو بن عُبيد ورباط بن محمد بن رباط إلى الرِّباطيّة[2] فقال إبراهيم بن عليِّ بن عبدِ الرَّحمنُ الفُقَيْميّ:

لَـمَّـا اسْـتَـفَـزَّ الـمَـوْتُ كُـلَّ مُـكَـذِّبِ   صَـبَـرْتُ، وَلَـمْ يَـصْـبِـرْ رِباطٌ وَلا عَـمْـرُو

ورأى نافع[3] رجلاً قد خرج من البصرة على حمارٍ فَرَقاً من الطاعون، وكان نافع يعرفه فقال: انظرُوا يَفِرُّ من الله على حمار.

وكان ابن شِبْلِ بنِ مَعْبدِ البَجَليّ بشيراز فمات أهلُه بالطاعون فبلغه، فجَزِع عليهم فقال:

[الطويل]

سَـمـا لـك فـي شِـيـرازَ هَـمٌّ فَـلَـمْ تَـنَـمْ   غَـريـبـاً كَـمـا بَـعضُ الـرِّجـالِ غَـريـبُ
بَـرَتْـنـي صُـروفُ الـدَّهـرِ من كُـلِّ جَـانِـبٍ   كَـمـا يَـنْـبَـري دونَ الـلِّـحـاءِ عَـسـيـبُ
أَقـولُ لأَصْـحـابـي وَقَـدْ قَـذَفَـتْ بِـنـا   نَـوى غُـرْبَـةٍ عَـمَّـنْ نُـحِـبُّ شَـطـوبُ
مَـتى الـعَـهْـدُ بِـالأَهْـلِ الَّـذيـن تَـرَكْـتُـهُـمْ   لَـهُـمْ مِـنْ فُـؤادي بـالـعِـراقِ نَـصـيـبُ
وَهَـلْ تَـرَكَ الـطـاعـون لـي مِـنْ قَـرابَـةٍ   إلـيـهِ إذا كـانَ الإيـابُ أَؤوبُ؟
وَكُـنّـا نُـرَجّـي أَنْ نَـصـيـرَ إلـيـهِـمُ   فَـغـالَـتْـهُـنْـمْ مِـنْ دونِ ذاكَ شَـعـوبُ
مَـقـاديـرُ لا يُـغْـفِـلْـنَ مَـنْ كـانَ يـوْمُـهُ   لَـهُـنَّ عـلـى كُـلِّ الأَنـام رَقـيـبُ
سَـقَـيْـنَ بِـكَـأْسِ الـمَـوتِ مَـنْ قَـدْ أَصَـبْـنَـهُ   وَلِـلْـحَـيِّ مِـنْ أَنـفـاسِـهِـنَّ ذَنـوبُ
فـقَـدْ أَصْـبَـحـوا لا دارُهُـمْ مِـنْـكَ غُـرْبَـةٌ   بَـعـيـدٌ وَلا هُـمْ فـي الـحَـيـاةِ قَـريـبُ
وَهَـوَّنَ عَـنّـي بَـعْـضَ وَجْـدِيَ أَنَّـنـي   رَأَيْـتُ الـمـنـايـا تَـغْـتَـدي وتَـئـوبُ
وَأَنّـي رَأَيْـتُ الـنّـاسَ أَفْـنـى كِـرامَـهُـمْ   حَـوادِثُ، كُـلَّ الـعـالَـمـيـنَ تُـصـيـبُ
ومَـا نَـحْـنُ إلاّ مِـنْـهُـمْ غَـيْـرَ أَنَّـنـا   إلـى أَجَـلٍ نُـدْعـى لَـهُ فَـنُـجـيـبُ

---

(1) السَّيالَة: أرض يطؤها طريق الحاج (معجم البلدان: ج ٣، ص ٢٩٢).

(2) الرباطية: ماء في الطريق إلى البصرة من جزيرة العرب.

(3) نافع بن جُبَيْر بن مطعم بن عدي بن نوفل من قريش: من كبار رواة الحديث تابعي ثقة من أهل المدينة (../٩٩ هـ) (الأعلام: ج ٧، ص ٣٥٢).

وقال أبو عبد الرحمن العَجلاني عن سعيد بن عبد الرحمن بن حسَّان بن ثابت قال: هلك في طاعون «عَمواس» من آل الوليد بن المغيرَة عشرون فتًى، ومن آل صخرٍ مثلُهم. فقال رجل منهم:

[السريع]

مَـنْ يَـنْـزِلِ الـشَّـامَ وَيُـغْـرِسْ بِـهِ ... فَـالـشَّـامُ إنْ لَـمْ يُـفْـنِـنـا كـارِبُ

يقول: إن لم يفننا فهو يقارب ذلك. يقال: كرَب الشيءُ يكرُب إذا قرُب.

أَفْـنَـى بَـنـي صَـخْـرٍ وَفُـرْسـانَـهُـمْ ... عِـشْـريـنَ لَـمْ يَـطْـرُرْ لَـهُـمْ شـارِبُ

ومِـنْ بَـنـي أَعْـمـامِـهِـمْ مِـثْـلَـهُـمْ ... لِـمِـثْـلِ هـذا الْـعَـجَـبُ الْـعـاجِـبُ

طَـعْـنـاً وَطـاعـونـاً مَـنـايـاهُـمُ ... ذلِـكَ مـا خَـطَّ لَـنـا الْـكـاتِـبُ

واستُشهِد بالشَّام من بني المغيرة[1] سبعةٌ وسبعون رجلاً في وقعة، فقال خالد بن الوليد: بنفسي أنتم زَعم ابنُ حنْتَمَة ـ يعني عمرَ بن الخطاب ـ رحمه الله ـ أنَّ بني المغيرَة لا يُستشهَدون.

وقال المدائنيّ: كان بالكوفة طاعونٌ سنةَ خمسين، فقال المغيرة بن شعبة لأبي موسى:[2] انطلِق بنا. فخرج إلى «دابِق» من الطاعون فقال أبو موسى: إلى الله أبِقُ لا إلى دابق، فخرج المغيرة. فلما خرج خفَّ الطاعون فقيلَ له: لو رجعتَ إلى أهلك! قال: ما يريدون مني؟ فلم يزالوا به حتى أقبل إلى الكوفة، فقال: كأنكم بالطاعون قد خَتَلَني في خِصاصِ بني عَوْف، فطُعِن فمات. واستخلف على الكوفة جرير بن عبدِ الله البَجليّ[3].

وقال أبو إسماعيل عن مجالد عن الشعبي أن صديقاً لشُرَيح خرج هارباً من الطاعون، فأقام بالنَّجف[4] فكتب إليه شريح: إنَّ المكان الذي أنت به بعينِ مَن لا

---

(١) المغيرة بن شعبة بن أبي عامر بن مسعود الثقفي «أبو عبد الله» أحد دهاة العرب وقادتهم وولاتهم صحابي تولى لعمر البصرة ثم الكوفة ولعثمان ومعاوية الكوفة وهو أول من وضع ديوان البصرة وأول من سُلِّم عليه بالأمرة في الإسلام (٢٠ ق هـ ـ ٥٠ هـ) (الأعلام: ج ٧، ص ٢٧٧).

(٢) عبد الله بن قيس أبو موسى الأشعري: صحابي من الولاة الشجعان من بني الأشعر من قحطان ولد في زبيد «باليمن» افتتح أصبهان والأهواز وتولى الكوفة لعثمان عزله عنها علي لقعوده عن نصرته في موقعة الجمل خدعه عمرو بن العاص في التحكيم وتوفي في الكوفة (٢١ق هـ ـ ٤٤ هـ) (الأعلام: ج ٤، ص ١١٤).

(٣) جرير بن عبد الله البجلي «أبو عمرو» من بجيلة أسلم سنة عشر اعتزل الحرب بين علي ومعاوية وأقام في الجزيرة حتى توفي سنة ٥٤ هـ.

(٤) النجف: موضع بظهر الكوفة فيه قبر علي رضي الله عنه (معجم البلدان: ج ٥، ص ٢٧١).

يفوته طلبٌ، ولا يُعْجِزُه هربٌ، والمكان الذي خلّفتَ لا يُعجِّل امرءاً إلى حِمامِه قبلَ أجله، ولا يَظلِمه أيامَه، وأنت وَهُمْ على بساط واحدٍ، وإن النَّجَفة من ذي القدرة لقريب.

وقال أبو عاصم من ولد عبّاد بن زياد[1]: كانت الطواعين بالشام كثيرةً وكانت الخلفاء وأبناء الخلفاء يَتَبدَّوْن ويهربون من الرِّيف فينزلون البَرِّيّة خوفاً من الطاعون. فلما أراد هشام بن عبد الملك أن ينزل الرُّصافة[2] قيل له: يا أميرَ المؤمنين، لا تجزَعْ فإنَّ الخلفاء لا يُطعَنون، ولم نسمَع بخليفةٍ طُعن ولم نَرَهُ. قال: أتريدون أن تجَرِّبوا فيّ؟ فتحول فنزل الرصافةَ وهي بَرِّيَّة، وبنى فيها قصرين.

قال: وكان عبد العزيز بن الوليد ينزل «أُسَيْساً»[3] فقدِم على أَبيه بدمشق غلامٌ للوليد فقال الوليد لابنه عبد العزيز: يا بنيّ، ارجع إلى منزلك. قال: أبيتُ الليلة ثم أغدو. قال: عزمتُ عليك إلاّ رَجعْتَ. فرجع ولم يدَعْه يبيت. قال أبو عُبيدة عن أبي عمرو بن العلاء: إنَّ رجلاً من أهل البصرة أيام الطاعون الجارف ـ لمَّا رآه قد كثُر ـ أراد الهرَب، فعمَد إلى حمار له فجعل عليه مَتاعَه، وغلامٌ له يناوله جِهازه، والغلام يرتجز:

[مشطور الرجز]

لَـنْ يُـسْـبَـقَ الـلَّـهُ عـلـى حِـمـارِ　　　وَلا عــلــى ذي مَـيْـعَـةٍ مَـطّــارِ

قَـدْ يُـصْـبِـحُ الـلَّـهُ أَمـامَ الـسَّـاري

فقال له الرجل: صدقتَ. ثم حطَّ رحله وأقام، فمات فيمن مات.

قال المدائني: قال الحسن البصري ـ وذُكر عنده الطاعون ـ: ما أحسنَ ما أبلى اللّهُ فيه: ارتدَع مذنبٌ، وأنفقَ ممسِكٌ، ولم يُغلظْ بأحَد.

وقال أبو الحسن المدائني عن جنابِ بن موسى عن جعفر بن محمد عن أبيه قال: لما احتضِر رسول الله أتاه جبريل عليه السلام فخيَّره بين البقاء في الدنيا وبين المصير إلى رحمة الله أو رَفعِه إليه وتعجيل ما وعده فقال ﷺ: «بل الرفيقُ الأعلى». فكان يقول ذلك حتى قضى، صلوات الله عليه ورحمته وبركاته.

---

(١) عباد بن زياد بن أبيه «أبو حرب» أمير فاتح أقام بالبصرة ولي سجستان وغزا بلاد الهند أيام معاوية وكان في الشام أيام عبد الملك (ـ/ ١٠٠ هـ) (الأعلام: ج ٣، ص ٢٥٧).

(٢) الرصافة: رصافة هشام بن عبد الملك غربي الرقة (معجم البلدان: ج ٣، ص ٤٧).

(٣) أسيس: ماء في شرقي دمشق (معجم البلدان: ج ١، ص ١٩٣).

وأخبر المدائني عن شعبَة عن سعيد بن إبراهيم عن عروة عن عائشة، رحمها الله، قالت: كنتُ أسمع أنّ النبيّ ﷺ لا يموت حتى يُخَيَّر، فسمعته يقول ﷺ في مرضه: الرفيق الأعلى، مع الذين أنعمتَ عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، فظننت أنه خُيِّرَ فاختار الآخرة.

وقال خلاّد بن عُبيدة عن عليّ بن زيد[١] عن الحسن قال: قيل لأبي بكر في مرضه: لو أرسلت إلى الطبيب! فقال: قد رآني. قالوا: فما قال لك؟ قال: قال: إني فعّالٌ لما أريد. وفي رواية: إني أفعل ما أشاء.

وقال أبو محمد الناجي عن الحسن: إن أبا بكر، رحمه الله سمع عائشة رضي الله عنها وهو في سكرات الموت، وهي تقول:

[الطويل]

لَعَمْرُكَ ما يُغني الثَّراءُ عَنِ الْفَتَى ... إذا حَشْرَجَتْ يَوْماً وَضاقَ بِها الصَّدْرُ

فقال: يا بنيّة ألا قلت **﴿وجاءَتْ سَكْرةُ الموت بِالحقِّ ذلك ما كنت مِنه تَحيد﴾**[٢] وقال متمثلاً:

[مخلع البسيط]

وَكُلُّ ذي إِبِلٍ مُورِثُها ... وَكُلُّ ذي سَلَبٍ مَسْلُوبُ

وَكُلُّ ذي غَيْبَةٍ يَؤُوبُ ... وَغائِبُ الْمَوتِ لا يَؤُوبُ

وآخِرُ ما تكلم به: رَبِّ **﴿تَوفَّني مُسْلِماً وأَلحِقْني بالصّالحين﴾**[٣].

وقال أبو بلال الأشعريّ عن محمد بن عاصم الأسْلميّ عن موسى بن عُقبَة المزني قال: كتب أبو بكر، رحمة الله عليه وصيَّته بيده وهي: بَسْمِ اللَّهِ الرّحمن الرحيم هذا ما أوصى به أبو بَكر الصِّديق عند آخِر عهْده بالدُّنيا خارجاً منها، وعِند أوَّل عَهْده بالآخرة داخلاً فيها حيثُ، يُؤمِن الكافر، ويتَّقي الفاجر، ويصدقُ الكاذب. إني استخلفت عليكم عمر بن الخطاب، رضي الله عنه فاسمَعوا له وأَطيعوا. فإن عَدَلَ فذلكَ ظَنّي بِهِ وَرَأيي فيهِ. وَإن جارَ وبَدّل فلا أعلمُ الغيبَ، والخيرَ أَردْتُ، ولكلِّ امرئٍ ما اكتَسَب **﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذين ظَلَموا أيَّ مُنقَلَبٍ يَنْقَلِبون﴾**[٤].

---

(١) علي بن زيد بن أبي مليكة زهير بن عبد الله بن جدعان «أبو الحسن» فقيه ضرير من حفاظ الحديث (../١٢٩ هـ) (الأعلام: ج ٤، ص ٢٨٩).

(٢) سورة ق: الآية ١٩. (٣) سورة يوسف: الآية ١٠١. (٤) سورة الشعراء: الآية ٢٢٧.

وقال عمرُ بن غياث عن الهلالي: كان رسول الله ﷺ إذا أَفرَطتْ عليه الحُمّى في وَجعه الذي تُوفيَّ فيه قالت فاطمة: يا بأبي وأمّي. ثمّ تمثلت:

[الطويل]

وأَبْيَضَ يُسْتَسْقَى الْغَمامُ بِوَجْهِهِ ... ثِمالُ الْيَتامى عِصْمَةٌ لِلأَرامِلِ

قال: فأفاق رسول الله فقال: ذلك قول عمِّك أبي طالب. ثمّ قال ﷺ: ﴿وما محمَّدٌ إلا رَسُولٌ قد خَلَتْ من قبلهِ الرُّسل﴾[1] الآية.

قال أبو الحسن عن عاصم بن عمر[2] عن عبيد الله بن عمرو عن زيْد بن أسلم[3] عن أبيه عن جَدِّه أنّ كعب الأحبار[4] قال لعمر بن الخطاب رحمه الله: يا أميرَ المؤمنين، أنتَ ميتٌ في ثلاثٍ، أجدُ ذلك في بعض الكتب. قال: أتجدُ اسمي ونسبي؟ قال: لا، ولكن أَجدُ صفتك وسيرتك وزمانك، فقال عمر:

[الطويل]

تَوَعَّدَني كَعْبٌ ثَلاث يَعُدُّها ... وَلاَ شَكَّ أَنَّ الْقَوْلَ ما قالَ لي كَعْبُ

وَما بِيَ خَوْفُ الْمَوْتِ إِنّي لَمَيتٌ ... وَلَكِنَّ خَوْفَ الذَّنْبِ يَتْبَعُهُ الذَّنْبُ

وقال هشام بن عاصم عن الشّعبي أنّ عمر بن الخطاب رحمة الله عليه قال عند موته: ليتني أنجو من هذا الأمر كَفافاً لا لي ولا عليَّ. يا عبدَ الله، ضع خدِّي على الأرض، وَيلٌ لِعُمَر ولأم عمر إنْ لم يُنجِه الله.

وقال أيضاً: لما طَعن العِلجُ عمرَ قال: ﴿وَكَانَ أمْرُ اللَّهِ قَدَراً مَقدوراً﴾[5].

وقال سعيدُ بنُ مسلم عن أبيه أنّ عثمان بن عفَّان ـ رحمه الله ـ يومَ دُخِل عليه فقُتِل، دعا بالمصحفَ فنشره، فكان أوّل حَرف نظر إليه: ﴿فسَيَكفيكهُمُ اللَّهُ وَهو السَّميعُ العليم﴾[6]، وتمثَّل:

[الطويل]

---

(١) سورة آل عمران: الآية ١٤٤.

(٢) عاصم بن عمر بن الخطاب: شاعر، جد عمر بن عبد العزيز لأمه كان طويلاً جسيماً (٦ ـ ٧٠ هـ) (الأعلام: ج ٣، ص ٢٤٨).

(٣) زيد بن أسلم العدوي «أبو أسامة أو أبو عبد الله» فقيه مدني ومفسر كثير الحديث، له حلقة في المسجد النبوي (ـ/ ١٣٦ هـ) (الأعلام: ج ٣، ص ٥٧).

(٤) كعب بن ماتع الحميري «أبو إسحاق» تابعي من كبار أحبار اليهود أسلم في أيام أبي بكر وأخذ المسلمون عنه أخبار الأمم الماضية (ـ/ ٢٢ هـ) (الأعلام: ج ٥، ص ٢٢٨).

(٥) سورة الأحزاب: الآية ٣٣.

(٦) سورة البقرة: الآية ١٣٧.

أَرَى الْمَوْتَ لا يُبْقي عَزيزاً وَلَمْ يَدَعْ ... لِعادٍ مِلاكاً في الأُمورِ وَمَرْتَبا
يُبَيِّتُ أَهْلَ الحِصْنِ وَالحِصْنُ مُغْلَقٌ ... وَيَأْتِي الْجِبالَ مِنْ شَماريخِها العُلا

وقال أبو الحسن عن سعيد بن عبد العزيز السُّلمي عن أَبيه أن الزبير[1] - رحمه الله - قال حين طعنه ابن جُرموز: ما له - قاتله الله - يذكِّر بالله وينساه! وذلك أن الزبير - رحمه الله - لمَّا رآه همَّ به، فقال ابنُ جُرموزٍ: أُذكِّرُكَ اللَّهَ، فتركه ثم تَغفَّله فطعنه. وتمثَّل الزبيرُ:

[الكامل]

وَلَقَدْ عَلِمْتُ لَوَ انَّ عِلْمِيَ نافِعي ... أَنَّ الْحَياةَ مِنَ الْمَماتِ قَريبُ

وقال طَلْحَةُ بنُ عُبيد الله[2] - رحمه الله - يوم الجَمل عند موته:

[مجزوء الكامل]

صَرَفَ الزُّبَيْرُ جَوادَهُ ... أَنَّى لَتُذْرِكُهُ وَفاتُهْ

ثم قال حين نزلَ به الموتُ: تالله ما رأيتُ كاليوم مصرع أَسَدٍ أُضِيعَ، وتمثَّل:

[الطويل]

أَرَى الْمَوْتَ أَعْداءَ النُّفوسِ وَلا أَرَى ... بَعيداً غَداً ما أَقْرَبَ الْيَوْمَ مِنْ غَدِ

وقال يعقوب بن داود الثَّقفي عن الحسين بن بزيغ: إنَّ أميرَ المؤمنين عليّ بن أبي طالب رحمه الله خرج في الليلة التي ضُرب فيها في السَّحَر وهو يقول:

[الهزج]

أُشْدُدْ حَيازِيمَكَ لِلْمَوْتِ ... فَإِنَّ الْمَوْتَ لاقِيكا
وَلا تَجْزَعْ مِنَ الْمَوْتِ ... إذا حَلَّ بِوادِيكا

وضربَهُ ابنُ مُلجَم، فقال: **﴿ومن النَّاس من يشري نفسَه ابتغاءَ مَرْضاةِ اللَّهِ، واللَّهُ رؤوفٌ بالْعِباد﴾**[3]. وقال عليٌّ حين ضُرب: **﴿فُزتُ وربِّ الكعبَة﴾**. وكان

---

(١) الزبير بن العوام بن خويلد الأسدي القرشي «أبو عبد الله» صحابي جليل من العشرة المبشرين بالجنة أسلم وعمره ١٢ سنة كان من رجال الشورى الستة قتله ابن جرموز غيلة يوم الجمل بوادي السباع (٢٨ ق هـ - ٣٦ هـ) (الأعلام: ج ٣، ص ٤٣).

(٢) طلحة بن عبيد الله بن عثمان التيمي القرشي المدني «أبو محمد» أحد العشرة المبشرين بالجنة قتل يوم الجمل وعمره ٦٢ سنة وقبره بظاهر البصرة (٢٨ ق هـ - ٣٦ هـ) (الأعلام: ج ٣، ص ٢٢٩).

(٣) سورة البقرة: الآية ٢٠٧.

آخرَ ما تكلم به أَنْ قال: ﴿فمنْ يَعْمل مثقالَ ذَرَّة خيراً يرَه، ومَن يعْمَلْ مثقالَ ذرَّةٍ شراً يرَهُ﴾[١].

وقال أبو الحسن عن عليّ بن مجاهدٍ عن عبد الأعلى بن مَيمون بن مِهران عن أبيه: إنَّ معاويةَ قال في مرضه الذي مات فيه: إن رسول الله ﷺ كساني قميصاً فَرَفَعْتُه. وقلَّم أظفاره يوماً فأخذت قُلامتها فجعلتها في قارورة فإذا مُتُّ فألبِسوني ذلك القميص وقطِّعوا تلك القُلامة واسحَقُوها وذُرّوها في عيْنيّ وفمي ثم أُغميَ عليه، فقالت ابنته أو امرأة من أهله متمثلة:

[الطويل]

إنْ ماتَ ماتَ الجودُ وَانْقَطَعَ النَّدَى ... مِنَ النَّاسِ إلاّ مِنْ قَليلٍ مُصَرَّدِ
وَرُدَّتْ أُكُفُّ السَّائِلينَ وَأَمْسَكوا ... مِنَ الدِّينِ وَالدُّنْيا بِخَلْفٍ مُجَدَّدِ

ثم أفاقَ فقال لمن حَضره من أهله: اتَّقوا الله فإن الله يَقي من اتّقاه، ولا واقِيَةَ لمَن لا يتقي الله.

وقال عوانةُ: لمَّا حضرت معاويةَ الوفاةُ قال: يومٌ من ابن الأدبر[٢] طويل! ثم تمثَّل:

[البسيط]

لَقَدْ جَمَعْتُ لَكُمْ مِنْ جَمْعِ ذي حَسَبٍ ... وَقَدْ كَفَيْتُكُمُ التَّرْحالَ وَالنَّصَبا

ثم قال: إنّكم لتُقَلِّبون حُوَّلاً قُلَّباً، إنْ نَجا من كبَّةِ النار فهو الرَّجُل.

وفي غير هذا الإسناد أنه قال حين احتُضِرَ لابنةِ قرظة: اندُبيني فقالت:

[الهزج]

أَلا أَبْكيهِ أَلا أَبْكيهِ ... أَلا كُلُّ الفَتى فيهِ

وقال لابنتيه: قلِّباني، ففعَلتا. فقال: إنّكما لتقلبّانه حُوَّلاً قُلَّباً إنْ وُقي كَبَّة النار. ثم تمثَّل:

[الكامل]

لا يَبْعَدَنَّ رَبيعَةُ بْنُ مُكَدَّمٍ ... وَسَقى الغَوادي قَبْرَهُ بِذَنوبِ

وقال سعيد بن بِشْر: إنَّ عبد الملكِ بن مروان ليلةَ قبض قلِق فسَمِع صوت

---

(١) سورة الزلزلة: الآية ٧.

(٢) هو حجر بن عدي بن جبلة الكندي: صحابي شجاع قتله معاوية مكبلاً بالحديد في مرج عذراء مع أصحاب له (. . ./٥١ هـ) (الأعلام: ج ٢، ص ١٦٩).

قصّار[1] فقال: ما هذا؟ فأخبر، فقال حين ثقُل: ليتَني كنتُ غسالاً أعيش بما أكتسِب يَوْماً بيوم. فقيل لأبي حازم: إنّ عبدَ الملك قال كذا وكذا. فقال: الحمدُ للّهِ الذي جعلهم يتمنَّوْن عند الموت ما نحن فيه، ولا نتمنّى ما هم فيه.

وقال عبد الرَّحمن بن أبي الزِّناد[2] عن أبيه إنّ سليمان بن عبد الملك قال عند الموت متمثلاً بقول الحارث بن عبَّاد[3]:

[الرجز]

إنَّ بَنيَّ صِبْيَةٌ صِغارُ ... أَفْلَحَ مَنْ كانَ لَهُ كِبارُ

إِنَّ بَنيَّ غِلْمَةٌ صَيْفِيّونْ ... أَفْلَحَ مَنْ كانَ لَهُ رِبْعِيُّونْ

فقال له عمرُ بنُ عبد العزيز: يا أميرَ المؤمنين، أفلَح من تزَكّى وذَكر اسمَ ربِّه فصَلّى. فقالها، ثم قال: أسألك مُنقلباً كريماً. ثم قضى. وقال مسلم بن خالد[4] عن ابن أبي نجيح: تأوّه طاوُسٌ[5] في مرضه الذي مات فيه، فقيل له: يا أبا عبد الرحمن، شكوتَ ربَّك فقال: ليتني أخرُجُ من مرضي هذا لا عليَّ ولا لي.

وقال محمد بن جعفر[6] عن أبيه: دخلتُ على عبدِ الرحمن بن الفضل بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب في مرضه فبكى وقال: أبكي لصَبيّاتٍ خلْف هذا السّتر، لولاهنّ لهانَ عليّ الموت. إني لمُؤمن، وإني لتائب، وإن الله لغفور رحيم. قلتُ: رحمك الله فالذي رجوتَه لمغفرة ذنبِك فارْجُهُ لخير بناتك. فقال: صَدَقتَ، جزاك الله خيراً.

---

(١) القصار: المحور للثياب (يدقها بالقصرة: قطعة خشب).

(٢) عبد الله بن ذكوان القرشي المدني «أبو الزناد» محدّث وفقيه صاحب كتابة وحساب وفد على هشام بحساب ديوان المدينة توفي فجأة بالمدينة (٦٥ ـ ١٣١ هـ) (الأعلام: ج ٤، ص ٨٥).

(٣) الحارث بن عبّاد البكري: شاعر شجاع من سادات العرب دخل حرب البسوس بعد أن قتل المهلهل ابنه بجيراً فأسر المهلهل وجز ناحيته وأطلقه وأقسم أن لا يكف عن تغلب حتى تكلمه الأرض فكلمه رجل دسوه في سرب بشعر فقيل بر القسم واصطلح القبيلان (.../٥٠ ق هـ) (الأعلام: ج ٢، ص ١٥٦).

(٤) مسلم بن خالد بن مسلم بن سعيد القرشي المخزومي «المعروف بالزنجي»: من كبار الفقهاء تفقه به الشافعي قبل أن يلقى مالكاً (ـ/ ١٧٩ هـ) (الأعلام: ج ٧، ص ٢٢٢).

(٥) طاوس بن كيسان الخولاني الهمداني بالولاء «أبو عبد الرحمن» فقيه من رواة الحديث متقشف كان يعظ الخلفاء والملوك أصله فارسي ومولده في اليمن توفي حاجاً في المزدلفة أو منى (٣٣ ـ ١٠٦ هـ) (الأعلام: ج ٣، ص ٢٢٤).

(٦) محمد بن جعفر بن أبي طالب الهاشمي القرشي «أبو القاسم» صحابي ولد في الحبشة وقتل في صفين (ـ/ ٣٧ هـ) (الأعلام: ج ٦، ص ٦٨).

وقال أبو الحسن عن معاوية بن محمد عن عبد الله بن بُجَيْر قال: قال عبد الله بن عمرو بن العاصي لأبيه: يا أبه، كنت تقول: ليتني ألقى رجلاً عاقلاً عند نزول الموت به يحدِّثني ما يجدُ. وقد نزل بك وأنت ذلك الرجل فصِفْ لي الذي تجدُ. قال: يا بُنيَّ لكأنَّ جنبيَّ في تخت ولكأني أتنفَّسُ من سمِّ إبرة، ولكأنَّ غصْنَ شوكٍ يجرُّ به من قدمي إلى هامتي. ثم قال متمثِّلاً قولَ أميَّة بن أبي الصَّلْت[1]:

[الخفيف]

لَيْتَني كُنْتُ قَبْلَ ما قَدْ بَدا لي ... في رؤُوسِ الجِبالِ أَرْعى الوُعولا

والله لَيْتني كنتُ حِيضَةً عرَكها الإماء. ثمَّ مَدَّ يده فقال: اللهُمَّ، إني لستُ ذا قوةٍ فأنتصر، ولا ذا براءةٍ فأعتذر. اللهُمَّ إني مُقِرٌّ مُذنب مُستغفِر. وقال عوانة: قال عمرو بن العاصي عند موته: اللَّهُمَّ، إنك أمرتنا فلم نأتمِر، وزجرتَنا فلم ننزَجرْ، فإنا لا نعتذر، ولكنّا نستغفر.

وقال يعقوبُ بن عَوْفِ بن عبد الملك بن نَوْفل: لما نزل بالمغيرة بن شعْبَة الموتُ قال: اللهمَّ، هذه يدي بايعتُ بها نبيَّك ﷺ، وجاهدت في سبيلك، فاغْفِر لي ما يعلمون من ذنوبي وما لا يعلمون.

وقال أبو الحسن عن مَسْلمة بن محارب: لما ثقُلَ زياد[2] قدِم عليه الهيثمُ ابنُ الأسوَد النَّخَعيّ[3] بِعهدِه على الحجاز، فقيل له، فقال: شربةٌ من ماءٍ أُسيغُها أجدُ طعمَها أحَبُّ إليَّ مما جاء به الهيثم.

وقال عليُّ بن مجاهدٍ عن محمد بن إسحاق[4] عن الزُّهري[5] قال أبو

---

(١) أمية بن عبد الله بن أبي الصلت الثقفي: شاعر جاهلي أدرك الإسلام ولم يسلم كان يلبس المسوح تعبداً وأول من جعل في الكتب باسمك اللهم مات بالطائف (ـ/ ٥ هـ) (الأعلام: ج ٢، ص ٢٣).

(٢) زياد بن أبيه: أمير وقائد فاتح تولى لعلي إمرة فارس ولمعاوية سائر العراق حتى توفي (١ ـ ٥٣ هـ) (الأعلام: ج ٣، ص ٥٣).

(٣) الهيثم بن الأسود النَّخعَي «أبو العريان»: شاعر وخطيب معمّر ومن ذوي الشرف والمكانة في الكوفة ظل موالياً للأمويين في فتنة ابن الزبير غزا القسطنطينية مع مسلمة سنة ٩٨ هـ (../ ١٠٠ هـ) (الأعلام: ج ٨، ص ١٠٣).

(٤) محمد بن إسحاق بن يسار المطلبي «المدني» من أقدم المؤرخين العرب كان قدرياً ومن حفاظ الحديث سكن ومات في بغداد (../ ١٥١ هـ) (الأعلام: ج ٦، ص ٢٨).

(٥) محمد بن مسلم بن عبد الله بن شهاب الزهري «أبو بكر» قرشي أول من دوّن الحديث وأحد أكابر الحفاظ والفقهاء استقر بالشام ومات بشَغْب آخر حد الحجاز وأول حد فلسطين (٥٨ ـ ١٢٤ هـ) (الأعلام: ج ٧، ص ٩٧).

العباس ـ وحدَّثني ببعض هذا الحديث وزاد عليه شيئاً العباسُ بنُ الفرج الرِّياشي ـ قال: أُغميَ على أميّة بن أبي الصَّلْت في مرضه الذي مات فيه، وهو يقول: لَبَّيْكُما لبَّيْكُما، هأنذا لديكما، لا بريء فأعتذرَ. ولا ذو قوَّة فأنتصِرَ. ثم أُغميَ عليه ثم أفاق وهو يقول: لبَّيكما لبيكما، هأنذا لديكما، لا مالٌ يَفْديني، ولا عشيرة تحميني. وأُغميَ عليه ثم أفاق وهو يقول: لبَّيكما لبَّيكما، هأنذا لديكما، محفوف بالنِّعم:

[الرجز]

إنْ تَـغْـفِـرِ الـلَّـهُـمَّ تَـغْـفِـرْ جَـمّـا ... وأَيُّ عَـبْـدٍ لَـكَ لا أَلَـمَّـا؟

ثم قال:

[الخفيف]

كُـلُّ عَـيْـشٍ وَإِنْ تَـطـاولَ يَـوْمـاً ... قَـصْـرُهُ مَـرَّةً أَنْ يَـزولا

لَـيْـتَـنـي كُـنْـتُ قَـبْـلَ ما قَـدْ بَـدا لـي ... فـي رؤوسِ الـجِـبـالِ أَرْعـى الـوُعـولا

اجْـعَـلِ الْـمَـوْتَ نُـصْـبَ عَـيْـنَـيْـكَ وَاحْـذَرْ ... غَـوْلَـةَ الـدَّهْـرِ إِنَّ لِـلـدَّهْـرِ غُـولا

قال أبو الحسن عن إسحاق بن أيوب: إنَّ عبد الله بن عبد الملك بن مروان لمَّا نزل به الموت بُشِّر بقدوم مالٍ له كثيرٍ كان له بِمصرَ، فقال: مالي وله! لَيْتَه كان بَعَراً حائلاً بنجد.

وقال عوانةُ: قال نافعُ بنُ علْقمة[١] حين حُضر: ليت القرابة التي كانت بيني وبين مروان كانت بيني وبين رجلٍ من الزِّنْج، ولم أُدخل في شيء من هذا الأمر.

وقال أبو الحسن عن الحسن بن دينار: كان الحسنُ البصريُّ يُغمى عليه ثم يُفيق فيقول: ساعةُ صبرٍ واحتسابٍ وتسليمٍ لأمر الله عزّ وجل، حتى مات.

قال: وكان محمَّد بن سيرين يقول، وهو في الموت: في سبيل الله نفسي أعزّ الأنفس عليّ، حتى هلك.

وقال يحيى بن زكريا[٢] عن أبيه إنَّ الشّعبي قال وهو بالموت: اشهدوا أني قد احتسبتُ نفسي عند الله تعالى.

---

(١) نافع بن علقمة بن نضلة بن صفوان بن محرث: والي مكة والمدينة خال مروان بن الحكم (البيان والتبيين: ج ٢، ص ٢٦).

(٢) يحيى بن زكريا بن أبي زائدة «أبو سعيد»: فقيه محدث تولى قضاء المدائن وتوفي سنة ١٨٢ هـ (تاريخ بغداد: ج ١٤، ص ١١٥).

وقال قيس بن الربيع: بلغني أنَّ إبراهيم النّخعَي بكى عند الموت فقيل له: ما يبكيك؟ فقال: ولمَ لا أبكي؟ وإنما أنتظر مُبشراً يُبشرني بالجنَّة أو بالنار. واللّهِ لودِدت أنّها تجلْجَل في صدري إلى يوم البعث.

وقال حَفصُ بن ميْمون عن يونس وغيره عن الحسن أنه قال: إذا كان يومُ القيامة قيل لمن كان يحدّث بالرُّخْص: لمَ حَدّثتم عبادي بالرُّخْص قالوا: سمعناك تذكر أنَّ رحمتي وَسِعَت كلَّ شيء، وأنك تغفِرُ الذنوب غيرِ الشِّرك، فحدثناهم ليَشكرُوك ولا يقنَطوا من رحمتك. فيقولُ لهم: قد جعلتُ ثوابكم على ذلك الجنَّة.

وقال أبو الحسن: بلَغني أنَّ سليمان التَّيمي[1] قال لابنه وهو بالموت: يا بُنيَّ، حدِّثني بالرُّخَص حتى ألْقى الله وأنا له راج.

وقال أبو الحسن عن أبي محمّد الناجي قال: قال حُذيفة[2] وهو بالموت: حبيبٌ جاءَ على فاقةٍ، لا أفلَح منْ ندِم. الحمد لله الذي سَبَق بي الفِتن. أليس بين يديّ ما أعلم.

وقال النَّضر بن إسحاقَ: قيل للحسن: إن الحجّاج قال عندَ الموت: اللّهمّ، إنَّ هؤلاء يزعمون أنك لا تغفر لي. اللّهمّ، فاغفر لي ذنوبي، فإنها صغيرة في جنْبِ عفوك. فقال الحسنُ: أقالها؟ قالوا: نعم. قال: عسى!

وقال أبو الحسن عن مسلمة بن مُحارب: قال مَسلمة بنُ عبد الملك لعمر بن عبد العزيز: أوصِ إليَّ ببنيك أو: ألا توصي إليّ ببنيك فقال: أُوصي بهم إلى الذي نزَّل الكتاب، وهو يتولّى الصالحين ونظر إلى وَلده فقال: بنفسي فِتْيةٌ أفْقَرتُهم من هذا المال، ثم قال: وَنعْم المذهُوب إليه ربِّي. وقرأ قارئ من ناحية البيت ﴿**تِلْكَ الدّارُ الآخِرةُ نَجْعَلُها للّذينَ لا يُريدونَ عُلوّاً في الأرضِ وَلا فساداً، والعاقِبَةُ لِلمُتقّين**﴾[3]. فقالها عمر ثم قضى.

---

(١) سليمان بن طرخان البصري: عابد ناسك توفي سنة ١٣٤ هـ (تهذيب التهذيب ج ٤، ص ٢٠١).

(٢) حُذَيفة بن حسل بن جابر العبسي أبو عبد الله واليمان لقب حسل: صحابي من الولاة الشجعان الفاتحين كان صاحب سر رسول الله في المنافقين تولى المدائن وغزا نهاون والدينور وماه سندان وافتتح همذان والري أيضاً توفي في المدائن (... ٣٦ هـ) (الأعلام: ج ٢، ص ١٧١).

(٣) سورة القصص: الآية ٨٣.

قالَ عوانةُ: قال الوليدُ بن عقبَة[١] عند الموت وهو بالبَليخ[٢] من أرض الجزيرة: اللَّهم، إن كان أهلُ الكوفة صدَقوا عليَّ، فلا تَلْق روحي منك رَوْحاً وَلا رَيحاناً، وإن كانوا كذبوا عليّ فلا تُرَضِّهِمْ بأمير، ولا تُرَضِّ أميراً عنهم، وانتَقِم لي مِنْهم واجْعَله كفَّارة لما لا يعلمون من ذنوبي.

قال أبو الحسن عن علي بن سليمان[٣]: دخل عمر بن عبد العزيز على رجلٍ وهو يجودُ بنفسه، فقال له: استغفر الله، فقيل له: يا أبا حفص، لوْ لقَّنته شهادَة أن لا إله إلا الله، فقال عمر: إنّ لا إله إلا الله من ذنبه، وله ذنوب يستغفر اللّهَ منها، فإذا استغفر الله فقد وحده، وإنّ المستغفرَ الخائف بِعُرضِ خَيرٍ.

وقال أبو الحسن المدائني عن المنهال بن عبد الملك، مولى بني أمية حبَس هشام بن عبد الملك عياضَ بن مُسلم ـ كاتب الوليد بن يزيد ـ وضربه وألبَسه المسوح[٤] فلم يزَلْ محبوساً مدة هشام، فلما ثقُل هشام وصار في حدٍّ من لا يُرجى بُرؤه رَهَقته غَشْيةٌ، فظنّوا أنه قد مات، أَرْسل عياضُ ابن مسلم إلى الخُزَّان أن احتفِظوا بما في أيديكم، فلا يَصِلَنَّ أحدٌ إلى شيء وأفاق هشام من غشْيته، فأرْسل يطلب شيئاً من الخُزَّان فمُنع. فقال هشام: أُرانا كنَّا خُزَّاناً للوليد، وخرَج عياض من ساعته من الحبس، فخَتمَ الأبواب والخزائن، وأمر بهشام فأنزلِ عن فُرُشه، ومنعهم أن يُكَفِّنوه من الخزائن. فكفَّنهُ غالب، مولى هشام، ولم يجدوا قُمْقُماً يُسَخَّنُ فيه ماء حتى استعاروه، فقال الناسُ: إنَّ هذه لعبرَةٌ لمن اعتبَر.

قال أبو الحسن عن عبد الله بن قائد عن أشياخِ بني تميم قالوا: خرج إياسُ بنُ قَتادة يوم الجُمعة من المسجد فنظر إلى السماء ثم قال: مرحباً بك، قد كنتُ أنتظر مجيئك! ثم سقط فحُمِل إلى أهله، فمات. فحُمل إلى «ملحوب»[٥] فدفن بها، فبها قبره.

وقال أبو المنذر عن عمه عامرِ بنِ حفْصٍ قال: قيل للربيع بن خُشَيم حين

---

(١) الوليد بن عقبة بن أبي معيط الأموي القرشي «أبو وهب» والٍ من شعراء وأجواد قريش ولاه عثمان الكوفة وهو أخوه لأمه توفي بالرقة (ـ/ ٦١ هـ) (الأعلام: ج ٨، ص ١٢٢).

(٢) البليخ: نهر بالرقة.

(٣) علي بن سليمان بن الفضل «الأخفش الأصغر» نحوي بغدادي أقام في مصر ثم ارتحل إلى حلب وتوفي في بغداد (../ ٣١٥) (الأعلام: ج ٤، ص ٢٩١).

(٤) المسوح: جمع مِسْح: لباس من شعر.

(٥) مَلْحوب: اسم موضع (اسم ماء لبني أسد) (معجم البلدان: ج ٥، ص ١٩١).

ثَقُلَ: ألا ندعو لك أصحابَ الطِّب؟ فقال: قد أردتُ ذلك ثم ذكرتُ عاداً وثمود وأصحاب الرَّسِّ وَقروناً بين ذلك كثيراً، وَعلمتُ أنه كان فيهم الداء والمداوي. فهلَكوا جميعاً.

وقال أبو مِخْنَف: مرض مَعبد بن طَوْق العَنبري[1] فجزع فقيل له: كأنك تخاف أنْ تموت! فقال: إي والله، ما أمْرَض إلا خِفت ذاك. قيل له: وَلِم؟ قال: لأني قد استأنيْتُ احتضار المدة، وانقضاء العدة، وتمام الظمأ واتجاه القرب.

وقال عوانة عن الأسود بن عُبيد: قال أبو قيس بن الأسلتِ عند الموت: اللهم، إنَّك تعلم أني لم أقطع رَحِماً، ولم أشرَبْ بإناءٍ غادر، ولم أَصْبُ بكَنَّة ولم أَبِتْ ليلةً جُنُباً حتى أصبح، فاغْفِر لي.

وقال الحِرمازيّ: هلَكَ لرجلٍ من أهلِ البادية ابنان، فسئل عن جَزعه عليهما فقال: كنتُ أَتوهمهما حتى كأنّ الأرض تنشَقُّ عنهما فأنظر إليهما. قيل له: ثم مَهْ؟ قال: ثم كان جُرحاً فبَرأ.

وقال أبو الحسن: أخبرني بعضهم قال: أتيت امرأةً أُعزِّيها عن ابنها. قال: فجعلتْ تُثني عليه فقالت: كان، والله، مالُه لغير بطنه، وأَمْرُهُ لغير عِرْسه، وكان:

[الطويل]

رَحيبَ الذِّراع بالَّتي لا تَشينُهُ وَإنْ كانَتِ الفَحْشاءُ ضاقَ ذَرْعا

قال: فقلت لها: هل لك منه خلَفٌ؟ وأنا أعني الولد ـ قالت: نعم، بحمد الله كثير، طيِّبُ ثوابِ اللّهِ عليه، ونِعْم العِوَضُ من الدنيا والآخرة.

وقال: دخل دِرْواش بن حبيب العِجليّ على جعفر بن سليمان[2] يعَزّيه بأخيه محمَّد بن سليمان، فلما نظر إليه جعفر قال: إن كان عند أحَدٍ فرَجٌ فعند دِرواش. فسلم ثم قال: أيها الأمير، التَمِسْ ثوابَ الله بحسن العزاء، والشكرِ لأمر الله، واذكُر مصيبتك في نفسك تُنسك فَقْدَ غيرك وَاذكر قول النبي ﷺ: «مَنْ أصابته مصيبةٌ فَلْيذكر مصيبَتَهُ بي فإنَّها منْ أعظَم المصائبِ». وَاذكر قولَ اللّهِ عزَّ وجل لنَبيه ﷺ: **﴿إنَّك ميِّت وإنّهم مَيّتونَ﴾**[3] وقَوله تعالى: **﴿ومَا جعَلْنا لِبَشَرٍ مِنْ**

(١) معبد بن طوق العنبري: أعرابي من البصرة جيّد الشعر (البيان والتبيين: ج ٣، ص ٢٣١).

(٢) جعفر بن سليمان بن علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب: ابن عم السفاح والمنصور (البيان والتبيين: ج ٣، ص ١٣٦).

(٣) سورة الزمر: الآية ٣٠.

قَبْلِكَ الخُلْدَ﴾[1]. وَخُذْ بقول عبد الله بن أراكة في أخيه عمرو:

[الطويل]

تَفَكَّرْ فَإِنْ كانَ البُكا رَدَّ هالِكاً ... عَلى أَحَدٍ فاجْهَدْ بُكاكَ على عَمْرِو
وَلا تَبْكِ مَيْتاً بَعْدَ مَيْتٍ أَجَنَّهُ ... عَلِيٌّ وَعَبَّاسٌ وَآلُ أَبي بَكْرِ

قال: وهلك أخٌ لبعض الأعراب فأظهر له الشماتة بعض بني عمِّه، فأنشأ الأعرابيّ يقول:

[الكامل]

وَلَقَدْ أَقُولُ لِذي الشَّماتَةِ إذْ رَأى ... جَزَعي، وَمَنْ يَذُقِ الفَجِيعَةَ يَجْزَعِ
اشْمَتْ فَقَدْ قَرَعَ الحَوادِثُ مَرْوَتي ... وَافْرَحْ بِمَرْوَتِكَ الَّتي لَمْ تُقْرَعِ
إنْ تَبْقَ تُفْجَعْ بالأَحِبَّةِ كُلِّهِمْ ... أَوْ تُرْدِكَ الأحْداثُ إنْ لَمْ تُفْجَعِ

قال: وماتَ بنون لامرأة تباعاً فكلمناها، فحدثتنا ساعة ثم ضحكت، فقالت لها امرأة: أتضحكين! أجنُون بك أمْ فَنَد[2]! قالت: لا، وأبيك، ولكنَّ الشرّ لم يجد لي مَزيداً.

قال أبو الحسن المدائني: وأنشد ابن كُناسة:

[الطويل]

لا تَجْزَعي يا أُمَّ زَيْدٍ فَإِنَّهُ ... سَتَأْتي المَنايا كُلَّ حافٍ وَذي نَعْلِ
فَلَوْلا الأُسى ما بِتُّ في النَّاسِ لَيْلَةً ... وَلَكِن إذا ما شِئْتُ جاوَبَني مِثْلي

وقال محمد بن كناسة عن خُشاف الفَقْعَسي قال: حدَّثتني أمي قالت: دخلت علينا عجوزٌ للحيّ اسمها (بادية) ـ ورحالُ إخوتي ثمانية في جانب البيت ـ فقالت لي: لمن هذه الرحال؟ أنزلَ بكم الليلة ركبٌ؟ قلت: هذه رحال إخوتي. فقالت: لقد ولدت لك أمُّك حزناً طويلاً. قالت: وصدَقتْ بادية، ذهبت نفسي عليهم قطعاً. وأنشدت:

[الكامل]

ذَهَبوا بِنَفْسيَ أَنْفُساً إذْ فارَقوا ... فَالْعَيْشُ بَعْدُ مُنَغَّصٌ مَذْموم

وقال عمر بن غياث: أخبرني الثقة قال: دَفن أعرابيٌّ ابناً له، فلما أجنَّه وقف على قبره وأنشأ يقول:

[الكامل]

---

(١) سورة الأنبياء: الآية ٣٤.
(٢) فَنَد: خطأ الرأي والقول.

لَـمَّـا مَـشـى وَرَجَـوْتُـهُ لِـغَـدِ وَطَـمِـعْـتُ أَنْ يَـقْـوى بِـهِ أزْري
وَيَـكـونَ مِـنْ أَعْـمـامِـهِ خَـلَـفاً فَـيَـقُـومَ بَـعْـدَ تَـأَطُّـرِ ظَـهْـري
رَشَـقَـتْـهُ عَـنْ قَـوْسٍ مَـنِـيَّـتُـهُ فَـغَـدا رَهِـيـنَـةَ مُـظْـلِـمِ الـقَـعْـرِ
قَـدْ كـانَ يَـضْـرِبُ مَـنْ مَـضـى مَـثَـلاً وَجْـدَ الـثَّـكـولِ وَكُـنْـتُ لا أَدْري
مـا ذاكَ حَـتَّـى ذُقْـتُ لَـوْعَـتَـهُ فَـأَلَـذُّ مِـنْـهـا لَـوْعَـةُ الـصَّـبْـرِ

وخرج رجل مع خالد بن الوليد بدُومة الجندَلْ[1]، فاستُشهد فجزع عليه أبوه فبكاه حتى كَثر عليه بكاؤه، فَلِيم في ذلك وعوتب، فقال: دَعُوني أبكي عليه ما أسعَدتني عينِي، فإن دموعها سَتَنْفَدُ وتبلى كما ذهب نافع وَبلي. وقال يرثيه:

[الكامل]

مـا بـالُ عَـيْـنـيَ لا تُـغَـمِّـضُ سـاعَـةً إلاّ اعْـتَـرَتْـنـي عَـبْـرَةٌ تَـغْـشـانـي
أَرْعـى نُـجـومَ الـلَّـيْـلِ عِـنْـدَ طُـلوعِـهـا وَهْـنـاً وَهُـنَّ مِـنَ الـغِـيـارِ دَوانِ
يـا نـافِـعـاً مَـنْ لِـلْـفَـوارِسِ أَحْـجَـمَـتْ عَـنْ شِـدَّةٍ مَـذْكـورَةٍ وَطِـعـانِ؟
فَـلَـوَ اسْـتَـطـيـعُ جَـعَـلْـتُ مِـنّـي نـافِـعـاً بَـيْـنَ الـلَّـهـاةِ وَبَـيْـنَ عَـكْـدِ لِـسـانـي
يـا نـافِـعـاً مَـنْ لِـلْـفَـوارِس إذْ ثَـوَوا فـي يَـوْمِ بُـؤْسٍ أَو لِـيَـوْمِ لِـيـانِ؟

قال أبو الحسن: حدثني كليب بن خَلَف عن إدريس بن حَنظلة قال: أُصيب عمرو بنُ كعب النَّهدي بِتُسْتر مع مَجزأة بنِ ثوْر[2] فكتموا أباه الخبرَ ثم عَلَم بَعْدُ فلم يجزع وقال: الحمدُ لله الذي جعل من صُلْبي من أصيب شهيداً وقال:

[الوافر]

فَـهَـلْ تَـغْـدُو الْـمَـقـادِرُ يـا لَـقَـوْمـي هَـلاكَ الْـمـالِ أَوْ فَـقْـدَ الـرِّجـالِ!
فَـكُـلاًّ قَـدْ لَـقِـيـتُ وَقَـلَّـبَـتْـنـي صُـرُوفُ الـدَّهْـرِ حـالاً بَـعْـدَ حـالِ
فَـمـا أَبْـقَـيْـنَ مِـنّـي غَـيْـرَ نِـضْـوٍ بِـهِ أَثَـرُ الـرِّحـالَـةِ والْـحِـبـالِ
عَـروفٍ[3] كُـلَّـمـا جَـلَـبَـتْ قُـرُوحٌ بِـهِ نُـكِـئَـتْ بِـأَعْـدالٍ ثِـقـالِ

(١) دومة الجندل: حصن وقرى بين الشام والمدينة قرب جبلي طيء (معجم البلدان: ج ٢، ص ٤٨٧).

(٢) مَجزأة بن ثَوْر بن عفير السدوسي: شجاع فاتح صحابيّ جعل له عمر رئاسة بكر بن وائل وهو الذي فتح مدينة تستر وفيها قُتل (.../٢٠ هـ) (الأعلام: ج ٥، ص ٢٧٩).

(٣) العَروف: الصبور.

ثم استُشهد ابنٌ له آخر يقال له «حَمَل» مع سعيد بن العاصي بجُرجان فبلغه فقال: الحمد لله الذي توفي مني شهيداً. وقال:

[الطويل]

جَـزَى حَـمـلاً جَـازي الْـعِـبـادِ كَـرامَـةً ... وَعَـمْـرو بـنَ كَـعْـبٍ خَـيْـرَ مـا كـانَ جَـازِيـا

خَـلِـيـلَـيَّ وابْـنَـيَّ الـلَّـذَيْـنِ تَـتـابَـعـا ... شَـهِـيـدَيْـنِ كـانـا عِـصْـمَـتـي وَرَجـائِـيـا

وَمَـنْ يُـعْـطِـهِ الـلَّـهُ الـشَّـهـادَةَ يُـعْـطِـهِ ... بِـهـا شَـرَفـاً يَـوْمَ الْـقِـيـامَـةِ عـالِـيـا

وقال محمد بن كُناسة: زَوّج زَبّانُ بن مَنصور الحسنَ بن علي بن أبي طالب خولةَ ابنة زَبان، فمكثت عنده حَوْلاً لا تكتحل ولا تدّهن حتى وضعت له ابناً، فاكتحلت وتهيأت له. فقال لها الحسن: ما حملكِ على ما صنعتِ؟ فقالت: كرهتُ أن تقول النساء: احتفلت فلم تَصْنع شيئاً. فأمّا إذْ جاء هذا فما أبالي ما كان. فقال لها الحسن: وَا بِأبي أنت! فلما مات الحسن اشتدَّ جزعها عليه، فقال زبّان:

[الكامل]

نُـبِّـئْـتُ خَـوْلَـةَ أَمْـسِ قَـدْ جَـزِعَـتْ ... مِـنْ أَنْ تَـنُـوبَ نَـوائِـبُ الـدَّهْـرِ

لا تَـجْـزَعـي يـا خَـوْلُ واصْـطَـبِـري ... إنَّ الْـكِـرامَ بُـنُـوا عـلـى الـصَّـبْـرِ

قال: وحدّثني رجلٌ من بَجيلة[1] عن امرأة من بني العَنبر يقال لها مهديّة، قال: وكان لها بنون وإخوة فهلكوا حتى بقي لها ابنٌ فمات فقالت:

[الوافر]

أَمُـنْـجـابَ الأَكـارِمِ مَـنْ لِـرَكْـبٍ ... أَنـاخُـوا جَـنْـبَـةً وَدَنَـوْا أَصِـيـلا؟

أَمُـنْـجـابَ الأَكـارِمِ عُـدْ إِلَـيْـنـا ... لِـكَـي نَـشْـفـي بِـرؤيَـتِـكَ الْـغَـلِـيـلا

كَـأَنَّـكَ لَـمْ تَـقُـلْ لِـلـرَّكْـبِ سِـيـروا ... وَلَـمْ تَـرْحَـلْ عُـذافِـرَةً ذَمُـولا[2]

وقال عن علي بن سليمان بن الحسن قال: الخير الذي لا شر فيه الشكرُ مع العافية، والصبر عند المصيبة. فكم من مُنعَمٍ عليه غيرُ شاكر، ومُبتلًى غيرُ صابر.

وقال أبو الحسن: قال جَهْم بن حسّان: بلغني أن تَوْسِعة بن أبي عِتبان جزع على أخيه عُتْبَة فقال يبكيه:

[الكامل]

---

(١) بجيلة: حيٌّ باليمن من معد.

(٢) العُذافِرَة: العظيم الشديد من الإبل وذَمل: سار سيراً ليناً.

مَنَعَ الرُّقادَ تَحَوُّبي ما أَهْجَعُ وَنَبا بِجَنْبي عَنْ فِراشيَ مَضْجَعُ
أُعُتَيْبَ قَدْ كُنْتُ امْرَءاً لِي جانِب حَتَّى رُزِئْتُكَ وَالْجُدُودُ تَضَعْضَعُ
فَلِمَنْ أَقُولُ إذا تُلِمُّ مُلِمَّةٌ أَرِني بِرَأْيِكَ أَمْ إلى مَنْ أَفْزَعُ؟
قَدْ كُنْتُ أَنْظُرُ في الْمَقامَةِ سادِراً فَنَظَرْتُ قَصْدِي واسْتَقامَ الأَخْدَعُ
وَفَقَدْتُ إخواني الَّذينَ بِقُرْبِهِمْ أُعْطي الدَّنِيَّةَ مَنْ أَشاءُ وَأَمْنَعُ
نِعْمَ الفَتى مِنْ آلِ بَكْرٍ أَلْبَسُوا أَثْوابَهُ في اللَّحْدِ ثُمَّ تَصَدَّعُوا
عَنْهُ وَما طابَتْ بِذاكَ نُفُوسُهُمْ وَلِكُلِّ جَنْبٍ لا مَحالَةَ مَصْرَعُ

وجزعت عليه أخته عَمْرَة فقالت:

[الكامل]

قُلْ لِلأَرامِلِ وَالْيَتامَى قَدْ ثَوَى فَلْتَبْكِ أَعْيُنُها على عَتَّابِ
أَوْدَى ابْنُ كُلِّ مُخاطِرٍ بِتِلادِهِ وَبِنَفْسِهِ بَقْيا على الأَحْسابِ
الرّاكِبينَ مِنَ الأُمورِ صُدُورَها لا يَرْكَبُونَ مَعاقِدَ الأَذْنابِ

قال أبو الحسن: قال الهلالي: أُغمي على سعيد بن المسيب فوُجِّه ثمَّ أفاق فقال: ما هذا؟ فقيل له، فقال: أوَ ليس وجهي لله جلَّ ذِكره حيثُ كان!

وقال الهلالي: كان عثمان بن عفان، رحمه الله، إذا وقف على قبرٍ بكى، فقيل له: يا أمير المؤمنين، إنك لتَبكي عند القبر بكاءً ما تبكيه عند شيء! فقال: نعَم، إنهُ آخِرُ منازل الدنيا وأوّلُ منازل الآخرة، فَإن شُدِّد على صاحبه فما بعدهُ أشدُّ، وإن هُوِّن على صاحبه فما بعده أهْوَن. سمعتِ رسولَ الله ﷺ يقول: ما رأيت منظراً قطُّ إلا والقبرُ أفظعُ منه.

وقال الهلاليُّ: لما حضرت معاويةَ الوفاةُ، قيل له: قل لا إله إلا الله. فضَعُف عنها، ثم قيل له فضعف، فثُلِّث عليه. فقال: أوَ لسْتُ من أهلها!

وقال الهلالي: أثْنى قومٌ على عَوْفِ الأعرابيّ وهو في الموت، فقال: يا قوم، أمِدّونا بالدعاء، واعفونا من الثناء.

باب الجُفاة عند الموت

قال أبو العباس رحمه الله تعالى: ونذكر الجفاةَ عند الموت:

قال عليّ بن محمد بن عليّ بن مجاهد عن ابن إسحاق عن الزُّهري أنّ رسول الله ﷺ قال لأبي طالب وهو في الموت: يا عمّ، قُلْ لا إله إلا الله أشْهَدُ لك بها عند ربِّي. قال: يا بن أخي، لولا أنْ تكونَ سُبَّة عليك بَعْدي لأقررتُ بها عَيْنَك.

وقال: قال الزُّهري: مرّ عبد الله بن مَسعود[1] بأبي جهلٍ[2] فقال: الحمد لله الذي أخزاك يا عدوّ الله. قال: يا بنَ أمِّ عبدٍ، ما أخزاني اللَّهُ. لستُ بأوّلِ سيدٍ قتله قومُه. إنَّ أشدَّ من ذلك عليَّ ألا يكون وَليَ مني ما تريد أن تَليه، رجلٌ من صميم المُطَيَّبين[3] فوضع ابن مسعود رجله على عنقه فقال: أَرُوَيعياً[4] بالأمس بمكة. لقد ارْتَقيت مُرْتقى صَعباً.

قال أبو الحسن: سئل وكيع بنُ الدَّوْرَقِيَّة[5]: كيف قتلتَ عبد الله بن خازمٍ؟ قال: قعدتُ على صدره، وغلبتُه بفضل فَتاءٍ كان لي عليه وناديت: يا لثارات «دُوَيلة» يعني أخاه من أمه. وكان دويلةُ أخا وكيعٍ من أمه، قتله عبدُ الله. قال:

---

(١) عبد الله بن مسعود بن غافل بن حبيب الهذلي «أبو عبد الرحمن» من كبار الصحابة كان خادم رسول الله وصاحبه ورفيقه ولي بيت مال الكوفة بعد وفاة رسول الله ﷺ وكان قصيراً جداً وكثير التطيب توفي في المدينة (.../٣٢ هـ) (الأعلام: ج ٤، ص ١٣٧).

(٢) عمرو بن هشام بن المغيرة المخزومي «أبو جهل» أحد سادات قريش وأبطالها في الجاهلية وأشدهم عداوة للنبيّ (ـ/٢ هـ) (الأعلام: ج ٥، ص ٨٧).

(٣) المطيبون: حلف لبني عبد مناف (غمس أحلاف بني عبد مناف أيدهم في جفنة طيب عند الكعبة فسمي الحلف بالمطيبين).

(٤) الرُّويعي: تصغير الراعي.

(٥) وكيع بن عمير القريعي السعدي والدورقية أمه وهي من سبي دورق (بلدة نجوزستان) (تاريخ الطبري: ج ٧، ص ١٩٦).

وكنت طعنته في شِدْقِه، فجمع ما كان في فيه من الدّم والرّيق فتنخَّم به، فملأ وجهي وقال: قبّحك الله، أتقتل كبش مضر بأخٍ لك لا يساوي كفَّ نوى!

قال: وكان ابنُ هُبَيرة يقول: هذه والله البسالة، لقدرته على كثرة ريقه عند الموت.

وقال عبدُ الله بن قائد: كان طريفُ بن نافع الباهلي عالماً بالنسب، فلما ثَقُل قال لقومه وهو في الموت: بُلّوا فمي بماء، فعصروا في فيه ماءً بقطنة ثم قال: أَجلِسوني فأجْلَسوه فقال: فُلانٌ ليس لأبيه الذي يُدعى له. فقيل له: أتقول هذا وأنت على هذه الحال! فقال: خِفْت أن أموت وأنتم في شك منه، ثم أضجعره فمات.

وقال يعقوبُ بن عوفٍ عن عبد الله بن أبي بكر أنَّ بَجْرَة بن فراس القُشَيْرِيّ قيل له ـ وقد نزل به الموت ـ: قل لا إله إلا الله، قال: أشهد أن أبا الزاهرية أو أبا حرب نِعْمَ الفارس كان يوم النُّخيْل[1] ثم مات.

وقال عَوانةُ: قال الحجّاج لوازع بن ذُؤالة الكلبي: كيف قتلتَ همَّام بن قَبيصة الفزاري؟ قال: مرَّ بي والناس منهزمون، ولو شاء أن يفوتني فعل، فلما رآني قصدني فضربني وضربته، وسقط وحاول القيام فلم يقدر عليه، وقال وهو في الموت:

[الطويل]

تَعِسْتَ ابْنَ ذاتِ الْبَظْرِ أَجهِزْ على امْرِىءٍ ... يَرى الْمَوْتَ خَيْراً مِنْ فِرارٍ وَأَكْرَما
ولا تَتْرُكَنّي بالحُشاشَةِ إنّني ... صَبورٌ إذا ما النِّكْسُ مِثْلُكَ أَحْجَما

فدنوتُ منه. فقال: أجهزْ عليّ قبَّحك الله، فقد كنت أُحِبُّ أن يليَ هذا مني أربطُ جأشاً منك. فاحتَزَزْتُ رأسه فأتيتُ به مروان وأخبرته الخبر، فقال: لا تبْعَد رجالات قيس!

قال أبو عبد الرحمن التميمي: جاء رجل من كلب برأس زياد بن عمرو اَلعُقيْلي إلى مروان، فقال له مروان: مَنْ قتَل هذا؟ قال: أنا. قال: كذبت! هذا أشرف وأشجع من أن تقتله. قال: أنا، والله، قتلته، مرّ بي يعدو به فرسُه وهو يقول:

[مشطور الرجز]

---

(١) يوم النُّخيْل: من أيام العرب والنخيل: عين قرب المدينة.

قَدْ طابَ وِرْدُ الْمَوْتِ مَرْوانُ فَرِدْ لا تَحْسِبَنَّ الْعَيْشَ أَدْنى لِلرَّشَدْ
لا خَيْرَ في طُول الْحياةِ في كَبَدْ

فطعنتهُ فسقط، ثم نزلتُ إليه وهو يجود بنفسه ويقول:

[السريع]

بُعْداً وَسُحْقاً لامْرِئٍ عاشَ في ذُلٍّ وفي كَفِّيهِ عَضْبٌ صَقِيلْ

وقال يزيد بن قُحَيف: لما قَتلَ حلْحَلةُ بن قَيْس وسعيد بن عُيَيْنة منْ قَتلا منْ «كلْب»، رجعوا إلى «خَيْبر»[1] فأقاموا. فلمَّا ظَفِر عبد الملك استعداه الكَلبيُّون وقالوا: دَماءَنا! فأخذ عبد الملك سعيداً وَحَلْحلة. فأما سعيد فكان يسبِّح ويستغفر، وأمَّا حلْحلَة فقال: أرحنا منك يا بْن الزَّرقاء، فلو ملكتُها منك لما تركتك طرفةَ عَين. وقال:

[الطويل]

إنْ أَكُ مَقْتُولاً أُقادُ بِرُمَّتي فَمِنْ قَبْلِ قَتْلي ما شَفَى نَفْسيَ الْقَتْلُ
وَقَدْ تَرَكَتْ حَرْبي رُفَيْدَةُ كُلَّها مُحالِفُها في دارِها الْجُوعُ وَالذُّلُّ
وَمِنْ عَبْدِ وَدٍّ قَدْ أَبَرْتُ قَبائِلاً فَغادَرْتُهُمْ كُلاًّ يُطِيفُ بِهِ كُلُّ

وقال أيضاً:

[الطويل]

لَعَمْري لَئِنْ شَيْخا فَزارَةَ أَسْلَما لَقَدْ خَزَيتْ قَيْسٌ وَقَدْ ظَفِرَتْ كَلْبُ
فَلا تَأْخُذُوا عَقْلاً وَخُصُّوا بِغارَةٍ بَني عَبْدِ وُدٍّ بَيْنَ دُومَةَ وَالْهَضْبِ
سَلامٌ عَلى حَيَّيْ عَدِيٍّ ومَازِنٍ جَميعاً وَخُصّا بالسّلامِ أَبا وَهْبِ

أبو وهب هو زَبَّان بن منظور بن زَبان. فقال لما بلغه قوله «وخصًّا بالسلامِ أبا وهب»: رحمك الله أبا ثوابَة، لقد كفَيْتنا العار والنار، وأدركت الثأر، ولِلقوم فينا فضلٌ، فلَم تخصُصْنا عليهم، وقد ظلمتهم!

فلما دُعيَ به لِيُقتَل قيلَ له: اصبِرْ حَلْحل، فبرك وقال:

[الرجز]

أَصْبَرُ مِنْ عَوْدٍ بِجَنْبَيْهِ الْجُلَبْ قَدْ أَثَّرَ الْبِطانُ فِيهِ وَالْحَقَبْ

وقال:

[الرجز]

---

(١) خيبر: ناحية على ثمانية برد من المدينة لمن يريد الشام (الموضع المذكور في غزاة النبي ﷺ) (معجم البلدان: ج ٢، ص ٤٠٩).

أَصْبَرُ مِنْ ذِي ضَاغِطٍ عَرَكْرَكْ　　أَلْقَى بَوانِي زَوْرِهِ لِلْمَبْرَكْ

ومدَّ عنقه فقتله رجلٌ من بني عبد الدّ.

وقال عَوانة ويزيد بن عياض إنَّ مسلم بن عقبة المُريّ[1] لما قتَل أهلَ المدينة وتوجه إلى مكة فنزل به الموت، بِثنِيَّة هَرْشا[2] أوْ بِقفا المُشلّل[3] فدعا حُصينَ بنَ نُميرٍ السَّكوني[4] فقال: يا بَرْذعَةَ الحمار، إنَّ أمير المؤمنين عهدَ إليَّ إنْ نزلَ بي الموتُ أن أوَلّيك، وأكره خلافه عند الموت، ولولا ذلك لكان الوالي حُبَيش بن دَلَجة[5] فإنه أوْلى بذلك منك. احفظْ عني ما أقول لك: لا تُطيلنَّ المقامَ بمكّة، فإنها أرضٌ جَرِدَةٌ مُحتدِمة لحرّ، ولا تَصْلحُ الدَّوابُّ بها، ولا تَمنعْ أهلَ الشام من الحمْلةِ، ولا تُمكِّنْ قريشاً من أُذنِك، فإنهم قوْمٌ خُدَّعٌ. لِيَكنْ أمْرُك الوِقاف ثم الثِّقاف ثم الانْصِراف. ولئن دخلتُ النار بعد قتلي أهلَ الحرَّة إني إذَن لشَقيٌّ.

وقال عثمان بن الضحّاك عن ذَكْوان ـ مولى مروان ـ قال: بعث يزيد بطبيب إلى مسْلم فقال مُسلمٌ للطبيب: وَيحكَ، إنما كنتُ أحب أنْ أبقى حتى أشْفِيَ نفسي من قتَلةِ عثمان، وقد أدركتُ ما أردتُ. فما شيءٌ أحبَّ إليّ من الموت على طهارتي قبل أن أُحدِث حدثاً. فإني لا أشك في أن الله عز وجل طهَّرني من ذنوبي بقتل هؤلاء الأرجاس.

وقال ابن جُعْدُبَةَ: قال مسلم بن عقبة وهو بالموت لحُصَين بن نُمَير: إنك تَقدم على قوم لا عُدّةَ ولا سلاح لهم، جبالٌ مشرفةٌ عليهم، فانصِبْ عليهمُ المنجَنيقَ في مَوْضعين بين جبلين فَإنْ تعوذوا بالبيت فَارْمِهِ، فما أقدرَك على بنائه. ومات.

---

(١) مسلم بن عقبة بن رباح المرّي «أبو عقبة» قائد أموي قاس شهد صفين مع معاوية وهو صاحب الحرّة فأسرف قتلاً ونهباً فسمي مسرفاً، مات في الطريق إلى مكة متوجهاً لحرب ابن الزبير في موضع اسمه المشلل ثم نبش قبره وصلب في مكان دفنه (... ـ ٦٣ هـ) (الأعلام: ج ٧، ص ٢٢٢).

(٢) هَرْشا: ثنية في طريق مكة.

(٣) قفا المشلل: جبل من ناحية البحر يهبط إلى قُديد (معجم البلدان: ج ٥، ص ١٣٦).

(٤) حُصين بن نُمير بن نائل الكندي ثم السكوني «أبو عبد الرحمن» قائد من القساة الأشداء حمصي حاصر عبد الله بن الزبير بمكة ورمى الكعبة بالمنجنيق قتل مع ابن زياد قرب الموصل (.../٦٧ هـ) (الأعلام: ج ٢، ص ٢٦٢).

(٥) حُبَيش بن دَلَجة القيني: من قادة الجيوش الأموية شهد صفين مع معاوية وولي جيشاً لمروان لفتح المدينة قتل في الربذة بسهم (.../٦٥ هـ) (الأعلام: ج ٢، ص ١٦٧).

وقال حمزةُ بن إبراهيم بن مُضَرّس: قيل لرجل من بني قُرَيع: قل لا إله إلا الله وَقدِّمْ خيراً فقال:

[البسيط]

يا رُبَّ قائِلَةٍ يَوْماً وَقَدْ لَغِبَتْ كَيْفَ الطَّرِيقُ إِلى حَمّامِ مِنْجابِ

ومات في ساعته.

وقال عبدة العَنْبريّ: قيل لعبد الله بن شعبة بن القَلْعَم[1]: لو قدّمْتَ لنفسك خيراً، فقال لبنيه: يا بنيّ إن قوماً يقولون لكم بعدي: اقضُوا دَيْنَ أبيكم عنه، فلا تفعلوا، فإن لأبيكم ذنوباً كلُّها أعظمَ من الدَّيْن. اللَّهمَّ، إنْ تَغفرْ جمّاً. فبكت امرأتُه، فقال: لا تُعَصِّري عينيك عليّ، وإذا متُّ فاركبي بغلاً قوياً وطوفي اليمن وانظري أطْولَ بني تميم رَقبَةً فتزَّوجيه. فلما هلك تزوجها أبو شيخ بن العرق الفقيمي.

وقال: لما حضرت لبيدَ بنَ ربيعة الوفاةُ قال لبني عمه: أسمِعوني كيف تَبكون علي. فقال رجال منهم أشعاراً لم يرْضها، فقال بعضهم:

[الطويل]

لِتَبْكِ لَبيداً كُلُّ قِدْرٍ وَجَفْنَةٍ وَتَبْكِ الصَّبا مَنْ فادَ وَهو حَميدُ

ولمّا حضرت الفرزدقَ الوفاةُ قال لأهله ومن اجتمع إليه من قومه:

[الوافر]

أَرُوني مَنْ يَقُومُ لَكُمْ مَقامي إذا مَا الأَمْرُ جَلَّ عَنِ العِتابِ

إلى مَنْ تَفْزَعُون إذا حَثَيْتُمْ بِأَيْدِيكُمْ عَلَيَّ مِنْ التُّرابِ

فقالت مولاته له: إلى الله. فقال: وَأنتِ تعيشين في مالي؟ امحوا اسم الخبيثة من الوصية.

وقال المدائني: لما هلك الأحوصُ بن محمد بن عبد الله بن ثابت الأنصاري[2] كان آخر ما قال، ورأسه في حِجْر جاريةٍ له يقال لها بُشْرَة:

[الطويل]

---

(١) عبد الله بن شعبة بن القلعم أبوه نسابة ذو لسان وجواب وعارضة وكان وصافاً فصيحاً وإخوته عمر وخالد وهم على صفته (البيان والتبيين: ج ١، ص ٢١٤).

(٢) الأحوص عبد لله بن محمد بن عبد الله بن عاصم الأنصاري: شاعر هجّاء كان حماد الراوية يفضله في النسيب على شعراء زمانه توفي بدمشق (ـ/ ١٠٥ هـ) (الأعلام: ج ٤، ص ١١٦).

مـا لِـجَـديـدِ الـمَـوْتِ يـا بُـشْـرُ لَـذَّةٌ ... وَكُـلُ جَـديـدٍ تُـسْـتَـلَـذُّ طَـرائِـفُـهْ
فَـلاَ ضَـيْـرَ إنَّ الـلَّـهَ يـا بُـشْـرُ سَـائِـقـي ... إلـى مَـنْـزِلٍ فِـيـهِ تَـكُـونُ خَـلائِـفُـهْ
فَـلَـسْـتُ وَإنْ عَـيْـشٌ تَـوَلَّـى بِـجـازِعٍ ... وَلا أَنـا مِـمّـا حَـمّـل الـمَـوْتُ خـائِـفُـهْ

وقال عَوانةُ: لما حُضِر بأخَزَةٍ قيل له: قل لا إله إلا الله. قال: قد بلغ الأمر إلى هذا؟

وقال مُغَلِّسُ بن عبد الله المحاربيّ: كنتُ بِساباط[1] فسمعت غلاماً يصيحُ واسيّداه! يعني نوفل بن صالح مولى بني جعفر، فأتيتُه فإذا هو يجودُ بِنَفسه. فقلت: أبا صالح، قل لا إله إلا الله، فأبى وقال:

[الطويل]

أَيا وَيْح نَفْسِي حَسْبُ نَفْسِي الَّذي بِها ... وَيـا وَيْـحَ أَهْـلـي مـا أُصِـيـبَ بِـهِ أَهْـلـي

فقلت: قل لا إله لا الله. فأبى، وجعل يردّد هذا البيت حتى قُبِضَ.

وقال يونس بن حبيب[2]: لما حضرت أخا الأبحّ الكندي الوفاةُ قيل له: قل لا إله إلا الله، فلما أكثروا عليه جعل يتقلب على جَنْبه ويقول:

وَقَـدْ حِـيـلَ بَـيْـنَ الـعَـيْـرِ وَالـنَّـزَوانِ

وقال أبو عمرو المدني وغيره: إن سالم ابن دارة[3] ـ وهي أمه، وأبوه مُسافعُ بن عُقبة، من بني عبد الله بن غَطفان ـ وقعَ بينه وبين زُميل ابن أمّ دينار[4] ـ وأبوه أُبَير، من بني فزارة ـ شرٌّ، فضربه، فجرحه أبير، فأدخل المدينة، وحُمل إلى عثمان بن عفان، فأمرَ عثمانُ الطبيب فنظر ما مَبلغ جُرحه ثم أمره فداواه، فأفاق من وجعه، فدسَّت أمُّ البنين بنت عُيينة بن حصن ـ وهي امرأة عثمان ـ إلى الطبيب دينارين. وقال قوم: بل أعطاه ذلك مَنْظور بن سيَّار[5] فسَمَّ جُرحَه، فانتقض فقال لأبيه وهو بالموت يَحضُّه على قتل منظور:

[البسيط]

(١) ساباط: موضع بالمدائن معروف (معجم البلدان: ج ٣، ص ١٦٦).

(٢) يونس بن حبيب: تقدمت ترجمته.

(٣) سالم بن مسافع بن يربوع: شاعر مخضرم هجا بني فزارة فقتله زُميل الفزاري (البيان والتبيين: ج ١، ص ٣٨٩).

(٤) زميل ابن أم دينار: أحد بني مازن بن فزارة مخضرم.

(٥) منظور بن زَبّان بن سيار الفزاري: صحابي وشاعر مخضرم تزوج مليكة امرأة أبيه ففرق بينهما أبو بكر عاش إلى زمن عثمان (.../٢٥ هـ) (الأعلام: ج ٧، ص ٣٠٨.

أَبْـلِـغْ أَبـا سـالِـم عَـنّـي مُـغَـلْـغَـلَـةً ... فَـلا تَـكُـونَـنّ أَدْنَـى الـقَـوْمِ لِـلْـعـارِ
لا تـأْخُـذَنْ مِـئـةً مِـنّـي مُـكَـمَّـلَـةً ... وَإنْ أَتـاكَ بِـهـا تُـحْـدَى ابْـنُ عَـمّـارِ
لـو كـانَ زَيْـدٌ هـو الـمَـقْـتُـولَ لاعـتَـرَفـوا ... وَسْـطَ الـدِّيـارِ غُـلامـاً غَـيْـرَ عَـوّارِ

ومات منْ يومه. فقال أبوه: إن ابني عقَّني في حياته، وكلَّفني تعباً بعد موته.

وقال أبو الحسن ـ قال أبو العباس: وحدَّثنيه أبو عثمان المازنيّ وحدّث به أبو الحسن عن عبد الله بن مسلم ـ قال: قيل لامرأةٍ من بني نُمير: أوصي ـ فحدّثني أبو عثمان المازني أنّها قالت: م أحبُّ أن أوصي. قيل: إن لك في ذلك لأجراً، قالت: منَ الذي يقول:

[الوافر]

لَـعَـمْـرُكَ مـا رِمـاحُ بَـنِـي نُـمَـيْـرٍ ... بِـطـائِـشَـةِ الـصُّـدُورِ وَلا قِـصـارِ

قالوا: زيادٌ الأعجم، قالت: وممّن هو؟ قالوا: من بني نمير قالت: فَثُلثي لبني نُمير.

وقال أبو الحسن عن كليب بن خلف قال: مَرضتْ عجوزٌ من بني نمير فأتَوْها بعطاء ابنها، وكان غائباً، فقالوا: هذا عطاء ابنك، وقد نقصناه درهمين. قالت: ولِمَ؟ قالوا: قَتلَ رجلٌ من بني نُميرٍ رجلاً من بني سَلول، فحملنا الديَّة شيئاً تراضَوْا به، فتناولت درهمين آخرين فألقتهما إليهم وقالت: قولوا له يقتل آخرَ، وادفعوا هذيْن في الدية، فضحكوا وخرجوا، فما غابوا حتى ماتت.

وقال عوانةُ: قيل للحُطَيئة عند موته: لك مالٌ فأوْص منه للمساكين. قال: بل أوصيهم بإلحاف المسألة. قيل: فأعتِقْ غلامَك «سيَّار». قال: هو عبدٌ ما بقيَ على ظهْر الأرض عبسيّ. قيل: فأوص فإنَّ لك بناتٍ. قال: مالي كله للذكور دون الإناث. قالوا: إن الله جلَّ ذكره لم يقل هكذا. قال: لكني أقوله. وأوصيكم بالأيتام شرّاً، كلوا أموالهم، وانْكِحوا أُمَّهاتهم، واحملوني على حمار، فلعلّي لا أموت، فإنه لم يمت عليه كريمٌ قط، وَويْلٌ للشعرْ من راوية السوء.

وقيل له وهو يجود بنفسه: قل لا إله لا إلا الله، فتمثَّل قولَ الشمّاخ[1]:

[الطويل]

---

(١) الشَّمّاخ بن ضرار بن حرملة بن سنان المازني الذبياني الغطفاني: شاعر مخضرم أدرك الجاهلية والإسلام كان أرجز الناس على البديهة توفي في غزوة موقان (.../٢٢ هـ) (الأعلام: ج ٣، ص ١٧٥).

فَـظَـلَّـتْ بِـيَـمْـؤُودٍ[1] كَـأَنَّ عُـيـونَـهـا إلى الشَّـمْـسِ هَلْ تَـدْنُـو رُكِـيٌّ نَـواكِـزُ

وقال أبو الحسن عن أبي خَيْران الحِمّاني[3] عن عوْفٍ الأعرابيّ عن أبي رجاء العُطارِدي قال: رأيت رجلاً مصْطَلَم الأذُن فقلت: أخِلقةٌ أمْ حادثٌ؟ قال: بل حادث. بينا أنا يوم الجمل أجول في القتلى، مررت برجل منهم ينشد:

[الطويل]

لَـقَـدْ أَوْرَدَتْـنـا حَـوْمَـةَ الـمَـوْتِ أُمُّـنـا فَـمـا صَـدَرَتْ إلاَّ وَنَـحْـنُ رِواءُ

أَطَـعْـنـا قُـرَيـشـاً ضِـلَّـةً مِـنْ حُـلـومِـنـا وَنُـصْـرَتُـنـا أَهْـلَ الـحِـجـازِ عَـنـاءُ

لَـقَـدْ كـانَ عَـنْ نَـصْـرِ ابْـنِ ضَـبَّـةَ أُمَّـهُ وَشِـيـعَـتَـهـا مَـنْـدوحَـةٌ وَغَـنـاءُ

أَطَـعْـنـا بَـنـي تَـيْـم بـن مُـرَّةَ شِـقْـوَةً وَهَـلْ تَـيْـمُ إلاَّ أَعْـبُـدٌ وَإمـاءُ

فقلت: من أنت؟ قال: أُدْنُ مني أُخبِرْك. فدنوت منه فأزمَ بأذني فقطعها وقال: إذا أتيتَ أمَّك فأخبِرْها أنّ عُمَيرَ بن الأهْلَب فعل ذلك بي، ومات.

وقال أبو الحسن عن عامر بن حفص قال: بلغني أنَّ رجلاً من بني الهَجيم قال وهو بالموت:

[الرجز]

كَـيْـفَ تَـرانـي وَالـمَـنـايـا تَـعْـتَـرِكْ تَـنْـهَـضُ أَحْـيـانـاً وَحِـيـنـاً تَـبْـتَـرِكْ

وقال أبو الحسن عن عامر بن الأسود: ثقُل وَكيع بن أبي سُود[4] فأشرف عليه عَديّ بن أرْطاة[5] ـ وهو يومئذٍ أمير البصرة ـ من دار الإمارة، فقال: كيف أصبحتَ يا أبا المُطرِّف؟ قال: أصبحت وثاباً جَرِيّاً، فضحك عَديٌّ ورجع. فما جلس حتى سمع الواعية عليه.

وقال حمزة بن إبراهيم: قال لَبَطَةُ بن الفرزدق: لما ظننَّا أن أبي قد احتُضر بَكَيْنا حوله، ففتح عينيه ثم قال: أعليَّ تبكون؟ فقلنا: أَفَعلى ابنِ المَراغة نبكي؟ قال: أوَ ها هُنا موضع ذكره؟ ثم أُغميَ عليه، فلما أفاق قال:

[الوافر]

---

(١) يمؤود: وادٍ لغطفان.

(٢) الرُّكيّ: الآبار والنواكز: الغوائر.

(٣) هو أبو الحسن علي بن خيران الحِمّاني.

(٤) وكيع بن أبي سُود: سفّاك عاش في زمن الحسن البصري (البيان والتبيين: ج ٣، ص ١٨٢).

(٥) عَديّ بن أرْطاة الفزاري «أبو واثلة»: أمير دمشقي تولى لعمر بن عبد العزيز البصرة، قتله معاوية بن يزيد بن المهلب بواسط (ـ/ ١٠٢ هـ) (الأعلام: ج ٤، ص ٢١٩).

إذا مـــا دَبَّــتِ الأنــقـــاءُ فَـــوْقـــي   وَصــاحَ صَــدًى عَــلَــيَّ مَــعَ الــظَّــلامِ
لَـقَـدْ شَـمِـتَـتْ أَعـادِيـكُـمْ وَقـالَـتْ   أَدانِـيـكُـمْ مِـنَ أَيْـنَ لَـنـا الـمُـحـامـي؟

وقال أبو الحسن عن كليْب بن خلف قال: قال وكيع بن أبي سُود عند موته لأهله وولده: إني إذا مِتّ جاءكم قومٌ قد سَوَّدوا جباهَهُم، ونشروا لُحاهم، وعرضوا نعالهم، يقولون إن على أبيكم دَيْناً فاقضوه، فلا تَقضوا عني شيئاً، فإنَّ على أبيكم من الذنوب ما إن غفرها الله فالدَّيْن من أيْسرها.

قال أبو الحسن عن عامر بن الأسود قال: قيل لأبي السفاح بُكير بنِ مَعْدان أوْصِ، قال: إنّا الكِرامُ يوم طخْفة(١). قالوا: إنك في الموت فقلْ خيراً وَتَشَهّدْ. قال: غلامي إذا مات فهو حرّ.

قال أبو الحسن: قال دُحَيم(٢) وهو بالموت:

[الرجز]

قَـدْ وَرَدَتْ نَـفْـسـي وَمـا كـادَتْ تَـرِدْ   قَـدْ كُـنْـتُ ذا أَزْرٍ شَـديـدَ الـمُـعْـتَـمَـدْ
وَكُنْتُ ذا شَغْبٍ عـلى الخَصْمِ الأَلَدّ   قَـدْ جـاءَ قِـرْنٌ لَـيْـسَ بـالـقِـرْنِ يُـرَدّ

ثم هلك.

قال أبو الحسن: قيل لرجل وهو مريض: قل لا إله إلا الله. فقال: لم يَأنِ لذلك بَعْدُ.

وقيل لِهَرم بن حيَّان(٣): أوْصِ. فقال: صَدَقَتْني في الحياة نفسي، ما لي مالٌ أوصيكمْ به، ولكن أوصيكم بخواتيم سورة البقرة.

وأخبر أبو الحسن عن شعبة بن عبد الله الأنصاري قال: عزّى إياس بن معاوية رجلاً عن ابنه فقال: لا يَنقُصِ اللّهُ عددَك، ولا يُزِل نعمةً عنك، وعجَّل الله لك من الخلَفِ خيراً مما رُزئت به.

وعزّى آخرُ رَجُلاً فقال: إنَّ فيما عوَّضك اللّهُ من الأجر خيراً مِمَّا فجعَك به من الرّزيَّة.

---

(١) يوم طخْفة: يوم لبني يربوع على قابوس بن المنذر بن ماء السماء.

(٢) عبد الرحمن بن إبراهيم بن عمرو الأموي «أبو سعيد» محدّث الشام ولي قضاء الأردن وفلسطين وفيها توفي (١٧٠ ـ ٢٤٥ هـ) (الأعلام: ج ٣، ص ٢٩٢).

(٣) هرم بن حيان العبدي الأزدي: قائد فاتح وناسك مات في إحدى غزواته (ـ/ ٢٦ هـ) (الأعلام: ج ٨، ص ٨٢).

وقيل لأعرابية: ما أحْسَنَ عزاءكِ عن ابنك! فقالت: إنّ فُقدانِيه أَمّنني من المصائب بعده.

وقال: أخبرني سعيدٌ عن رجل منهم قال: خرجتُ إلى اليمن فنزلتُ على امرأةٍ منهم، فرأيت مالاً كبيراً ورقيقاً وولداً وحالاً حسنة، فأقمتُ حتى قَضيتُ حاجتي. فأردت الرحيل فقلتُ لها: أَلك حاجة؟ قالت: نَعمْ، كلمّا نزلتَ هذه البلاد فانْزلْ عليّ، فغبرتُ أعواماً، ثم أتيتُ اليمنَ، فأتيت منزل المرأة فإذا حالتها قد تغيرت، وذهب رقيقها، ومات ولدُها، وباعت منزلها، وإذا هي مسرورة بحالها، ضاحكة. فقلت: أَتَضحكين مع ما قد نزل بك؟ قالت: يا عبد الله، كنتُ في حال النعمة وَلي أحزانٌ كثيرة، فعلمت أن ذلك من قِلّة الشُّكر، فأنا اليومَ في هذه الحال أضحكُ شكراً لله على ما أعطاني من الصَّبر. فقلت لعبد الله بن عمر: ما رأيتَ منها؟ فقال: ما كان صبرُ أيوب النبي عليه السلام إلى هذه بشيء.

وقال سفيان[1]: شكا الرَّبيع بن أبي راشد إلى مُحارب بن دِثار[2] إبطاءَ خبر أخيه جامع. فقال له محارب: إن لم تكن وَطَّنْتَ نفسك على فِراق جامعٍ فأنتَ عاجز.

وقال محمَّدُ بن أبي محمد: بلغني أن الإسكندرَ مرّ بمدينةٍ قد مَلكها أمْلاكٌ سبعة، وبادوا. فقال: هل بقي من نَسْل الأملاك الذين مَلكوا هذه المدينة أحدٌ؟ قالوا: رجلٌ يكون في المقابر. فدعا به فقال: ما دعاك إلى لزومِ المقابر؟ قال: أَردتُ أن أعْزلَ عظام الملوك من عظام عبيدهم، فوجدت ذلك سواءً. قال: فهل لك أن تتبعَني فأحييَ بك شرفَ آبائك إنْ كانت لك هِمّةٌ؟ قال: إن هِمّتي لعظيمة إنْ كانت بُغْيَتي عندك. قال: وما بغيتك؟ قال: حياةٌ لا موتَ فيها، وشبابٌ لا هرمَ معه، وغنىً لا يَتبعهُ فقرٌ، وسرور لا يُغيِّره مكروه. قال: ما أَقْدِرُ على هذا. قال: فامْض لشأنك، وَخلّني أطلبْ بُغيتي مِمَّن هي عنده. فقال الاسكندر: هذا أَحْكَمُ من رأيتُ.

وقال عبد الله بن عباس: ما قيلَ لِقَوْم قطُّ طوبى لهم إلاّ خَبّأ لهم الدهر يومَ شَرٍّ، فالصبر خيرُ مَغَبَّة.

---

(١) سفيان بن سعيد بن مسروق الكوفي: فقيه حافظ محدث زاهد توفي (٩٨ ـ ١٦١ هـ) (تهذيب التهذيب: ج ٤، ص ١١١).

(٢) مُحَارِب بن دِثَار بن كردوس السدوسي الشيباني الكوفي «أبو المطرّف» قاضي الكوفة كان فقيهاً فاضلاً زاهداً شجاعاً حسن السيرة ومن المرجئة عزل عن القضاء وأعيد حتى توفي (../١١٦ هـ) (الأعلام: ج ٥، ص ٢٨١).

وتحدّث أبو الحسن المدائني قال: قال بَعْثَرُ بن لقيطِ بن خالد بن نَضْلَة الفَقعسيّ ـ وهلك ابنهُ طُعْمَة، فورثه بُرْدَين فلبسهما وأنشأ يقول:

[الطويل]

كَسَانيَ ثَوْبيْ طُعْمَةَ المَوْتُ إنَّما التُّـ ـراثُ وَإنْ عَزَّ الحَبيبُ الغَنائِمُ

إذا نَفَحَتْ رَيّاهُما الرِّيحُ نَفْحَةً أَبِيتُ كَأَنّي غَضّةُ الطَّرْفِ رائِمُ

يقول: أَبيتُ أَحِنُّ كالناقة الرَّائم حنيناً إلى ابني. والرائم: الناقة يفارقها ولدها فَيُحشى جِلدُ فصيلٍ تِبْناً أوْ غيرَ ذلك، ويُلطَخ بشيء من سَلاها[1] وتحشى غِمامةٌ في أنفها، وتُجعَل دُرْجَةٌ في حياتها، فتفتح عينها، وذلك الجلد مَحْشوٌّ كأنه خرج منها، ورائحة السَّلا فيه، وتُنزَ الغِمامة من أنفها فَتجدُ لذلك رائحة، فكأنَّها قد وَلَدت، فإذا تشمَّمت ذلك الولدَ فقد رَأمَتْه، فينزل اللبن، فكأنهم خدعوها عن لبنها.

وقال شُعَيْب بن صفوان: كان لِحضْرَميّ بن عامرّ الأسديّ[2] إخوةٌ فهلكوا، فورِثَ أموالهمْ، فراحَ ذات يوم في بُرْدين له، فنظر إليه رجلٌ من قومه يقال له جَزْء بن فاتكٍ، فقال له: لقد أمسيتَ يا حضرميُّ جذلانَ، فأنشأ يقول وَجَزِع:

[المنسرح]

يَقُولُ جَزْءٌ وَلَمْ يَقُلْ جَلَلا إنّي تَرَوَّحْتُ ناعِماً جَذِلا

إنْ كُنْتَ أَزَنَنْتَني بِها كَذِباً جَزْءُ فَلاقَيْتَ مِثْلَها عَجِلا

أَفْرَحُ أَنْ أُرْزأَ الكِرامَ وَأَنْ أُورَثَ ذَوْداً شَصائِصاً نَبَلا؟

إن الذَّوْدَ: القليل من الإبل. يقال: «إن من الذَّوذِ إلى الذَّودِ إبل» والشَّصائص: المهازيل العِجاف، والنَّبَل: يقول أصحاب الغريب إنها الحقيرةُ، وإنها من الأضداد.

كَمْ كانَ في إخْوَتي إذا اشْتَمَلَ الأَبْطالُ تَحْتَ العَجاجَةِ الأَسَلا

مِنْ فارِسٍ ماجِدٍ أخي ثِقَةٍ يُعْطي جَزيلاً وَيَقْتُلُ البَطَلا

وقال حَرْب ـ وذكر المُعَمَّرين ـ: عاش دُوَيدٌ النَّهديّ أربعَ مائةِ سنةٍ، فقال

---

(١) السَّلى: جلدة يكون الولد فيها في بطن أمه.

(٢) حِضرميّ بن عامر بن مجمع الأسديّ «أبو كدام» صحابي من خزيمة شاعر وفارس (ـ/ ١٧ هـ) (الأعلام: ج ٢، ص ٢٦٣).

لولده وأهله حين نزل به الموت: أوصيكم بالناس شرّاً، طَعْناً لزّا، وضرباً أزّا، اقصِروا الأعنَّة، وأطيلوا الأسِنَّة، وارْعَوْا الكلأ. ثمّ قال:

[مشطور الرجز]

اليَومَ يُبْنَى لِدُوَيْدٍ بَيْتُهُ   يَا رُبَّ نَهْبٍ حَسَنٍ حَوَيْتُهُ
وَمِغْصَمٍ ذي بُرَةٍ لَوَيْتُهُ   لَوْ كانَ لِلدَّهْرِ بِلًى أَبْلَيْتُهُ
أَوْ كانَ قِرْني واحِداً كَفَيْتُهُ

وقال عُرْوَةُ بنُ سُليم: دخلتُ على رجل من الأحامِرةُ[1] بالكوفة، وعنده جماعة من أهله وغيرهم، فقالوا: قل لا إله إلا الله، فأعرض بوجهه، فأعادوها عليه مراراً، فقال: أخبِروني عن أبي طالب أقالها؟ قالوا: وما أنت وأبو طالب؟ قال: لا أرغب بنفسي عنه.

وقال سلام بن أبي خبرة: ضربت الخوارج بكراً الطاحي فقطّعوه بالسيوف، فدخل عليه قوم يَعودونه وعنده رجال ونساء، فقالوا له: ليس عليك بأسٌ، فقال:

[الطويل]

غَناءٌ قَليلٌ عَنْ بُكَيْرِ بن وائِلٍ   تَرَمُّزُ أَسْتَاهِ الإماءِ العَوائِدِ

---

(١) الأحامرة: قوم من العجم نزلوا البصرة واستقروا بالكوفة.

باب من تكلّم في مرضه بشيء حُكيَ عنه

قال أبو الحسن: حدَّثني رجلٌ من بني كنانةَ من أهل المدينة قال: مَرض بلالٌ ـ مؤذِّنُ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلَّم ـ فعادَهُ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلَّم وأبو بكر الصديق، فقال بلال[1]:

[الرجز]

جـاءَكَ مَـوْلاكَ مَـعَ الـرَّسُـولِ ... ذاكَ هَـدَى الـلَّـهُ بِـهِ سَـبِـيـلـي

فَـلَـمْ أَدِنْ دِيـنَ أَبـي عـقـيـلِ ... وَلا بِـدِيـنِ الأَسْـوَدِ الـضَّـلـولِ

وقال أبو الحسن عن غياث بن إبراهيم عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قال أبو العباس: وحدّثني به ابن عائشة وأبو عُمر الجَرْمي[2] ورسمه واحدٌ قال: لما قدِمَ المهاجرون المدينة وعُكوا ـ وابنُ عائشةَ والجرميُّ يقولان: اجْتوَوْها[3]، وكانت أشدَّ أرض الله حُمّى. ـ قالت عائشة: فقال لي رسولُ الله ﷺ: اذهبي فانظُري كيف أَبوكِ وعمُّك، فدخلتُ على أبي بكر فقلت: يا أبتاه كيف تجدُك؟ فقال:

[الرجز]

كُـلُّ امْـرُِئٍ مُـصَـبَّـحٌ فـي أَهْـلِـهِ ... وَالـمَـوْتُ أَدْنَـى مِـنْ شِـراكِ نَـعْـلِـهِ

ثم دخلتُ على بلال فقلت: كيف تجدك؟ فقال:

[الطويل]

---

(١) بلال بن رَباح الحبشي «أبو عبد الله» مؤذن رسول الله ﷺ وخازن بيت ماله أحد السابقين إلى الإسلام شهد كل المشاهد مع رسول الله ﷺ ولم يؤذن بعده خرج مع بعوث الشام وتوفي في دمشق (. . / ٢٠ هـ) (الأعلام: ج ٢، ص ٧٣).

(٢) صالح بن إسحاق الجرمي النحوي «أبو عمر» كان فقيهاً عالماً باللغة والنحو ديناً ورعاً ونسبته إلى جَرْم اسم قبائل (وفيات الأعيان: ج ٢، ص ٤٨٥).

(٣) الجوى: المرض وداء الجوف إذا تطاول.

أَلاَ لَيْتَ شِعْرِي هَلْ أَبِيتَنَّ لَيْلَةً ... بِفَخٍّ وَحَوْلِي إِذْخِرٌ وَجَلِيلُ[١]
وَهَلْ أَرِدَنْ يَوْماً مِيَاهَ مَجَنَّةٍ ... وَهَلْ يَبْدُوَنْ لِي شَامَةٌ وَطَفِيلُ[٢]

قالت: فذكرتُ ذلك لرسول الله ﷺ فقال: «اللهُمَّ عليكَ عُتْبَةَ بن رَبِيْعَة: وأبا جَهْل بن هِشَام، كما أخرجونا مِنْ أرضنا إلى أرضِ الوَباء. اللهُمَّ حَبِّب إلينا المدينةَ كما حَبَّبْتَ إلينا مَكَّة، وانْقل وَباءها إلى الجُحْفة»[٣].

وفي حديثِ ابن عائشة وأبي عُمر: «اللَّهمّ، العَنْ أبا جَهْلِ بن هشام وعُتبةَ بن ربيعة وشَيْبة بن رَبِيْعة وأُمَيَّة بن خلف. وحبِّب إلينا المدينة كما حبَّب إلينا مكَّة وأكثر، وانتقلْ ما بها من الوباء إلى مَهْيَعَة»، وهي «الجُحْفة». قال: فجاء أهل الجُحْفة يضجّون من الحمى.

قالت: ودخلتُ على عامر بن فُهَيرة فقلت: يا عَمّ، كيف تجدُكَ؟ فقال:
[مشطور الرجز]

لَقَدْ وَجَدْتُ المَوْتَ قَبْلَ ذَوْقِهِ

قال: وأنشدنا ابن عائشة:

وَالمَرْءُ يَأْتِي حَتْفُهُ مِنْ فَوْقِهِ

وقال أبو الحسن:

إنَّ الجَبَانَ حَتْفُهُ مِنْ فَوْقِهِ ... كُلُّ امْرِىءٍ مُقَاتِلٌ عَنْ طَوْقِهِ
كَالثَّوْرِ يَحْمِي جِلْدَهُ بِرَوْقِهِ

قال أبو الحسن: مَرض حسّان بن بَحْدَل الكلبي[٤] ومنْظور بن زيد أخو بني عبد وُدّ، من كلْب، مرضاً شديداً، فعادهما عبد الملك، فلما خرج من عندهما تمثل:

[الوافر]
وَمَالِي فِي دِمَشْقَ وَلا قُرَاهَا ... مَبِيتٌ إنْ عَرَضْتُ وَلا مَقِيلُ

---

(١) الأذخر: نبات طيب الرائحة والجليل: الثمام.
(٢) شامة وطفيل: جبلان قرب مكة.
(٣) الجُحْفَةُ: قرية كبيرة على طريق المدينة من مكة وكان اسمها «مَهْيعة».
(٤) حسّان بن مالك بن بحدل بن أنيف أبو سليمان الكلبي: أمير بادية الشام من قادة معاوية في صفين آزر مروان وسلم له الخلافة له قصر في دمشق يعرف بقصر ابن أبي الحديد (... /٦٥ هـ) (الأعلام: ج ٢، ص ١٧٦).

وَمـالـي بَـعْـدَ حَـسّـانٍ صَـدِيـقٌ   وَمـالـي بَـعْـدَ مَـنْـظُـورٍ خَـلِـيـلُ

وقال أبو الحسن: لمَّا وَلي بشرُ بن مروان البصرةَ أتاه الفرزدقُ ولَم يكُنْ أتاه بالكوفة، وكان بِشرٌ عليه واجداً. وقَدم بشرٌ البصرة فمرض فقال الفرزدق حيث قام بين يديه:

[البسيط]

لَـوْ أَنَّـنـي كُـنْـتُ ذا نَـفْـسَـيْـنِ إنْ هَـلَـكَـتْ   إحْـداهُـمـا بَـقِـيَـتْ أُخْـرَى لِـمَـنْ غَـبَـرا

إذَنْ لَـجِـئْـتُ عـلـى مـا كـانَ مِـنْ وَجَـلٍ   وَمـا وَجَـدْتُ حِـمـامـاً يَـغْـلِـبُ الـقَـدَرا

لَـهُ يَـدٌ يَـغْـلِـبُ الـمُـعْـطِـيـنَ نـائِـلُـهـا   إذا تَـرَوَّحَ لِـلْـمَـعْـروفِ أَوْ بَـكَـرا

تَـغْـدو الـرِّيـاحُ وَتُـمْـسـي وَهْـيَ فـاتِـرَةٌ   وَأَنْـتَ ذُو نـائِـلٍ يُـمْـسـي وَمـا فَـتَـرا

وقال: دخل كُثيِّر عزَّة على عبد الملك وهو مريض، فلما رآه قال: ها هنا، وأجْلسه من ورائه، فقال كثيِّر:

[الكامل]

وَنَـعُـودُ سَـيِّـدَنـا وَسَـيِّـدَ غَـيْـرِنـا   لَـيْـتَ الـتَّـشَـكِّـي كـانَ بـالـعُـوَّادِ

لَـوْ كـانَ يَـقْـبَـلُ فِـدْيَـةً لَـفَـدَيْـتُـهُ   بـالـمُـصْـطَـفَـى مِـنْ طـارِفـي وَتِـلادي

قال أبو العباس: هذا الشعر غلَطٌ، إنما هو لجرير في الوليد بن عبد الملك وفيها يقول:

وَدَعـا الـخَـلـيـفَـةُ فـاسْـتُـجـيـبِ دُعـاؤُه   والـلَّـهُ يَـسْـمَـعُ دَعْـوَةَ الأَجْـنـادِ

وتحدَّث أبو الحسن عن حماد الراوية قال: حدَّثني العُريان بن الهيثم قال: بعثني أبي إلى شبيبِ بن رِبْعي أسأل به وهو مريض، وهو بين ابنتين له كأنهما الشمس يُقلِّبانه، فقلت: يقول لك أخوك لهيثم: كيف تجدك؟ فقال متمثلاً:

[الطويل]

تَـمَـنَّـى ابْـنَـتـاي أَنْ يَـعِـيـشَ أَبـوهُـمـا   وَهَـلْ أَنـا إلاَّ مِـنْ رَبِـيـعَـةَ أَوْ مُـضَـرْ

وَنـادِبَـتَـيْـنِ تَـنْـدُبـانِ بِـعـاقِـلٍ   أَخـا ثِـقَـةٍ لا عَـيْـنَ مِـنْـهُ وَلا أَثَـرْ

فَـقُـومـا فَـقُـولا بـالّـذي قَـدْ عَـلِـمْـتُـمـا   وَلا تَـخْـمِـشا وَجْـهـاً وَلا تَـحْـلِـقا شَـعَـرْ

وَقُـولا هُـوَ الـمَـرْءُ الَّـذي لا حَـمِـيـمَـهُ   أَضـاعَ ولا خـانَ الـصَّـدِيـقَ ولا غَـدَرْ

إلى الـحَـوْلِ ثُـمَّ اسْـمُ الـسَّـلامِ عَـلَـيْـكُـمـا   وَمَـنْ يَـبْـكِ حَـوْلاً كـامِـلاً فَـقَـدِ اعْـتَـذَرْ

ثم قال: ما فعل الحجاج؟ فأخبرتُه. ثم أتيت أبي فأعلمته، فلما رُحنا إلى الحجاج قال: ما فعل شبيب؟ قال أبي: أتاه العُريان اليوم عائداً. فسألني فحدثته

الحديث. فقال الحجاج: لا تَبْعَد العرب! ثم قال: وَيحكمْ يا أهل العراق، إنكم لأنتُم النّاسُ لولا ما شملكمْ من هذا الرأيِ الخبيث.

قال أبو العباس محمد بن يزيد: قد أكثرنا في المراثي والمواعظ من بين شعر وكلام نثرٍ ورسالةٍ وغير ذلك مما يتصل له.

والمراثي وأسبابها باقيةٌ مع الناس أبداً، إذْ كانت الفجائعُ لا تنقضي إلاّ بانقضاء المصائب، ولا يَفنى ذلك إلا بفناء الأرض ومنْ عليها، ولا إله إلا الله الحيّ الذي لا يموتُ. ونحن خاتمو ذلك بباب نجمع فيه من كلّ شيء إن شاء الله، وبه الحوْلُ والقوة. ثم نبتدىء شيئاً غيره. فإن الإكثار سَرَفٌ، كما أنّ التّقصير كالعَجْز. وفيما أمْلَيْنا بلاغٌ وعظَةٌ إن شاء الله تعالى.

قال عبد العزيزِ بن عبد الرحيم بن جعفر بن سُليمان بن علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب يرثي أباه. وكان أبوه جليلاً من بني هاشم له أدبٌ وعارضة وبلاغة ونجدة وبيان، فولاّه أمير المؤمنين المعتصمُ بالله اليمنَ ثم ولّى - بعد أن طال مُكثُه بها - إيتاخَ[1] ذلكَ البلدَ، فولّى إيتاخُ عليها الشّار، فحمل إليه الشارُ عبدَ الرحيم، فطالبه إيتاخ بالخراج وحبسه لامتناعه عليه، فمات في السجن بعد مدة.

وكان عبد العزيز أَجَلَّ بنيه، وقد وَلِيَ الولايات، وكان شاعراً مُفلِقاً وخطيباً مِصْقَعاً، فقال يَرثي أباه قولاً أعربَ فيه فأفصح، وأغرب فيه فلم يفْحِشْ، ولكنه خرج أحسنَ الخروج من كلامَ مبْسوط ومعان مفهومة وهو قوله:

[الطويل]

أَشِدْ أَيُّها النّاعي وَإنْ كُنْتَ لا تَدْري ... بِكُنْهِ الذي تَنْعى مِنَ الدِّينِ وَالقَدْرِ
وَمَنْ رُكْنُ أَرْكانِ المُلوكِ الذي بِهِ ... تَلوذُ إذا حَلَّ الجَسيمُ مِنَ الأمْرِ
هَوى فَهَوَتْ أَرْكانُ عِزٍّ وأَعْوَزَتْ ... ثُغورٌ بِهِ كانَتْ أَوامِنَ لِلذُّعْرِ
وَمَنْ يلبسُ الأَقْطار أَمْناً بِذِكْرِهِ ... وَيَكْشِفُ عَنها طُخْيَةَ الذُّلِّ وَالفَقْرِ
وَمَنْ كانَ إنْ أَرْضٌ مِنَ المَحْلِ أَظْلَمَتْ ... رَماها بِأَنْفى لِلظَّلامِ مِنَ الفَجْرِ
بِوَجْهٍ كَأَنَّ البَدْرَ فَوْقَ جَبينِهِ ... وَبَذْلِ لُهى[2] الأَمْوال بِالنّائِلِ الغَمْرِ
وَجُودٍ يَبُذُّ المَجْدَ وَالجُودُ قَبْلَهُ ... وَنُورُ بَهاءٍ كانَ أَبْهى مِنَ البَدْرِ

---

(١) إيتاخُ التركي: قائد ميمنة المعتصم في فتح عمورية تآمر على المتوكل مع ابن الزيات في زمن الواثق قتله المتوكل بالماء البارد (مروج الذهب: ج ٤، ص ٦٠ ووفيات الأعيان: ج ١ ص ٤٧٨).

(٢) اللُّهى: جمع لَهوة أو لُهْية: هي العطية، وقيل أفضل العطايا.

تَزيدُ الليالي وَالخُطوبُ ضِياءَهُ ... إذا غَيَّر البَدْرُ المُحاقُ مِنَ الشَّهْرِ
وَيَبْسُطُ بِالعُرْفِ العُفاةَ تَهَلُّلاً ... إذا كان بَعْضُ المَنْعِ بالنَّظَرِ الشَّزْرِ
فَإنَّكَ تَغْنَى بالصِّفاتِ عَنِ اسْمِهِ ... فَلَمْ تَرَ إلاَّ عارِفاً غَيْرَ ذي نُكْرِ
وَإنّا لَمُعْتادو رَزايا عَظيمَةٍ ... نَخافُ بِأَدْناهُنَّ قاصِمَةَ الظَّهْرِ
يَظَلُّ لَها مِنّا رِجالٌ كَأَنَّما ... تَعالى على أَكْتافِها فَلَقُ الصَّخْرِ
فَنَصْبِرُ حَتَّى تَنْجَلي غَمَراتُها ... إذا لَمْ يَكُنْ في الصَّبْرِ عَيْبٌ على الحُرِّ
تَجِلُّ مُصيباتٌ وَتَعْرو نَوائِبٌ ... وَلا مِثْلَ ما أَنْحَتْ عَلَيْنا يَدُ الدَّهرِ
لَقَدْ عَرَكَتْنا لِلزَّمانِ مُلِمَّةٌ ... أَذَمَّتْ بِمَحْمودِ الجَلادَةِ وَالصَّبْرِ
وَذلِكَ أَنَّ الصَّبْرَ أَصْبَحَ بَعْدَهُ ... بِمَنْ كان ذَا دِينٍ وَمَعْرِفَةٍ يُزْري
فَلَمّا رَأَيْتُ الصَّبرَ يُزري بِأَهْلِهِ ... وَضاقَ بما قَدْ جَلَّ مِن حَدَثٍ صَدْري
وَأنَّ البُكا فَخْرٌ، بَكَيْتُ بِعَوْلَةٍ ... عَلَيهِ لِكَيْلا يَغْتَليني أُولو الفَخْرِ
وَرَوَّحْتُ بَعدَ اليأسِ وَالصَّبرِ زَفْرةً ... تَرَدَّدُ ما بَيْنَ الجَوانِحِ وَالصَّدْرِ
حَنيناً كَما حَنَّ اليَراعُ يَرُدُّهُ ... حَيازيمُ ضاقَتْ للنَّشيجِ الذي يَفْري
وَخَلَّيْتُ أَسْرابَ الدُّموعِ فَأَمْطَرَتْ ... بِغَيرِ مَعيبٍ بالدُّموعِ وَلا نَزْرِ
وَقَلَّ لَهُ مِنّا البُكاءُ وَقَدْ بَكَتْ ... لَنا الطيرُ لَوْ كانَتْ مَدامِعُها تَجْري
بَكى الثَّقَلانِ الجِنُّ وَالإنسُ فَقْدَهُ ... وَغَيْرُهُما من ساكِني البَرِّ وَالبَحْرِ
وَأُقْسِمُ لَوْلا خَشْيَةُ اللَّهِ وَحْدَهُ ... رَكِبْتُ بِنَفْسي كُلَّ مُسْتَصْعَبٍ وَعْرِ
بِمَوْتِكَ يا عَبْدَ الرَّحيم بنَ جَعْفَرٍ ... تَزايَلَ شَعْبُ المُلْكِ عن أَفْحَشِ الكَسْرِ
وَصارَتْ بُناةُ الدِّينِ بَعْدَكَ صَدْعُها ... يَطيرُ شَظايا لا تَلاءَمُ بالجَبْرِ
بِمَوْتِكَ ماتَ الجودُ وَالمَجْدُ كُلُّهُ ... وَجُدِّعَ أَنْفُ العِزِّ فينا إلى الحَشْرِ
لَقَدْ هَدَّ رُكْنَ الدِّينِ مَوْتُكَ هَدَّةً ... أَنافَتْ لَها الأَعْناقُ مِنْ أُمَمِ الكُفْرِ
وَأَبْلَسَ إبْلاسَ المَذَلَّةِ دِينُنا ... وَأَغْضى بك الإسْلامُ عَيْناً على وَتْرِ
وَأَضْحَتْ قُلوبُ المُسلمينَ مَريضَةً ... تَوَكَّفُ فيهِ مِثْلَ راغِيَةِ البَكْرِ
وقَد وَجَدَ الأعداءُ في المُلْكِ مَطْعَناً ... عَواقِبُهُ قَتْلٌ يَجِلُّ عَنِ النَّشْرِ
فَلا هَنَأَ الأَعداءَ عَثْرَةُ دَهْرِنا ... فَقَدْ ـ وَأَبي ـ قَرَّتْ عُيونُ ذَوي الغِمْرِ
رُزِئْنا امْرأً لا نَحْفِلُ الدَّهْرَ بَعْدَهُ ... وَلا المَوْتَ، فَلْتَفْرِ الحَوادِثُ ما تَفْري
فَلِلَّهِ عَيْنا مَنْ رَأى مِنْ رَزِيَّةٍ ... وَعَثْرَةِ دَهْرٍ أَمَّنَتْنا مِنَ العَثْرِ
فَواكَبِدا لَوْ في الوَغى كانَ مَوْتُهُ ... بَكَيْنا عَلَيهِ بالرُّدَيْنِيَّةِ السُّمْرِ
وَبالبِيضِ وَالمَرْفُوعَةِ الزُّرقِ دَمْعُها ... دَمٌ عائِدٌ يَنْثالُ بالعَلَقِ الحُمْرِ

وَبِالخَيلِ يَعْلُكْنَ الشَّكِيمَ كَأَنَّها ... كَواسِرُ عُقْبانٍ نَواهِضَ عَنْ قِدْرِ
يَخُضْنَ نَجيعاً مائِراً بَعْدَ جامِدٍ ... فَلأْياً تَبينُ الكُمْتُ فيها مِنَ الشُّقْرِ
وَأَضْحى نَهارُ النَّاسِ لَيْلاً وَأَلْمَعَتْ ... كَواكِبُنا بالهُنْدُوانِيَّةِ البُتْرِ
وَلَمْ يُغْنِ ضَوءُ الشَّمسِ في قَسْطَلِ الوَغى ... فَتيلاً وَنارُ الحَربِ ثاقِبَةُ الجَمْرِ
وَأُخْمِدَتِ الأَصْواتُ إلاّ غَماغِمَ الـ ... ـكُماةِ وَوَقْعَ المَشْرَفِيَّةِ بالهَبْرِ
وَخُذْها أَبا بْنَ الأَكْرَمِينَ وَخُذْ بِها ... وَأَخِّرْ وَقَدِّمْ بالوَعيدِ وَبالزَّجْرِ
فَمِنْ مُقْعَصٍ يَغْطو بِفَضْلِ حُشاشَةٍ ... وَآخَرَ تَفْريهِ الحَوامي وما يَدري
يُفَرِّقْنَ أَوْصالاً كِراماً أَعِزَّةً ... وَيَفْضَخْنَ[1] هاماً مِنْ جَحا جِحَةٍ زُهْرِ
وَقُمنا إلى الثَّأْرِ المنِيمِ فَلَمْ يَئِلْ[2] ... وَلَوْ نِيطَ بالعَيُّوقِ أَوْ نِيطَ بالنَّسْرِ
فَكُنَّا وَإِنْ لَم نُوفِ مِنْ شَيْخِنا دَماً ... نَقَرُّ عُيوناً أَوْ نُريغُ إلى عُذْرِ
وَنَهْدأُ نَفْساً ما تَلاقى جُفُونُها ... إذا اللَّيلُ أَلقى ذَيْلَ أَرواقِهِ الخُضْرِ
وَلَكِنْ وَقَيْناهُ القَنا بِنُحورِنا ... وَفاتَ كَذا في غَيرِ هَيجٍ وَلا نَفْرِ
فَيابْنَ النَّبيِّ المُصْطَفى وَابْنَ عَمِّهِ ... وَيا بْنَ عَليٍّ وَالفَواطِمِ وَالحَبْرِ
وَيا بْنَ اخْتِيارِ اللهِ مِنْ آلِ آدَمٍ ... أَباً فَأَباً طُهْراً يُؤَدِّي إلى طُهْرِ
وَيا بْنَ عَلِيٍّ بَعْدُ وَالحَسَنِ الذي ... تَلافى عُرى الإِسْلامِ وَابْنَ أَبي بَكْرِ
وَيا بْنَ سُلَيْمانَ الَّذي كانَ مَوْئِلاً ... لِمَنْ ضاقَتْ الدُّنيا بِهِ مِنْ بَني فِهْرِ
وَمَنْ مَلأَ الدُّنيا بَهاءً وَنائِلاً ... وَرَوَّى حَجيجاً بالمُلَمَّعَةِ[3] القَفْرِ
تَعَزَّ بِما قَدْ نالَنا مِنْ رَزِيَّةٍ ... بِمَوْتِكَ مَحْبوساً على صاحِبِ القَبْرِ
فَإِنْ مِتَّ في حَبْسِ الخَليفَةِ صابِراً ... أَبِيّاً لِما يُعْطي الذَّليلُ على القَسْرِ
فَكَمْ مِنْ عَدُوٍّ لِلْخَليفَةِ قَدْ هَوى ... بِكَفَّيْكَ أَوْ أَعْطى المَقادَةَ بالصُّغْرِ
فَلا أَوْرَقَتْ شَجْراءُ أَرْضٍ وَلا دَحا ... مِنَ الغَيْثِ مُنْهَلٌّ مَتى طَائِرٌ يَسْري
فَقُلْ لِلْمَنايا وَالمَتالِفِ اعْصِفا ... فَلَمْ يَبْقَ فينا مَنْ يَريشُ وَلا يَبْري
وَقُلْ لِلأَعادي أَعْلِنوا الآنَ أَوْ دَعُوا ... سَواءٌ عَلَينا المُسْتَسِرُّ وَذو الجَهْرِ

وقال أحمد بن محمد الخَثْعَميّ يرثي إبراهيم بن سعيد الحِمْيَريّ:

[الخفيف]

---

(١) الفَضْخ: كسر كل شيء أجوف.

(٢) يَئِلْ: ينجح.

(٣) المُلَمَّعة: الأرض يلمع فيها السراب.

أَيُّـهـا الـنَّـاعِـيـانِ مَـنْ تَـنْـعَـيـان؟ وعـلـى مَـنْ أَراكُـمـا تَـبْـكِـيـانِ
انْـعَـيـا الـثَّـاقِـبَ الـزِّنـادِ أَبـا إِسـ ـحـاقَ رَبَّ الـمَـعْـروفِ وَالإِحْـسـانِ
ارْجِعـا بـي إِنْ لَـمْ يَـكُـنْ لَـكُـما عَـقْـ ـرٌ إلـى لَـحْـدِ قَـبْـرِهِ فَـاعْـقِـرانـي
فَـانْـضَـحـا مِـنْ دَمـي عَـلَـيْـهِ فَـقَـدْ كـا نَ دَمـي مِـنْ نَـداهُ لَـوْ تَـعْـلَـمـانِ
فَـكَـأَنَّـا وَلَـمْ يَـطُـلْ بِـكَ عَـهْـدٌ مـا رَأَيْـنـاكَ عـامِـرَ الأَعْـطـانِ
بَـيْـنَ أُدْمٍ تَـدمـى، وَرَكْـبٍ مُـنِـيـخٍ وَعِـسـاسٍ مَـلْـتـوتَـةٍ وَجِـفـانِ
صَلْصَلَ الصَّوْتُ في صفائك بالرمـ.. ..ـبِ خَفيض الكلامِ في الصفانِ؟
مـسْـمـعِ الـقِـدْحِ مِـنْ خِـطـارٍ وَفُـودٍ وَعَـديـمِ الأَتْـبـاعِ يَـوْمَ الـرِّهـانِ؟
لَـيْـتَ أَنّـا فِـداكَ إِذْ فَـنِـيَ الـطُّـ ـمّ وَفَـاضَـتْ مـنـاهِـلُ الـحَـدَثـانِ
فَـغَـدا ظـاعِـنـاً يُـحَـثُّ بِـهِ الـنَّـعْـ ـشُ حَـثـيـثَ الـسُّـرى وَلَـيْـسَ بِـوانِ
سَـفَـرٌ شَـاسِـعٌ وَحَـادٍ مُـجِـدٌّ وَقُـعـودٌ بـاقٍ عـلـى الـرَّقَـلانِ
شَـرِبَ الـمَـوْت مَـنْـهُ مَـخْـضَـه دُو نَ حَـلـيـبِـهـا الـسطـور مِـنْ قَـحْـطانِ
أَيُّـها الـمَـوْتُ قَـدْ نَـهَـضْـتَ بِـجِـمْـلَـيْـ ـنِ مِـنَ الـذَّمِّ فِـيـهِ وَالأَضْـغـانِ
قُـمْ بِـأَعْـلـى الـبِـقـاعِ مِـنْ غُـمْـدانٍ وَبِـسُـفْـلَـى الـكَـثِـيـبِ مِـنْ عُـسْـفانِ[1]
هَـلْ تَـرَى غَـيْـرَ مَـجْـلِـسٍ صَـخِـبِ الأُفْـ ـقِ بِـبـاكٍ وَنـادِبٍ ثُـكْـلانِ
وَتَـرَى غَـيْـرَ ذابِـلٍ سَـمْـهَـرِيٍّ ركَـدَ الـزُّجُّ فـي مَـكـان الـسِّـنـانِ
وَتَـرى غَـيْـرَ مُـقْـرَمٍ نـاصِـلِ الـنَّـا بِ قَـلـيـلِ الـسُّـمُـوِّ فـي الـهَـدَرانِ
وَعَـدِيـمٍ يَـغُـبُّ فـي قَـدَحِ الـثُّـكْـ ـلِ هَـديـمِ الـخِـبـاءِ وَالـبُـنْـيـانِ

ومن المراثي المستحسنة المقدمة، ونحتاج أن نذكر معها خبرَها وهو أن مالك بن زهير بن رَواحَة بن جَذيمة العبسيّ ـ وكان من أشراف بني عبس، وجَذِيمَةُ منهم ـ قُتِلَ في حرب داحس. وكان جانيَها أخوه قيس بن زهير، فنشبتْ بينهم فيما ذُكِرَ أربعين سنة. وتشاءم بهم قومهم، فوجَّه قيس جاريته لتعلم ما عند الربيع بن زياد العبسي أيغضب لهذا الحديث فيَقْوى به أو يستهين، فرأت عنده أكثر مما أحبَّ، فرجعتْ إليه فقالت: سمعتُ عويلاً منه دون نسائه وحركةً أكثر من حركة جميع الحي، وهو يقول:

[الكامل]

---

(١) غُمْدان: قصر بصنعاء وعُسْفان: قرية قرب مكة وهي حد تهامة (معجم البلدان: ج ٤، ص ٢١٠) و (ج ٤، ص ١٢١).

مَنَعَ الرُّقادَ فَما أغَمِّضُ حارِ ... جلَلٌ مِنَ النبإِ المُهِمِّ السَّاري
مِنْ مِثْلِهِ تُمْسي النِّساءُ حَواسِراً ... فَتَقومُ مُعْوِلَةً مَعَ الأَسْحارِ
مَنْ كانَ مَسْروراً بِمَقْتَلِ مالِكٍ ... فَلْيَأْتِ نِسْوَتَنا بِوَجْهِ نَهارِ

تأويل هذا البيت أنه إذا رأى ما يُصنَع عليه من الجزع، عَلِمَ أَنَّ ثأرَ مثلِه لا يُترَك.

يَجِدِ النِّساءَ حَواسِراً يَنْدُبْنَهُ ... يَضْرِبْنَ أَوْجُهَهُنَّ بِالأَسْحارِ
يَخْمُشْنَ حُرَّ وُجوهِهِنَّ على فَتًى ... سَهْلِ الخَليقَةِ طَيِّبِ الأَخْبارِ
قَدْ كُنَّ يَكْنُنَّ الوجوهَ تَسَتُّراً ... فَالآنَ حينَ بَدَوْنَ لِلنُّظّارِ
أَفَبَعْدَ مَقْتَلِ مالِكِ بْنِ زُهَيْرِ ... تَرْجُو النِّساءُ عَواقِبَ الأَطْهارِ

قوله: أَفبعدَ مقتل مالك بن زهير، مُزاحَفٌ ناقِصٌ جُزءاً. وهذا في هذه العروض جائز، وهي التي يُقال لها المقطوعة في الكامل. ونظيره قول حُمَيد بن ثور:

[الكامل]

أَبْلِغْ أَميرَ المُؤْمِنينَ فَإِنَّهُ ... طَبٌّ يَلومُ المُسْتَلِيمَ ويَعْذِرُ
أَنّي كَبِرْتُ وَأَنَّ كُلَّ كَبيرِ ... مِمّا يُظَنُّ بِهِ يُمَلُّ وَيُقْبَرُ

رجَعَ الشعر:

ما إِنْ أرى في قَتْلِهِ لِذَوي القُوى ... إلاّ المَطِيَّ تُشَدُّ بِالأَكْوارِ
وَمُجَنَّباتٍ ما يَذُقْنَ عَدُوفاً ... يَجْهِضْنَ بِالمُهَراتِ وَالأَمْهارِ

هذا مثل البيت المزاحف. يقال: ما ذقت عَدوفاً ولا عُدافاً، ولا لَماظاً ولا لَماقاً. وكل هذا في معنى لم أَذُقْ شيئاً.

وَفَوارِساً صَدَأُ الحَديدِ عَلَيْهِمُ ... فَكَأَنَّما طُلِيَ الوُجوهُ بِقارِ
وَيَفوزُ كُلُّ مُقَلِّصٍ مِنْ خَيْلِنا ... سَلِسِ القِيادِ مُعاقِدِ التَّكْرارِ
حَتّى نُبيرَ بِذي المُرَيْقِبِ غُدْوَةً ... بَدْراً وَنُعْذَرَ مِنْ بَني سَيّارِ

بدر: ابن عمرو الفَزاري، وبنو سَيّار بن زيّان الفزاري قتلوا ابن عمهم وحاربوهم غَدراً بغير دم ولا افقار.

وَلَرُبَّ مَسْرورٍ بِمَقْتَلِ مالِكٍ ... كَلاّ وَرَبِّ البَيْتِ ذي الأَسْرارِ
حَتّى نُبيرَ بِمالِكٍ سَرَواتِهِمْ ... حَمَلاً وَفارِسَهُمْ أَبا حَجّارِ

حمل: ابن بدر وكان من فرسانهم وشجعانهم، وهو الذي يقول فيه القائل في هذه القصة بعد أن قُتِل:

[الوافر]

وَلَـكِـنَّ الـفـتـى حَـمَـلَ بْـنَ بَـدْرٍ ... بَـغَـى وَالـبَـغْـيُ مَـصْـرَعُـهُ وَخـيـمُ

وأبو حجّار: مالك بن حمار الشَّمْخي، وبنو شَمْخ من فَزارَة، وفزارة ابن ذبيان بن بِغيض بن رَيْث بن غَطفان. وبنو عبس ابن بَغيض بن رَيْث، فكان عبسٌ وذبيان أخوين. وكانت حربهم أربعينَ سنة.

وحربُ الأنصار - الأوْس والخَزْرَج، ابني حارثة بن ثعلبة بن عمرو بن عامر - كانت أكثر من هذا فيما ذكرت الرواية وكانت لا تزال تَغبُر[1].

وَرُوِيَ عن رسول الله ﷺ: درِّبوا لي بالحروب حتى دَرِبوا. وقالت عائشة رضي الله عنها: قدِمنا عليهم والجِراحُ تَنصُلُ دَماً مِنْ حرب بُعاث.

فحرب الأنصار: حرب بُعاث، وحرب ابني بَغيض: حربُ داحس، وحرب بكر وتغلب تُسمَّى: البسوس.

وقال أبو ناظرة السَّدوسيّ، وكان رجلاً من أهل العلم والمعرفة بكلام العرب وحسن التصرف فيه، يرثي البصرة وأهلها بكلام عربي فصيح ينبىء أنه كلامُ مُوجَع يخرُج عن نيَّةٍ صادقة من ألفاظِ رجلٍ لا عَجزٍ يقعُد به عن بلوغ الحاجة، ولا إسرافَ في قوله وتمحُّلٍ يتجاوز به القَدر:

[الطويل]

مَـنـازِلَـنـا هَـلْ مِـنْ إيـابِ مُـؤمَّـلِ ... إلَـيْـكِ، إذا مـا آبَ كُـلُّ غَـريـبِ!

وَهَلْ نَـحْـنُ يَـوْماً عـائِـدُونَ ذَوي غِـنًـى ... وَمُـنْـتَـجَـعٍ لِـلْـمُـعْـتَـفـيـنَ خَـصـيـبِ

وَآذِنَـةٌ فـي كُـلِّ حَـيٍّ يَـزيـنُـهـا ... نَـقـاءُ جُـيـوبٍ مِـنْـهُـمُ وَغُـيـوبِ

وَحِـلْـمٌ وَعِـلْـمٌ لَـيْـسَ بِـالـنَّـزْرِ فـيـهِـمُ ... فَـلا يـطـون مـسـعـاه مَـشـوبِ؟

وَقُـلْ لِـدُعـاةِ الـشَّـمـسِ هَـلْ مِـنْ تَـشَـهُّـدٍ ... لِـوَقْـتِ صَـبـاحٍ أَوْ لِـوَقْـتِ غُـروبِ

نُـجِـنُّ - وَلَـمْ نَـظْـلِـمْ - إلَـيْـكِ صَـبـابَـةً ... تَـفَـتُّـتُ أكْـبـادٍ لَـنـا وَقُـلـوبِ

وَقَـلَّ غَـنـاءً عَـبْـرَةٌ مُـسْـتَـهِـلَّـةٌ ... تَـرَقْـرَقُ مِـنْ عَـيْـنٍ عَـلَـيْـكِ سَـكـوبِ

أَبـى الـصَّـبْـرَ تَـذْكـارُ الـدِّيـارِ الـتـي خَـلَـتْ ... مَـجـالِـسُـهـا مِـنْ سُـودَدٍ وَخُـطـوبِ

---

(١) تَغبُرُ: تظهر وتتجدد.

وَمَغْدى ذَوي الحاجات في كُلِّ شارِقٍ ... إلى كُلِّ مَغْشِيِّ الفِناءِ مَهيبِ
وَكُلِّ مُطاعٍ في العَشيرَةِ ماجِدٍ ... مُعينٍ عَلى رَيْبِ الزَّمانِ وَهوبِ
مَنازِلُ فارَقْنَ العُهودَ وَلَمْ تَكُنْ ... مَعاناً لِناقوسٍ وَلا لِصَليبِ
مَنازِلُ قَوْمٍ أَسْرَعَ السَّيفُ مِنْهُمُ ... إلى كُلِّ وَضّاحِ الجَبينِ نَجيبِ
وَكُلِّ فَتًى يَرْنو إلى اللَّهْوِ وَالصِّبا ... جَرُورٍ لأذْيالِ الشَّبابِ سَحوبِ
وَكُلِّ صَميمٍ مِنْ ذُؤابَةِ قَوْمِهِ ... كَريمٍ لِغاياتِ الكِرامِ طَلوبِ
أَبَوْا أَنْ يَرَى اللهُ الهَوادَةَ مِنْهُمُ ... لأغْضَهُ عَنْ دينِ النَّبِيِّ نَكوبِ
فَأَوْدَوْا وَقَدْ عاشُوا كِراماً أَعِفَّةً ... عَلى فِتَنٍ مَرَّتْ بِهِمْ وحُروبِ
تُغاديهِمُ ضَرْباً عَلى الهامِ تارَةً ... وَذَبْحاً بِأَقْسى أَنْفُسٍ وَقُلوبِ
فَكَمْ مِنْ رَحًى دارَتْ وَكَمْ مِنْ مُصيبَةٍ ... تَوالَتْ وَمِنْ يَوْمٍ هُناكَ عَصيبِ
عَلى أَلْفِ أَلْفٍ مِنْ مُلوكٍ وَسُوقَةٍ ... ثَوَوْا بَيْنَ أَبْوابٍ لَهُمْ وَدُروبِ
مُفَلَّقَةٌ هاماتُهُمْ وشَريدُهُمْ ... شَماطيطُ شَتّى أَوْجُهٍ وَسُروبِ
إلى غَيْرِ راعٍ يُرْتَجى النَّصْرُ عِنْدَهُ ... وَلا عَطَنٍ يُؤْوى إلَيْهِ رَحيبِ
عَباديدُ مِنْ ناجٍ عَلى جِذْمِ بَغْلَةٍ ... وَمِنْ رازِحٍ يَشْكو الكَلالَ جَنيبِ
وَمِنْ راسِبٍ طافٍ عَلى الماءِ شِلْوُهُ ... وَذي ظَمَإٍ أَوْدى بِهِ وَسُغوبِ
فَيا أَرْضَهُمْ أَخْلَوْكِ فَابْكي عَلَيْهِمُ ... وَجُودي عَلَيْهِمْ يا سَماءُ وَصُوبي
أَرى كُلَّ قَوْمٍ لا يَزالُ مَظِنَّةً ... مَنازِلُهُمْ مِنْ آيِبٍ وَمَؤُوبِ
سِوانا فَإِنّا حَشْوُ كُلِّ مَدينَةٍ ... وَأَلْقاؤُها مِنْ نازِحٍ وَقَريبِ
ذَوُو أَوْجُهٍ فيها كَوابٍ وَأَعْيُنٍ ... بَواكٍ وَفَقْرٍ ظاهِرٍ وَشُحوبِ
فَمَنْ رامَ أَنْ يَبْتاعَ مِنّا حَديقَةً ... مِنَ النَّخْلِ أَعْطى دِرْهَما بِجَريبِ
فَذو العِزِّ مِنّا مُسْتَكينٌ وَذو الغِنى ... كَأَنْ لَمْ يَكُنْ ذا رُتْبَةٍ وَرَكوبِ
فَما حَلَّ بِالإسْلامِ مِثْلُ مُصابِنا ... وَسُلْطانُنا لِلدّينِ حَقُّ غَصوبِ
وَكُنّا وَلَمْ تُشْقَقْ عَصانا وَلَمْ تَبِتْ ... عَقارِبُنا فينا ذواتِ دَبيبِ
تَميمِيَّةٌ تَسْري إلَيْنا كَأَنَّما ... تُطالِبُنا في مِصْرِنا بِذُنوبِ
يُقَصِّرُ عَنْ بَغْدادَ كُلَّ فَضيلَةٍ ... خُصِصْنا بِها إسْهابُ كُلِّ خَطيبِ
رِجالاً وَمالاً يَعْرِفُ النّاسُ فَضْلَهُ ... عَلى كُلِّ حالٍ رائِحٍ وَغَريبِ
فَلا المِرْبَدُ المَعْمُورُ بِالعِزِّ والنُّهى ... وَكُلِّ فَتًى لِلْمَكْرُماتِ كَسوبِ
وَلا قَصْرُ أَوْسٍ وَالمُناخُ الَّذي بِهِ ... وَما حَوْلَهُ مِنْ رَوْضَةٍ وَكَثيبِ
بِمُرْتَجِعٍ يَوْماً وَلا المَسْجِدُ الَّذي ... إلَيْهِ تَناهى عِلْمُ كُلِّ أَديبِ

وَلا قائِمٌ للهِ اناءَ لَيْلِهِ | بِهِ كُلُّة أَوَّاهٍ إِلَيْهِ مُنيبِ
وَلا عائِدٍ ذاكَ الحَزينُ كَعَهْدِهِ | لِكُلِّ مُسِنٍّ حَوْلَهُ وَمُهيبِ
وَلا الشَطُّ إذْ فِيهِ لَنا الخَيْرُ كُلُّهُ | وَإِذْ مُغْتَفاهُ الدَّهْرَ غَيْرُ جَديبِ
وَبالفَيْضِ والنَّهْرَيْنِ مِنْ كُلِّ جانِبِ | مَناظِرُ لَذَّاتٍ عَفَتْ وَشُروبِ
وَإِذْ ما نَراهُ مِنْ سَفينٍ وَراكِبٍ | عَلَى ظَهْرِ مُنْقادٍ إِلَيْهِ صَبوبِ
وَدِجْلَةُ أَحْمى جانِبَيْها كِلَيْهِما | كَتائِبُ زِنْجٍ كالطَّنينِ دَبُوبِ
مُؤلَّلَةٌ أَسْنانُهُمْ وَعُيونُهُمْ | تَوَقَّدُ في كَهْرُورَةٍ وَقُطوبِ

قوله «كهرورة» إنما هي القُطوب والعُبوس كما قال زيد الخيل(1):

[الطويل]

ولَسْتُ بِذي كَهْرُورَةٍ غَيْرَ أَنَّني | إذا طَلَعَتْ أُولى المُغيرَةِ أَغْبِسُ
طَماطِمُ لا رَبٌّ لَهُمْ يَعْرِفونَهُ | وَقَدْ دَرِبوا بالحَرْبِ أَيَّ دُروبِ
وُجونٍ نواجٍ مُنْجِياتٍ لَواحِقٍ | تَروحُ وَتَغْدو غَيْرَ ذاتِ عَكوبِ

الجُون: السُّود. يعني: الخيل. والعَكوب: الغبار، وبه سمي عُكابة.

تُساجِلُنا فيها المَنايا عَبيدُنا | بِكُلِّ حُسامٍ في العِظامِ رَسوبِ
أَنُسْلَبُها غُلْباً ضَوامِنَ لِلْقِرى | عَلَى سَنَواتٍ تَعْتَري وَجُدوبِ

يعني النَّخل، والأغلب: الغليظ العُنُقِ.

جَداوِلُها في كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ | ذَواتُ جُمومٍ تَحْتَها ونُضوبِ
وَما النخلُ في اجلابنا عَنْ كَواعِبٍ | يُساقِطْنَ في دَيْمومَةٍ وَشَيُوبِ؟
وَما في خِيامِ الزِّنْجِ مِنْ حُرِّ أَوْجُهٍ | ذَواتِ وُسومٍ فيهِمُ وَنُدوبِ
وَلا ذُو مُحاماةٍ وَلا ذُو حَفيظَةٍ | وَلكِنْ رَقيبٌ مِنْ وَراءِ رَقيبِ
عَلى الثَّمَرِ المَفْجوعِ أَرْبابُهُ بِهِ | عَلى خَطَرٍ مِنْ مُجْتَناهُ عَجيبِ
يَقولونَ خُشرى قسا مِنْ مُدافِعٍ | لَدى مَشْهَدٍ مِنَّا وَلا بِمَغيبِ؟
وَقالوا تَناسَوْها فَلَيْسَ بِعائِدٍ | تَجاوُرُ أَحْياءٍ بِها وَشُعوبِ
وَإِنِّي لأَرْجو أَنْ أَرى ذاكَ مِنْهُمُ | وَلِلدَّهْرِ أَيَّامٌ. . . وَخُطوبِ

---

(1) زيد بن مهلهل بن منهب بن عبد رضا من طيء «أبو مُكنف»: من أبطال الجاهلية لقب «زيد الخيل» لكثرة خيله كان طويلاً جسيماً جميلاً وشاعراً وخطيباً وكريماً أدرك الإسلام ووفد على النبي ﷺ فسرّ به وأسماه «زيد الخير» مات محموماً على عين ماء اسمها فردة (../٩ هـ) (الأعلام: ج ٣، ص ٦١).

نَعَتْ أَرْضَنا الدُّنْيا إِلَيْنا وَأَدْبَرَتْ بِكُلِّ نَعيمٍ في الحَياةِ وَطِيبِ
وَما كانَتِ الدُّنْيا سِوى البَلَدِ الَّذي خَلا اليَومَ مِنْ داعٍ بِهِ وَمُجيبِ
وَما عَيْشُ هَذا النَّاسِ بَعدَ ذَهابِهِ بِعَيْشٍ وَلا مَغْناهُمُ بِرَغيبِ
إذا الدَّمْعُ لم يُسعِدْ كَئيباً فَإِنَّني سَأَبْكي وَأُبْكي الدَّهْرَ كُلَّ كَئيبِ
عَلى دِمَنٍ جَرَّتْ بِها الرِّيحُ بَعْدَنا ذُيولَ البِلى مِنْ شَمْأَلٍ وَجَنوبِ
وَما كُلُّ بَصْرِيٍّ شَكا بِمُفَنَّدٍ وَلا كُلُّ بَصْرِيٍّ بَكى بِمَعيبِ
وَلَوْ أَنَّ بَصْرِيّاً بَكى كُنْهَ شَجْوِهِ بَكى بِدَمٍ حَتّى المَماتِ صَبيبِ
فَمَنْ مَبْلِغٌ عَنّي بُرَيْهاً وَرَهْطَهُ وَما أَنا في حُبِّيهِمُ بِمُريبِ
إذا أَنْتُمُ غادَرْتُموها كَأَنَّها مَنازِلُ عادٍ غَيْرُ ذاتِ عَريبِ
فَلا تَرْفَعوا الأَبْصارَ إلاّ كَليلَةً إلى النَّاسِ أَوْ مُنْهَلَّةً بِغُروبِ
فَيا بَصْرَ كَمْ مِنْ هالِكٍ ماتَ حَسْرَةً عَلَيْكِ وَمِنْ صَبٍّ إِليكِ طَروبِ
يَظَلُّ شَعاعاً قَلْبُهُ ومبيته عَلى سَنَنٍ مِنْ رَبْعِهِ وَنَحيبِ
عَلَيكِ سَلامُ اللهِ مِنّا فَإِنَّنا نَرى العَيْشَ إلاّ فِيكِ غَيْرَ حَبيبِ

وقال عمرو بن الأسْلَع يرثي أبا جُنَيد بن عمرو بن الأسلع العبسيّ ويذكر قتلَ حُذَيْفَةَ بنَ بَدْرٍ[1] إياه:

[الوافر]

فَلا يَكُنِ الوَداعُ أَبا جُنَيْدٍ وَآخِرُ حاجَةِ السَّفَرِ الوَداعُ
فَإِنْ خابَتْ حِيالُ بَني سُبَيعٍ وَنِعْمَ القَومُ إنْ قَوْمٌ أضاعوا
فَلا تَيْأَسْ بِذلِكَ وَانْتَظِرْني وَشَرُّ حَديثِ قائِلِهِ سَماعُ
أَتَتْكَ كَأَنَّها عُقْبانُ دَجْنٍ تَجاوَبَ في حَناجِرِها اليَراعُ

وقال مُهَلهِلُ بنُ رَبيعَة:

[الكامل]

قَتَلوا كُلَيْباً ثُمَّ قالوا ارْبَعوا كَذَبوا وَرَبِّ الحِلِّ وَالإِحْرامِ
حَتّى تَبيدَ قَبيلَةٌ وَقَبيلَةٌ وَيَعَضَّ كُلَّ مُذَكَّرٍ بِالهامِ
وَتَجولَ رَبّاتُ الخُدورِ حَواسِراً يَمْسَحْنَ عُرْضَ ذَوائِبِ الأَيْتامِ
حَتّى يَعَضَّ الشَّيْخُ بَعْدَ حَميمِهِ مِمّا يَرى جَزَعاً عَلى الإِبْهامِ

(١) حُذَيْفَةُ بن بَدر: يُضرب به المثل في سرعة السير كان في عصر المنذر بن ماء السماء (../..) (الأعلام: ج ٢. ص ١٧١).

إنا لَنَضْرِبُ بالسُّيوفِ رُؤوسَهُمْ ضَرْبَ القُدارِ نَقيعَةَ القُدَّامِ[1]
وَلَقَدْ وَطِئْنَ بُيوتَ يَشْكُرَ وَطْأَةً أَخْوالُنا، وَهُمُ بَنو الأَعْمامِ

وقال أيضاً:

[المديد]

يا لَبَكْرٍ أَنْشِروا لي كُلَيْباً يا لَبَكْرٍ أَيْنَ أَيْنَ الفِرارُ؟
تِلْكَ شَيْبانُ تَقولُ لِذُهْلٍ صَرَّحَ الشَّرُّ وَبانَ السِّرارُ
وَبَنو يَشْكُرَ قاموا فَقالوا قِصَّةٌ عَوْجاءُ فيها اسْتِتارُ
وَبَنو عِجْلٍ تَقولُ لِقَيْسٍ وَلِتَيْمِ اللاَّتِ سِيروا فَساروا

وسنُملي بِعَقِب ذِكرِ مُهلهل هذا خبرَ وقائعهم لِيَفهم مجرى هذه المراثي وما يتبعها مِنْ أمثالها منْ لم يَفهمه، ليعلم أنْ هذه الأشعار بُنِيَتْ على أساساتٍ مِنْ حِكَم العرب، تفيد أمثالاً عجيبة ومذاهبَ غزيرةً وأقوالاً على أُمور يُنتفَع بها في مثلِ ما قصدوا له وفي غيره من غير بابه. والحديث ذو شجون. وبالله الحَوْل والقوة.

بَكر وتَغلِب ـ ابنا وائل ـ شعبان ضخمان سادهما جميعاً كليبُ بن ربيعة التغلبي، وهو الذي يقال له كُليب وائلٍ، فيُضرب به المثل، حتى ادّعت ربيعةُ في كليبٍ أن العرب كلَّها تنقاد لشرفها. وفيه يقول النابغة الجعديّ لرجل من أهله بغى وَتعدًّى يُخَوِّفه عُدوانَ الظلم:

[الطويل]

كُلَيْبُ لَعَمْري كانَ أَكْثَرَ ناصِراً وَأَهْوَنُ ذَنْباً مِنْكَ ضُرِّجَ بالدَّمِ
رَمَى ضَرْعَ نابٍ فَاسْتَحَرَّ بِطَعْنَةٍ كَحاشِيَةِ البُرْدِ اليَماني المُسَهَّمِ

وكان سبَبَ قتله على عِزَّةٍ من قومه وَلُحْمَته على أنَّهُ كانَ لا يُرفع بحضرته صوتٌ ولا يُسمَع في ناديهِ كلمةُ خنا. وفي ذلك يقول المهلِهل في مرثيته إيَّاه:

[الكامل]

ذَهَبَ الخِيارُ مِنَ المعاشِرِ كُلِّهِمْ واستَبَّ بَعْدَكَ يا كُلَيبُ المَجْلِسُ
وَتَنازَعوا في أَمْرِ كُلِّ عَظيمَةٍ لَوْ كُنْتَ حاضِرَ أَمْرِهِمْ لَمْ يَنْبِسوا

ومُهلهل أخو كليب واسمه عديّ، وهما ابنا ربيعة، وكان مُهلهل يُسفِّهُهُ كليبٌ ويصفه بالغزل والتحدث إلى النساء يَذْمُرُهُ بذلك فيقول: أنت زيرُ نساء.

---

(١) القُدار: الطباخ والنقيعة: الطعام الذي يهيئه القادم من السفر لزائريه.

وكان شرف بكر بن وائل في ولد ذي الجَدَّيْن وهو عبد الله بن همّام بن مُرَّة بن ذُهْل بن شَيْبان. وهؤلاء أشراف وأبناء أشراف. وهم بيت بكر بن وائل وشرفها.

وكانت إحدى بنات مُرَّةَ تَحْتَ كُليب بن ربيعة، وكان عديُّ المُهلهلُ آخى هَمّامَ بنِ مُرَّة. وكان عاقده وعاهده ألاّ يَكْتُمَ أحدهما صاحبه خبراً يقع إليه. فجاءت جارية لهمّام فسارَّته بشيء، فتغير وجهه، فقال المُهلهل: ما قالت لك يا أخي؟ فَوَرَّى فقال له: العَهْدَ! فقال: خبَّرَتني أنَّ أخي قتل أخاك. فقال له المُهلهل: لا تُرَعْ، فإن هِمَّة أخيك لا تبلغ ذاك.

وسَيَتَّصِلُ الخبرُ مستقصّى بوقائعهم إن شاء الله.

وكانت حربهم أربعين سنة في مقتل كليب، وهو موصول بما ابتدأناه بما فيه من مراثيهم وغيرها. فقالت ماوِيَةُ بِنْتُ مُرَّة امرأة كليب، تشتكي ما بها من قتل أخيها زوجَها، وهي قصيدة محيطة بالمعنى المقصود، جيّدة الكلام بوفرة التشكي:

[الرمل]

يا بْنَةَ الأقْوامِ إنْ شِئْتِ فَلا ... تَعْجَلي بالَّلوْمِ حَتَّى تَسْأَلي
فَإذا أَنْتِ تَبَيَّنْتِ التي ... عِنْدَها اللَّوْمُ فَلُومي واعْذُلي
إنْ تَكُنْ أُخْتُ امْرِئٍ لِيمَتْ عَلى ... شَفَقٍ مِنها عَلَيْهِ فافْعَلي
قَتْلُ جَسّاسٍ عَلى وَجْدي بِهِ ... قاطِعٌ ظَهْري وَمُفْنٍ أَجَلي
لَوْ بِعَيْني فُدِيَتْ عَيْنٌ سِوى ... أُخْتِها فَانْفَقَأَتْ لَمْ أَحْفِلِ
تَحْمِلُ العَيْنُ قَذى العَيْنِ كَما ... تَحْمِلُ الأمُّ قَذى ما تَفْتَلي
يا قَتيلاً قَوَّضَ الدَّهْرُ بِهِ ... سَقْفَ بَيْتَيَّ جَميعاً مِنْ عَلِ
هَدَمَ البَيْتَ الذي اسْتَحْدَثْتُهُ ... وَبَدا في هَدْمِ بَيْتي الأَوَّلِ
وَرَماني قَتْلُهُ مِنْ كَثَبٍ ... رِمْيَةَ المُصْمى بِهِ المُسْتَأْصَلِ
يا نِسائي دونَكُنَّ اليَوْمَ قَدْ ... خَصَّني الدَّهْرُ بِرُزْءٍ مُعْضِلِ
خَصَّني قَتْلُ كُلَيْبٍ بِلَظَى ... مِنْ وَرائي وَلَظَى مُسْتَقْبَلي
لَيْسَ مَنْ يَبْكي لِيَوْمَيْنِ كَمَنْ ... إنّما يَبْكي لِيَوْمٍ يَنْجَلي
دَرَكُ الثّائرِ شافِيهِ وَفي ... دَرَكي ثَأْرِيَ ثُكْلُ المُثْكِلِ
لَيْتَهُ كانَ دَمي فاحْتَلَبوا ... دَرَكاً مِنْهُ دَماً مِنْ أَكْحَلي
جَلَّ عِنْدي فِعْلُ جَسّاسٍ فَيا ... حَسْرَتا عَمّا انْجَلَتْ أَوْ تَنْجَلي

إنَّـــنـــي قـــاتِـــلَـــةٌ مَـــقـــتـــولَـــةٌ وَلَـــعَـــلَّ اللهُ أَنْ يَـــرْتـــاحَ لِـــي

قال أبو العباس: قرأت على أبي محمد النحوي المعروف بالتَّوَّزي عن أبي عُبيدة مَعْمَر بن المُثنَّى التَّيْميّ مولى بني تَيْم بن مُرَّة، من قريش عن مُقاتل الأحول ابن سنان، من بني سعد بن مالك بن ضُبَيْعَة بن قيس بن ثعلبة. وهو الذي يقول فيه طَرَفة:

[الطويل]

رَأَيتُ سُعوداً مِنْ شَعوبٍ كَثيرَةٍ فَلَمْ أَرَ سَعْداً مِثْلَ سَعْدِ بنِ مالِكِ

قال مقاتل: هذا عدي وأخوه كليب وسالم وفاطمة بنو ربيعة بن الحارث بن جُشَم بن بَكر بن حبيب بن عَمرو بن غَنم بن تغْلب. وكان كليب بن ربيعة ليس على الأرض بكري ولا تغلبي أجار رجلاً ولا بعيراً إلا بإذن كليب، ولا كان يحمي حمًى إلا لَمْ يُقْرَب. وكان لِمُرَّة بن ذُهْل بن شيبان عشرة بنين منهم جساس. وكان أصغرهم. وكانت أختهم عند كليب. قال مقاتل: وأُمُّ جساس بن مرة: هَيْلَةُ بنتُ مُنْقِذ بن سليمان بن كعب بن عمرو بن سعد بن زيد مناة بن تميم. ثم خَلَفَ عليها بعد مُرَّةَ بنِ ذُهلَ سَعْدُ بن ضُبَيْعة بن قيس بن ثعلبة. قال فراس: وهي أُمّنا وخالة جساس يقال لها البسوس.

قال أبو برزة: البسوس أخت هَيْلَة، فجاءتْ فنزلت على جساس، فكانت جارة لبني مُرَّة ومعها ناقة اسمها «السَّراب» وكانت خَوّارةً صفياً[(١)] من نَعَمِ بني سعد، ومعها فَصيلٌ لها.

قال أبو برزة: وقد كان كليب قال لصاحبته ـ أختِ جساس: ـ هل تعلمين على الأرض عربياً يمنع مني ذمته؟ فسكتتْ، ثم أعاد ذلك عليها فسكتتْ، ثم أعاد ذلك عليها الثالثة فقالت: نعم، أخي جساس وَنَدْمانُه ابن عمه عمرو بن أبي ربيعة بن ذُهل. وعمرو هو المُزْدَلِف.

وأما مقاتل فزعم أن امرأة كليب بَيْنا تَغسِلُ رأسَ كليب وتُسرِّحُه ذات يوم إذ قال لها: من أعزُّ وائل؟ فضمزت[(٢)] فأعاد عليها فضمزت. فلما أكثر قالت: أخواي جساس وهمام! فنزَعَ رأسه من يدها وأخذ القوسَ فرَمى فَصِيل ناقة البسوس، خالة جساس وجارةِ بني مُرَّة، فأقصده، فأغمضوا على ما فيها

(١) ناقة خوارة وصفي: غزيرة اللبن.

(٢) ضمزت أي سكتت ولم تجب.

وسكتوا. ثم لقي كليبٌ ابنَ البسوس، فقال: ما فعل فصيل ناقتكم؟ قال: قتلته وأخليتَ لنا لبَنَ أُمِّه، فأغمضوا على هذه أيضاً. ثم إن كليباً أعاد بعد هذا على امرأته فقال: من أعزُّ بني وائل؟ قالت: أخواي، فأضمرها، وأسرَّها كليب وأسكت حتى مَرّت إبل جساس فإذا الناقة، فاستنكرها فقال: ما هذه الناقة؟ قالوا: لخالة جساس. قال: أَوَ قَدْ بَلَغَ مِنْ أَمْرِ ابن السَّعدِية أن يُجِير عليَّ بغير إذْني؟ ارْمِ ضَرْعها يا غلامُ، فشُقَّه. قال: فأخذ القوس فرمى ضَرْع الناقة، فاختلط لبنها ودمها. وراحت الرِّعاء على جساس فأخبروه بالأمر فقال: إحلُبوا لها مكيالاً من لبنها ولا تذكروا لها من ذلك شيئاً، وأغمضوا عليها.

قال مقاتل: حتى أصابتهم سماء. فغدا في غِبّها عمرو بن ذُهل بن شيبان فطعن عمرٌو كليباً فقصم صُلبه.

وأما أبو برزة فزعم أن جساساً أمسك حتى ظعن ابنا وائل، فمرت بكر على نِهْيٍ[1] يقال له شُبَيْث، فأبعدهم عنه كليبٌ وقال: لا تذوقوا منه قَطرة ثم مَرّوا علىً آخرَ يُقال له الأحَصّ فأبعدهم عنه. ثم مَرّوا على بطن الجَرِيب[2] فمنعهم إياه فمضوا حتى نزلوا الذَّنائِب، واتبعهم كُليبٌ وَحيُّهُ حتى نزلوا عليهم، فمَرَّ عليه جساس وهو واقف على غدير الذَّنائب، فقال: أبعدْتَ أهلنا عن المياه حتى كِدْتَ تقتلهم من العطش. فقال كُليب: ما أبعدناهم إلاّ عن شيء نحن له شاغلون. فمضى جساس ومعه المُزْدَلِفُ عمرو بن أبي ربيعة. ثم ناداه جساس: هذا كفعلك بناقة خالتي. قال: أَوَ قَدْ ذكَرتَها! أما إنّي لَوْ وجَدْتُها في غير إبل بني مُرَّةَ بن ذُهْل لاسْتَحْلَلْتُ تلك الإبلَ بها! فعطف عليه جساسٌ الفرسَ فطعنه بالرمح، فأنفذ حِضْنَيه[3]. فلما تَدَاءَمَه[4] الموت قال: يا جساس، اسقني من الماء. قال: ما عَقَلْتُ استسقاءَك من الماء مُذْ وَلَدَتْك أُمُّك قبل ساعتَك هذه.

قال أبو برزة: فعطف عليه المُزْدلف عمرو بن أبي ربيعة فحَزَّ رأسه.

وأما مُقاتل فزعم أن عمرو بن الحارث بن ذُهْل هو الذي طعنه فقَصَمَ صُلْبه، ففي ذلك يقول مُهلهل:

[الوافر]

---

(١) النِهْي: الغدير.

(٢) بطن الجَرِيب: واد عظيم يصب في الرمة بنجد (معجم البلدان: ج ٢، ص ١٣١).

(٣) الحِضني: ما دون الإبط إلى الكشح.

(٤) تداءمت عليه الأمور: تراكمت.

قَـتـيـلٌ مـا قَـتـيـلُ الـمَـرْءِ عَـمْـرٍو   وَجَـسَّـاسِ بـنِ مُـرّةَ ذو ضَـريـرِ

وقال نابغة بني جَعدة لعِقال بن خُويلد العُقيليّ لما أجار بني وائل بن معن، وقد قتلوا رجلاً من بني جَعْدَة، فحذَّرَهُ عُدْوانَ الظُّلم واقْتصَّ له أَمْرَ كُليب وحديثه:

[الطويل]

كُـلَـيْـبٌ لَـعَـمْـري كـانَ أَكْـثَـرَ نـاصِـراً   وَأَيْـسَـرَ ظُـلْـمـاً مِـنْـكَ ضُـرِّجَ بـالـدَّمِ

رَمـى ضَـرْعَ نـابٍ فَـاسْـتَـحَـرَّ بِـطَـعْـنَـةٍ   كَـحاشِـيَـةِ الـبُـرْدِ الـيَـمـانـي الـمُـسَـهَّـمِ

وَقـالَ لِـجَـسّـاسٍ: أَغِـثْـنـي بِـشَـرْبَـةٍ   تَـفَـضَّـلْ بِـهـا طَـوْلاً عَـلَـيَّ وَأَنْـعِـمِ

فَـقـالَ: تَـجـاوَزْتَ الأَحَـصَّ وَمـاءَهُ   وَبَـطْـنَ شُـبَـيْـثٍ وَهْـوَ ذُو مُـتَـرَسَّـمِ(١)

وهي في كلمة.

وقال العباس بن مِرْداس لكليب بن عَهَمَةَ الظَّفَريّ أخي عباس ومالك بن عهمَة، وكانوا شركاء في القُرَيَّة فجَحَدهُمْ كُليبٌ حَظَّهُمْ منها فَحذَّرهُ غِبَّ الظُّلم وما لَقِي كليبٌ منه:

[الكامل]

أَكُـلَـيْـبُ مـالَـكَ كُـلَّ يَـوْمٍ ظـالِـمـاً   وَالـظُّـلْـمُ أَنْـكَـدُ، وَجْـهُـهُ مَـلْـعـونُ

فَـافْـعَـلْ بِـقَـوْمِـكَ مـا أَرادَ بِـوائِـلٍ   يَـومَ الـغَـديـرِ سَـمِـيُّـكَ الـمَـطـعـونُ

وَأَظُـنُّ أَنَّـكَ سَـوفَ تَـلـقـى مِـثْـلَـهـا   فـي صَـفْـحَـتَـيْـكَ سِـنـانُـهـا الـمسـنـونُ

إنَّ الـقُـرَيَّـةَ قَـدْ تَـبـيَّـنَ شَـأْنُـهـا   لَـوْ كـانَ يَـنـفَـعُ عِـنـدَكَ الـتَّـبـيـيـنُ

أَجَـحَـدْتَـنـي ثُـمَّ انْـطَـلَـقْـتَ تَـخُـطُّـهـا   وَأَبـو يَـزيـدَ بَـجَـوِّهـا مَـدْفـونُ

وقال رجل من بكر بن وائل في الإسلام، وهو يحمل على الأعشى - وزعموا أنه شُبيل بن عريرة:

[الطويل]

وَنَـحْـنُ قَـهَـرنـا تَـغْـلِـبَ ابـنـةَ وائِـلٍ   بِـقَـتْـلِ كُـلَـيْـبٍ إذ طَـغـى وَتَـخَـيَّـلا

أَبـأنـاه(٢) بـالـنَّـابِ الـتي شَـقَّ ضَـرْعَـهـا   فَـأَصْـبَـحَ مَـوْطـوءَ الـحِـمـى مُـتَـذَلِّـلا

وهي كلمة.

قال: ومقتل كليب بالذَّنائب عن يسار فَلْجة مُصْعِداً إلى مكة، وذلك قول المُهلهل:

[الوافر]

---

(١) المترسم: موضع الماء.

(٢) أباء القاتل بالقتيل: قتله به.

وَلَـوْ نُـبِـشَ الـمـقـابِـرُ عَـن كُـلَـيـبٍ		فَـيُـخـبَـرَ بِـالـذنـائِـبِ أيُّ زِيـرِ

قال أبو برزة: فلما قتله جساس أمال بيده الفرَس حتى انتهى إلى أهله خارجة ركبتُه. قالت أخته: يا أمتاه، إن جساساً قد جاء خارجةً ركبتُه. قالت: والله ما خرجت ركبته إلاّ لأمرٍ عظيم. قالت: ما وراءك؟ قال: ورائي، والله، أني قد طعنته طعنةً لتَشْتَغِلنَّ منها شيوخُ وائل رقصاً. قالت: أَقتلتَ كليباً؟ قال: نعم. قالت: واللَّهِ لوَدِدْتُ أنك وإخْوتَك كنتم مِتُّمْ قبل هذا. ما بي إلاّ أن يَتَناكد بي أبناءُ وائل.

وزعم مُقاتل أن جساسًا قال لأخيه نَضْلَةَ بن مُرَّة ـ ويُقال لهما اليوم عَضُدا الحِمار ـ:

[الوافر]

وَإنـي قَـدْ جَـنَـيْـتُ عَـلَـيْـكَ حَـربـاً		تُـغِـصُ الـشَّـيْـخَ بِـالـمـاءِ الـقَـراحِ

فأجابه أخوه نَضلةُ بن مُرَّة فقال:

فَـإنْ تَـكُ قَـدْ جَـنَـيْـتَ عـلـيَّ حَـربـاً		فَـلا وانٍ ولاَ رَثُّ الـسِّـلاحِ

وإنما ذكرنا أول هذه الوقائع والسبب الذي هَيَّجها تطَرُّقاً إلى مراثي مُهلهل أخاه وقومَه ليقع ذلك على مَعرفةٍ عند مَنْ لم يكن عرفها.

قال المُهلهل يرثي أخاه ويذكر أشراف مَنْ قُتل به، وأن ذلك ليس بكفء:

[الوافر]

أَلَـيْـلَـتَـنـا بِـذي حُـسُـمٍ أَنـيـري		إذا أَنْـتِ انْـقَـضَـيْـتِ فَـلا تَـحُـوري

فَـإنْ يَـكُ بـالـذّنـائِـبِ طـالَ لَـيْـلـي		فَـقَـدْ يُـبْـكـي مِـنَ الـلَّـيْـلِ الـقَـصـيرِ

فَـلَـوْ نُـبِـشَ الـمـقـابِـرُ عَـنْ كُـلَـيْـبٍ		فَـيُـخْـبَـرَ بـالـذَّنـائِـبِ أَيُّ زِيـرِ

معنى ذا أن كليباً كان يُعيِّر مُهلهلاً فيقول: أنت زير نساء. وإنما يُقال ذلك لمُؤثر اللّهو بالنساء والحديث إليهنَّ على المساعي وطلب الذكر، وكان مُهلهل أوقع بهم بالذَّنائب وقعة منكرة فيقول: لو رأى كليبٌ ما صنعتُ لَعلِمَ أني غيرُ زِير.

بِـيَـوْمِ الـشَّـعْـثَـمَـيْـنِ لَـقَـرَّ عَـيْـنـاً		وَكَـيْـفَ لِـقـاءُ مَـنْ تَـحْـتَ الـقُـبـورِ؟[1]

وَأنـــي قَـــدْ تَـــرَكْـــتُ بِـــواردِاتٍ		بُـجَـيْـراً فـي دَمٍ مِـثْـلِ الـعَـبـيـرِ

خبَرُ بجَيْرٍ: وهو ابن الحارث بن عُباد بن ضُبيعَة بن قيس بن ربيعة، وكان الحارث من فرسانهم، فاعتزل هذه الحرب. وجاء بُجَيرٌ يُقاتل مع قومه يوم واردات، وهو مشهور من أيامهم. فأُخِذَ أسيراً فقتله مُهلهل وقال: بُؤ بِشِسْع كليب، فَقيل للحارث بن عُباد إن ابنك بُجَيراً قُتِل. فقال الحارث: إنه لأعظَمُ

---

(١) يوم الشعثمين: من أيام العرب وقيل هو يوم واردات والأبيات من الوافر.

قتيلٍ بركةً إنْ أصلح اللَّهُ بين ابنيْ وائلٍ. فقيل له: إن مُهلهلاً حين قتله قال: بؤْ بشسع كليب. فقال عند ذلك:

[المديد]

قَـرِّبـا مَـرْبِـطَ الـنَّـعـامَـةِ مِـنِّـي ... لَـقِـحَـتْ حَـرْبُ وائِـلٍ عَـنْ حِـيـالِ

لَـمْ أَكُـنْ مِـنْ جُـنـاتِـهـا عَـلِـمَ الـلَّـ ... ـهُ وَإِنِّـي بِـحَـرِّهـا الـيـومَ صـالِ

لا بُـجَـيْـرٌ أَغْـنَـى فَـتـيـلاً وَلا رَهْـ ... ـطُ كُـلَـيْـبٍ تَـزاجَـروا عَـنْ ضَـلالِ

ثم دخل في الحرب.

رجع إلى شعر مهلهل:

هَـتَـكْـتُ بِـهِ بـيـوتَ بَـنـي عُـبـادٍ ... وَبَـعـضُ الـغَـشْـمِ أَشْـفـى لِـلـصُّـدورِ

عـلـى أَنْ لَـيْـسَ يُـشْـفـي مِـنْ كُـلَـيـبِ ... إِذا بَـرَزَتْ مُـخَـبَّـأَةُ الـخُـدورِ

وَهَـمَّـامُ بـنِ مُـرَّةَ قَـدْ تَـرَكْـنـا ... عَـلَـيْـهِ الـقُـشْـعُـمَـيْـنِ[1] مِـنَ الـنُّـسـورِ

يَـنـوءُ بِـصَـدْرِهِ وَالـرُّمْـحُ فِـيـهِ ... وَيَـخْـلِـجُـهُ خِـدَبٌّ[2] كـالـبَـعـيـرِ

فَـلَـوْلا الـرِّيـحُ أُسْـمِـعَ أَهـلُ حِـجْـرٍ ... صَـلـيـلَ الـبَـيْـضِ تُـقـرَعُ بـالـذُّكـورِ

فِـدًى لِـبَـنـي الـشَّـقـيـقَـةِ يَـوْمَ جـاؤوا ... كَـأُسْـدِ الـغـابِ لَـجَّـتْ فـي الـزَّئـيـرِ

كَـأَنَّ رِمـاحَـهُـمْ أَشْـطـانُ بِـئْـرٍ ... بَـعـيـدٍ بَـيْـنَ جـالَـيْـهـا جَـرورِ

كَـأَنّـا غُـدْوَةً وَبَـنـي أَبـيـنـا ... بِـجَـنْـبِ عُـنَـيْـزَةٍ رَحَـيـا مُـديـرِ

نَـكُـرُّ عَـلَـيْـهِـمُ عَـوْداً وَبَـدْءاً ... كَـأَنَّ الـخَـيْـلَ تَـنْـهَـضُ فـي غَـديـرِ

وقال أيضاً يرثيه:

[الخفيف]

طَـفْـلَـةٌ مـا ابْـنَـةُ الـمُـحَـلِّـلِ بَـيْـضـا ... ءُ لَـعـوبٌ لَـذيـذَةٌ فـي الـعِـنـاقِ

ضَـرَبَـتْ نَـحْـرَهـا إِلَـيَّ وَقـالَـتْ ... يـا عَـدِيُّ لَـقَـدْ وَقَـتْـكَ الأَواقـي

مـا أُرَجِّـي بـالـعَـيْـشِ بَـعْـدَ نَـدامَـى ... قَـدْ أَراهُـمْ سُـقـوا بِـكـأْسِ حَـلاقِ

بَـعْـدَ عَـمْـرٍو وعَـامِـرٍ وَحُـيَـيٍّ ... وَقَـتـيـلَـيْ صَـدوفَ وَابْـنَـي عَـنـاقِ

وَامْـرِىءِ الـقَـيْـسِ مَـيِّـتٍ يَـوْمَ أَوْدى ... ثُـمَّ خَـلَّـى عَـلَـيَّ ذاتَ الـعَـراقـي

وكُـلَـيْـبٍ عُـبْـرِ الـفَـوارِسِ إِذْ حُـ ... ـمَّ رَمـاهُ الـكُـمـاةُ بـالإِيـفـاقِ

إِنَّ تَـحْـتَ الأَحْـجـارِ حَـزْمـاً وَجُـوداً ... وَخَـصِـيـمـاً أَلَـدَّ ذا مِـغْـلاقِ

مَن قال «مِعْلاق» أراد: إذا عَلَقَ خصمَه بلغ منه. ومَن قال: «مِغْلاق» أراد: يغلِق الحُجَّة على الخَصم.

---

(١) القشعم: المسن من النسور.

(٢) الخدب: الضخم.

حَـيَّـةٌ فـي الـوجـارِ أَرْبَـدُ لا يَـنْـ ـفَعُ مِـنْـهُ الـسَّـلِـيـمَ نَـفْـثُ الـراقـي

وقد أطلنا القول في المراثي والتعازي وما بهما من المواعظ. وأَحرِ بما أُطيلَ أَنْ يُمَلَّ. وقد قال أحد المتقدمين: من أطال الحديث فقد عَرَّض نفسه للملل ولسوء الاستماع. وقد كنا ذكرنا أشعاراً من أشعار المتقدمين، فقلنا نمليها على وجهها. ثم رجعتُ إلى أنها مجموعة في الكتاب الكامل على شرح جميع إعرابها ومعانيها، فإن رجعت رجعتْ مُعادةً، وهو يُؤخَذ من ثَمَّ. وقد أتى للقاضي رحمهُ اللَّهُ أكثرُ من الحَوْلِ. وقد قال لَبِيد:

وَمَنْ يَبْكِ حَوْلاً كامِلاً فَقَدِ اعْتَذَرْ

ولكنا نُشيِّع ما قدْ مضى من الأخبار بأخبار طريفةٍ من هذا الباب، وأشعار ظريفةٍ مختصرة، ينقطع الكلام عليها إن شاء الله وبه القوة.

حُدِّثتُ أنَّ رجلاً عزَّى يحيى بن خالد[1] عن حُرمة له فقال: أيها الوزير، تقديم الحُرَم من النِّعم، وتمثل:

[الوافر]

تَـعَـزَّ إذا رُزِئْـتَ بِـخَـيْـرِ دِرْع تَـسَـرْبَـلْ لِـلْـمَـصـائِـبِ دِرْعَ صَـبْـرِ
وَلَـمْ أَرَ نِـعْـمَـةً شَـمَـلَـتْ كَـرِيـمـاً كَـعَـوْرَةِ مُـسْـلِـمٍ سُـتِـرَتْ بِـقَـبْـرِ

وسَمِع أسماءُ بن خارِجة الفَزارِي نائحة بالكوفة تقول:

[المتقارب]

فَـمَـنْ لِـلْـمـنـابِـرِ والـخـافِـقـاتِ وَلِـلْـجـودِ بَـعْـدَ زِمـامِ الـعَـرَبْ
وَمَـنْ لِـلْـعُـنـاةِ وحَـمْـلِ الـدِّيـاتِ وَمَـنْ يَـفْـرِجُ الـكَـرْبَ حـيـنَ الـكُـرَبْ
وَمَـنْ لِـلـطِّـعـانِ غَـداةَ الـهِـيـاجِ وَمَـنْ يَـمْـنَـعُ الـبِـيـضَ عِـنْـدَ الـهَـرَبْ

فقال: مثلُ هذا فَلْيُبكَ. ثم قال:

[الكامل]

يـا خَـدُّ إنَّـكَ إنْ تُـوَسَّـدْ لَـيِّـنـاً وُسِّـدْتَ بَـعْـدَ الـمَـوْتِ صُـمَّ الـجَـنْـدَلِ
فـاعْـمَـلْ لِـنَـفْـسِـكَ فـي حَـيـاتِـكَ صـالِـحـاً فَـلَـتَـنْـدَمَـنَّ غَـداً إذا لَـمْ تَـفْـعَـلِ

وقال عبد الله بن العباس: ما اتَّعَظْتُ بشيءٍ بعدَما سمِعْتُه من رسول الله ﷺ كما اتَّعظت بكتابٍ كتبه عليٌّ عليه السلام إليّ، وكان كتابه: أما بعدُ. فإنَّ المرء

(١) يحيى بن خالد بن برمك «أبو الفضل»: الوزير السريّ الجواد سيد بني برمك ومربي الرشيد سجنه الرشيد في الرقة بعد نكبة البرامكة ومات فيها (١٢٠ ـ ١٩٠ هـ) (الأعلام: ج ٨، ص ١٤٤).

يَسُرُّه دَرَكُ ما لم يَكُنْ لِيَفُوتَه، ويسوؤهُ فوتُ ما لم يكن لِيُدْرِكَهُ. فَلْيَكُنْ سرُورُكَ بما نِلْتَ من أمر آخرتِك. وليكُنْ أسفُكَ على ما فاتَكَ من ذلك. وما نِلتَ من الدُّنيا فلا تنْعَمْ به فرَحاً، وما فاتَك منها فلا تُكثِرْ عليه جَزعاً، وليكُن هَمَّك لِما بعد الموْت.

وقال بعضهم: سمعتُ بكاء راهِبٍ فناديتُ: يا راهبُ، ما يُبكيك؟ فقال: أبكاني أمرٌ عرفته فجُزْتُ عن سبيله، وقصَّرت في طلبه، ويومٌ مضى أورَثَني عَبْرَته وحَسْرتَه، نقصَ لَه أجلي، ولم يَنْقُصْ له أملي.

ورُوِيَ أنَّ بعض ملوك الفرس كان شديد الغضب، فكتب ثلاثَ رِقاعٍ، ثم وكَّلَ رجلاً حازماً من أصحابه فقال: إذا اشتدَّ غضبي فادفعوا إليّ الأولى، فإذا سَكَنْتُ بعض السكون فادفعوا إليّ الثانية، ثم ادفعوا إليَّ الثالثة، فكان في الأولى: إنك لستَ بالإله، إنما أنت بَشَرٌ يوشِك أَن يموت، ويأكلَ بعضُك بعضاً. وفي الثانية: ارْحَمْ مَن في الأرض يَرْحَمْكَ مَنْ في السماء. وفي الثالثة: خُذِ الناسَ بأمر الله، فإنه لا يُصلِحُهُمْ إلاّ ذلك.

وقال أبو عبد الرحمن ابن عائشة: لما أُتِيَ بحُجر بن عَدِيّ وأصحابه لِيُقْتَلْ بِعَذْراء[1] قال: ما اسْمُ هذه القرية؟ قالوا: عَذْراء. قال: واللّهِ إني لأوَّلُ فارس وعَرَ أهلها يوم افتتحناها. فلَمَّا قرِّبَ ليُقتلَ صَلَّى ركعتين وأظهر جزعاً قيل له: أتجزع؟ فقال: ولِمَ لا أَفعَلُ؟ كَفنٌ مَنْشور، وسيفٌ مَشهُور، وقبرٌ مَحفُور، ولستُ أَدري أَيُؤديني إلى جَنَّةٍ أمْ إلى نار.

فلما قُتِلَ قال عبدُ الله بن خليفة الطائي يرثيه:

[الطويل]

تَذَكَّرْتُ لَيْلَى وَالشَّبِيبَةَ أَعْصُرا ... وَذِكْرُ الهَوَى بَرْحٌ على مَن تَذَكَّرا
أَقُولُ وَلا واللّهِ أَنْسَى مُصابَهُمْ ... سَجِيسَ اللَّيالي أو أَمُوتَ فأُقْبَرا[2]
عَلى أَهْلِ عَذْراءَ السَّلامُ مُضاعَفاً ... مِنَ اللّهِ وَلْيُسْقَ السَّحابَ الكَنَهْوَرا[3]
وَلاقَى بِها حُجْرٌ مِنَ اللّهِ رَحْمَةً ... فَقَدْ كانَ أَرْضَى اللّهَ حُجْرٌ وَأَعْذَرا
فَيا حُجْرُ مَنْ لِلْخَيْلِ تُطْعَنُ بالقَنا ... وَلِلْمَلِكِ المُغزِي إذا ما تَغَشْمَرا[4]
فَقَدْ عِشْتَ مَحْمُودَ الحَياةِ وَإِنَّني ... لأَطْمَعُ أَنْ تُعْطَى الخُلودَ وَتُحْبَرا

وقال حسان بن ثابت يرثي جعفر بن أبي طالب وزيد بن حارثة وعبد

---

(١) عَذْراء: قرية بغوطة دمشق فيها قتل حجر بن عدي (معجم البلدان: ج ٤، ص ٩١).
(٢) سجيس الليالي: أبداً. (٣) الكَنَهْوَر: المتراكب الثخين. (٤) تغشمر: طغى.

الله بن رَواحة وكان قد أمَّرهُمْ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على جيش مُؤْتَة:

[الطويل]

تَأَوَّبَني لَيلٌ بِيَثْرِبَ أَعْسَرُ ... وَهَمٌّ إذا ما نَوَّمَ النَّاسُ مُسْهِرُ
لِذِكْرَى حَبيبٍ هَيَّجَتْ لَكَ عَبْرَةً ... سَفوحاً وَأَسْبابُ البُكاءِ التَّذَكُّرُ
بَلى، إنَّ فُقْدانَ الحَبيبِ بَلِيَّةٌ ... وَكَمْ مِنْ كَريمٍ يُبْتَلى ثُمَّ يَصبِرُ
رَأَيتُ خِيارَ المؤمِنينَ تَوارَدُوا ... شَعُوبَ وَقَدْ خُلِّفْتُ فِيمَنْ يُؤَخَّرُ
فَلا يُبْعِدَنَّ اللَّهُ قَتْلَى تَتابَعُوا ... بِمُؤْتَةَ مِنهُمْ ذُو الجَناحَيْنِ جَعْفَرُ
وَزَيْدٌ وَعَبدُ اللَّهِ حينَ تَتابَعُوا ... جَميعاً وَأَسبابُ المَنِيَّةِ تَخْطِرُ
غَدَاةَ مَضى بالمؤمِنينَ يَقُودُهُمْ ... إلى المَوْتِ مَيْمونُ النَّقيبَةِ أَزْهَرُ
أَغَرُّ كَضَوْءِ البَدْرِ مِنْ آلِ هاشِمٍ ... أَبِيُّ إذا سِيمَ الظُّلامَةَ يَجْسُرُ
فَطاعَنَ حَتى ماتَ غَيْرَ مُوَسَّدٍ ... بِمُعْتَرَكٍ فيهِ القَنا تَتَكَسَّرُ
فَصارَ مَعَ المُسْتَشْهَدِينَ ثَوابُهُ ... جِنانٌ وَمُلْتَفُّ الحَدائِقِ أَخْضَرُ
وَكُنّا نَرَى في جَعْفَرٍ مِنْ مُحَمَّدٍ ... وَقاراً وَأَمْراً حازِماً حِينَ يَأْمُرُ
وَما زالَ في الإسلامِ مِنْ آلِ هاشِمٍ ... دَعائِمُ عِزٍّ لا تُرامُ وَمَفْخَرُ
وهُمْ جَبَلُ الإسْلامِ وَالنّاسُ حَوْلَهُمْ ... رِضامٌ إلى طَوْدٍ يَرُوقُ وَيَقْهَرُ
بِهَا لِيلُ مِنْهُمْ جَعفَرٌ وَابنُ أُمِّهِ ... عَليٌّ، وَمِنْهُمْ أَحْمَدُ المُتَخَيَّرُ
وَحَمْزَةُ وَالعَبَّاسُ مِنْهُمْ وَمِنْهُمُ ... عَقيلٌ، وماءُ العُودِ مِنْ حَيْثُ يُعْصَرُ
بِهِمْ تُفرَجُ اللأْواءُ في كُلِّ مَعْرَكٍ ... عَماسٍ إذا ما ضاقَ بالنّاسِ مَصْدَرُ(١)
هُمُ أَوْلِياءُ اللَّهِ أَنْزَلَ حُكْمَهُ ... عَلَيْهِمْ وَفيهِمْ ذا الكِتابُ المُطَهَّرُ

ومما يستحسنه الناس من المراثي ويَخِفُّ على ألسنتهمْ قصيدةُ محمد بن مُناذر الصُّبيريّ(٢) مَوْلى بني صُبَيْر بن يَرْبوع في عبد المجيد بن عبد الوهاب الثَّقفيّ حتى قد خلطوا في الرواية، وزاد بعضهم على بعض. ونحن نَخْتار اختياراً منها تقع فيه الموعظة الحسنة من قول المخلوقين، والكلام المرْضيّ من ذلك، وهي التي أولها:

[الخفيف]

---

(١) مَعْرَك عَماس: شديد.

(٢) محمد بن مُنَاذِر اليربوعي بالولاء «أبو جعفر» شاعر كثير الأخبار والنوادر كان من العلماء بالأدب واللغة غلب عليه المجون والزندقة وأصله من اليمن أو البصرة وفيها منشؤه مدح البرامكة وأخرج بعد نكبتهم إلى مكة حيث تهتك ومات فيها (../١٩٨ هـ) (الأعلام: ج ٧، ص ١١١).

كُلُّ حَيٍّ لاقي الحِمامِ فَمُودِ ... ما لِحَيٍّ مُؤَمِّلٍ مِنْ خُلودِ
لا تَهابُ المَنونُ حَيّاً وَلا ... تُبقي على والِدٍ وَلا مَوْلُودِ
يَقْدَحُ الدَّهْرُ في شَماريخ رَضْوى ... وَيَحُطُّ الصُّخورَ مِنْ هَبّودِ

يزعمون أنه غلط في هذا، وأن هبّود حفيرة، وليس كما قالوا، إنما الحفيرة هَبوب. والذي قال هو: هبود. وذكروا أنها أكَمَة.

وَلَقَدْ تَتْرُكُ الحَوادِثُ وَالأَيّامُ ... وَهْياً في الصَّخْرَةِ الصَّيْخودِ
لَيْسَ يَبْقَى على الحَوادِثِ حَيٌّ ... غَيْر وَجْهِ المُهَيْمِنِ المَعْبود

ومما استحسنتُ منها ولم أُرْذِل غيرَه، قوله:

أَيْنَ رَبُّ الحِصْنِ الحَصينِ بِسَوْرا ... ءَ وَرَبُّ القَصْرِ المُنيفِ المَشيدِ
شادَ أَرْكانَهُ وَبَوَّبَهُ بِا ... بَيْ حَديدٍ وَحَفَّهُ بِجُنودِ
كانَ يُجْبَى إِلَيْهِ ما بَيْنَ صَنْعا ... ءَ فَمِصْرٍ إِلى قُرى يَبْرود
وَتَرى حَوْلَهُ زُرافاتِ خَيْلٍ ... جافِلاتٍ تَغْدُو بِمِثْلِ الأُسُودِ
فَرَمى شَخْصَهُ فَأَقْصَدَهُ الدَّهْـ ... ـرُ بِسَهْمٍ مِنَ المَنايا سَديدِ
ثُمَّ لَمْ يُنْجِهِ مِنَ المَوْتِ حِصْنٌ ... دونَهُ خَنْدَقٌ وَبابا حَديدِ
وَمُلوكٌ مِنْ قَبْلِهِ عَمَروا الأَرْ ... ضَ أُعينوا بالنَّصْرِ وَالتَّأْييدِ
فَلَوَ أَنَّ الأَيّامَ أَخْلَدْنَ حَيّاً ... لِعَلاءٍ أَخْلَدْنَ عَبْدَ المَجيدِ
ما دَرى نَعْشُهُ وَلاَ حامِلُوهُ ... ما على النَّعْشِ مِنْ عَفافٍ وَجودِ
وَيْحَ أَيْدٍ حَثَتْ عَلَيْهِ وَأَيْدٍ ... دَفَنَتْهُ، ما غَيَّبَتْ في الصَّعيدِ
غَيَّبتْ في الصَّعيدِ حَزْماً وَعَزْماً ... وَلِزازَ الخَصْمِ الأَلَدِّ العَنودِ
إِنَّ عَبْدَ المَجيدِ يَوْمَ تَوَلّى ... هَدَّ رُكْناً ما كانَ بالمَهْدودِ
هَدَّ رُكْني عَبْدُ المَجيدِ وَقَدْ كُنْـ ... ـتُ بِرُكْنٍ مِنْهُ - أَبُوءُ - شَديدِ
حينَ تَمَّتْ آدابُهُ وَتَرَدّى ... بِرداءٍ مِنَ الشَّبابِ جَديدِ
وَسَمَتْ نَحْوَهُ العُيونُ وما كا ... نَ عَلَيْهِ لِزائِدٍ مِنْ مَزيدِ
وَكَأَنّي أَدْعوهُ وَهْوَ قَريبٌ ... حينَ أَدعوهُ مِنْ مَكانٍ بَعيدِ
وَلَئِنْ كُنْتُ لَمْ أَمُتْ مِنْ جَوى الحُز ... نِ عَلَيْهِ، لأَبْلُغَنْ مَجْهودي
لأُقيمَنَّ مَأْتَماً كَنُجومِ الـ ... لَّيلِ زُهْراً يَلْطِمْنَ حُرَّ الخُدودِ
مُوجَعاتٍ يَبْكينَ لِلْكَبِدِ الحَرّى ... عَلَيْهِ وَلِلْفُؤادِ العَميدِ
وَلِعَيْنٍ مَطْروفَةٍ أَبَداً قا ... لَ لَها الدَّهْرُ: لا تَنامي وَجودي

كُلَّما عَزَّك البُكاءُ فَأَنْفِذْ ... تِ لِعَبدِ المَجيدِ سَجْلاً فَعودي
لِفَتًى يَحْسُنُ البُكاءُ عَلَيْهِ ... وَفَتًى كانَ لامْتِداحِ القَصيدِ

فكلُّ هذه الأبيات غُرَّةٌ، ولقد بلغني بلاغاً إخالُهُ صحيحاً أن عبد المجيد كان للمدح حياتَه موضعاً، وللمراثي بعدَ موته مُسْتوجِباً، عَفافاً وجمالاً وأدباً وشباباً.

وقال القائل:

[البسيط]

وَإِنَّ أَحْسَنَ بَيْتٍ أَنْتَ قائِلُهُ ... بَيْتٌ - يُقالُ إذا أَنْشَدْتَهُ - صَدَقا

وأحسن من ذلك - وإن جلَّ قدرُ المؤمن - بكاءُ الرجل على نفسه - وإنْ كانَ حَيّاً، لما يَتوقَّعهُ. كما قال إسماعيل بن القاسم:

[السريع]

كَمْ سَتَرى في النَّاسِ مِنْ هالِكٍ ... وَهالِكٍ حَتَّى تُرى هالِكا

فهذا مأخوذ مما يروى أن الصِّدِّيق - رحمه الله - كان يُكثر إنشادَهُ وهو:

[مجزوء الكامل]

تَنْفَكُّ تَسْمَعُ ما حَيِيتَ ... بِهالِكٍ حَتَّى تَكُونَهْ
وَالْمَرْءُ قَدْ يَرْجُو الرَّجا ... ءَ مُغَيَّباً وَالمَوْتُ دُونَهُ

ومع قوله هذا:

[السريع]

أَصْبَحَتِ الدُّنْيا لَنا عِبْرَةً ... وَالحَمْدُ لِلَّهِ على ذلِكا
اجتَمَعَ النّاسُ على ذَمِّها ... وَما تَرى مِنْهُمْ لَها تارِكا

ومثله قوله:

[الطويل]

نُنافِسُ في الدُّنيا وَنَحْنُ نَعِيبُها ... وقَدْ حَذَّرتناها لَعَمْري خُطُوبُها
ومَا نَحْسِبُ السّاعاتِ تُقْطَع مُدَّةً ... على أَنَّها فينا سَرِيعٌ دَبِيبُها
كَأَنّي بِرَهْطي يَحْمِلُونَ جَنازَتي ... إلى حُفْرَةٍ يُحْثى عَليَّ كَثِيبُها
وبَاكِيَةٍ حَرَّى تَنُوحُ وَإِنَّني ... لَفِي غَفْلَةٍ عَنْ صَوتِها لا أُجيبُها
وَإِنّي لَمِمَّنْ يَكرَهُ المَوْتَ وَالبِلَى ... وَيُعجِبُني رَوْحُ الحَياةِ وَطِيبُها
فَحَتَّى مَتى حَتَّى مَتى وَإِلى مَتى ... يَدُومُ طُلوعُ الشَّمْسِ لِي وَغُروبها
أَيا هادِمَ اللَّذَّاتِ ما مِنْكَ مَهْرَبٌ ... تُحاذِرُ نَفْسي مِنْكَ ما سَيُصِيبُها
رأَيْتُ المَنايا قُسِّمَتْ بَيْنَ أَنْفُسٍ ... وَنَفْسي سَيأْتي بَعْدَهُنَّ نَصِيبُها

وقال منصور النَّمري يرثي يزيد بن مَزْيد:

مَتَى يَبْرُدُ الحُزْنُ الّذي في فُؤادِيا أَبا خالِدٍ مِنْ بَعْدِ أَلاّ تَلاقِيا؟
أَبا خالِدٍ ما كان أَدْهَى مُصيبَةً أَصابَتْ مَعَدّاً يَوْمَ أَصْبَحْتَ ثاوِيا
أَبا خالِدٍ لا بَلْ عَمَمتَ بِنَكْبَةٍ فَتَبْكِي مَعَدٌّ وَالقَبيل اليَمانِيا
وَناعٍ غَدا يَنْعَى يَزيدَ بْنَ مَزْيَدٍ فَقُلْتُ لَهُ: أَصْبَحْتَ لِلْجُودِ ناعِيا
أَعَيْنَيَّ جُودَا بالدُّموعِ وَأَسْعِدا بِعَبْرَةِ مَحْزُونٍ بَكَى لِبُكائِيا
سَمِعْتُ بكاءَ النائِحاتِ بِسُحْرَةٍ فَهيَّجْنَ أَحْزاناً غَلَبْنَ عَزائِيا
أَلا عَذَرَ اللّهُ العُيونَ البواكِيا وَقَدْ عايَنَتْ يَوْماً مِنَ الدَّهْرِ شاجِيا؟
لَعَمْري لَئِنْ سُرَّ الأَعادي وَأَظْهَرُوا شَماتاً، لَقَدْ مَرُّوا بِرَبْعِكَ خالِيا
وَخَلَّفْتَ لَيْثَيْ غابَتَيْنِ كِلاهُما سَيَلْقى الأَعادِي مِنْ يَدَيْهِ الدَّواهِيا
فَشِبْهُكَ أَخْلاقاً وَعِزَّةَ أَنْفُسٍ إِذا النَّفْسُ جاشَتْ لَوْ بَلَغْنَ التَّراقِيا

قال «النَّفْس» في موضع «النفوس».

سُقِيتَ السَّوارِيَ وَالغَوادي وَقَدْ أَرَى خَيالَكَ يَسْري ثُمَّ يُصْبِحُ غادِيا
نُعَزِّي بِكَ الإِسْلامَ إِنَّكَ دُونَهُ إذا نَكَلَ الحامُونَ كُنْتَ مُحامِيا
مُشَمِّرُ أذيالٍ تَحُوطُ حَرِيمَهُ وتَحْمي لَهُ أطرافَهُ والقَواصِيا
وَكُنْتَ شِهاباً لِلْخَليفَةِ ثاقِباً وَكَوْكَبَةً تَرْمي العِدا وَالمُناوِيا
وَكُنْتَ سِناناً نافِذاً في يَمِينِه وَسَيفاً لَهُ عَضْباً يَقُدُّ الهَوادِيا
وَكُنْتَ إذ نادَى لأَمْرٍ عَظيمَةٍ وَلَمْ يَكُ مَنْ يَكْفِي أَصابَكَ كافِيا
.... نوينا جانِباً والسوانا وَشَمَّرْتَ أَذْيالاً وَلَبَّيْتَ داعِيا؟
وَقُمْتَ بِأَمْرِ الثَّغْرِ بَعْدَ فَسادِهِ وَأَوْشَكْتَ منهُ رَقْعَ ما كانَ واهِيا
فَقَدْ ماتَ مَعْرُوفٌ وَماتَتْ تِجارَةٌ ومَاتَ غَناءٌ يَوْمَ وَدَّعْتَ ماضِيا
نُعَزِّي أَمِيرَ المؤمنينَ وَرَهْطَهُ بِسَيْفٍ لَهُ ما كانَ في الحَرْبُ نابِيا
لَقَدْ كانَ في أَعْدائِهِمْ ذا شَكيمَةٍ لَهُمْ ناهِكاً بدا وَقَدْ كان ناكِيا؟
وَمَلآنَ مِنْ وُدِّ الخَليفَةِ صَدْرُهُ يُؤَدِّي إِلَيْهِ النُّصْحَ مُذْ كانَ ناشِيا
مَضَى ماجِدَ الأَيّام رافِعَ هِمَّةٍ إلى الخُلُقِ الأَعْلَى، مِنَ الذَّمِّ ناجِيا
وإنْ عُدَّ في دُنْيا فَذِكْرُ مَكارِمٍ وَإِنْ عُدَّ في دِينٍ فَلَمْ يَكُ تالِيا
على مِثْلِ ما لاقَى يَزيدُ بْنُ مَزْيَدٍ عَلَيْهِ المَنايا فالْقَ إِنْ كُنْتَ لاقِيا
فَتَى كانَتِ الأَبْطالُ تَعْرِفُ أَنَّهُ إذا قارَعَتْهُ لَيْسَ بالضَّيْمِ راضِيا

فإنْ تَكُ أَفْنَتْهُ اللَّيالي فَأَوْشَكَتْ ... فَإنَّ لَهُ ذِكْراً سَيُفْنِي اللَّيالِيا
حَلَفْتُ لَقَدْ أَبْقى يَزيدُ لِرَهْطِهِ ... مَعالِيَ لا تَنْفَكُّ تَبْني مَعالِيا

كنا أردنا أن نملي أشعاراً من أشعار المحدثين في ضروبٍ من المراثي فأشفقنا من أن يُسْتَخفَّ بهذا الكتاب، والمراثي لا تنقضي ما كان الناس؛ فأحْبَبنا أن نَخْتِمَه ونأخذ في غيره، وأن يكون ما نَخْتِمُه به شريفاً بَهِياً، فاخترنا له قصيدة أنشدناها الرِّياشي لرجل من غَطَفَان من بني عبدِ الله، كانت له صُحبة، قُتِلَ يوم جَلُوْلاء[1] يقال له سالم، يَرْثي رسول الله ﷺ:

[المتقارب]

أَفاطِمُ بَكِّي وَلا تَسْأَمي ... لِصُحْبِكِ ما طَلَعَ الكَوكَبُ
فَقَدْ هُدَّتِ الأَرْضُ لَمَّا ثَوَى ... وَأَيُّ البَرِيَّةِ لا يُنْكَبُ
فَمالِيَ بَعْدَكَ حَتَّى المَمَا ... تِ إلاَّ جَوًى داخِلٌ مُنْصِبُ
جَوًى حَلَّ بَيْنَ الحَشا وَالشَّغافِ ... فَخَيَّمَ فِيهِ فَما يَذْهَبُ
فَيا عَينُ وَيْحَكِ لا تَسْأَمي ... وَما بالُ دَمْعِكِ لا يَسْكُبُ!
وَقَدْ بانَ مِنْكِ الَّذي تَعْلَمينَ ... وَضاقَتْ بِكِ الأَرْضُ وَالمَذْهَبُ
وَمَنْ ذا ـ لَكِ الوَيْلُ ـ بَعْدَ الرَّسُولِ ... يُبَكَّى مِنَ النّاسِ أَوْ يُنْدَبُ
فَإنْ تَبْكِيهِ تَبْكِ خَيْرَ الأَنامِ ... كَثيرَ الفَواضِلِ لا يُجْدِبُ
وَإنْ تَبْكِهِ تَبْكِ سَهْلَ الجَنا ... بِ مَحْضَ الضَرائِبِ لا يُؤْشَبُ
وَإنْ تَبْكِهِ تَبْكِ نُورَ البِلا ... دِ ضَخْمَ الدَّسِيعَةِ لا يُحْسَبُ
وَإنْ تَبْكِهِ تَبْكِ خَيْرَ الأَنامِ ... سَرِيعاً سَوابِلُهُ مُخْصِبُ
وَإنْ تَبْكِهِ تَبْكِ وَارِي الزِّنادِ ... صَدوقَ المَقالَةِ لا يَكْذِبُ
وَتَبْكي الرَّسُولَ وَحُقَّتْ لَهُ ... شُهودُ المَدينَةِ وَالغُيَّبُ
وَتَبْكي لَهُ الصُّمُّ صُمُّ الْجِبالِ ... وَشَرْقُ المَدينَةِ وَالمَغْرِبُ
وَتَبْكيهِ شَعْثاءُ مَضْرورَةٌ ... إذا حُجِبَ النّاسُ لا تُحْجَبُ
وَيَبْكيهِ شَيخٌ أَبو وِلْدَةٍ ... تُطِيفُ بِعَقْوَتِهِ أَشْيَبُ
وَيَبْكِيهِ أَهْلُ النُّهى وَالحِجَى ... مِنَ النّاسِ وَالطّارِقُ الأَخْيَبُ
وَيَبْكِيهِ ضَيفٌ جَفاهُ الصَّديقُ ... وَذُو النَّسَبِ الدّاخِلُ الأَقْرَبُ

---

(١) جلولاء: طسوج من طساسيج السواد في طريق خراسان كانت فيها الوقعة المشهورة على الفرس ١٦ هـ (معجم البلدان: جـ ٢ ص ١٥٦).

وَيَبْكِيهِ شَغْثٌ خِمَاصُ البُطُونِ أَضَرَّ بِهِمْ زَمَنٌ أنْكَبُ

وصلى الله على محمد وآله وسلم تسليما.

هذا آخرالكتاب. وقيل: ما قيل فيه ﷺ قليلٌ وإن كان كثيراً في اللفظ، ويسيرٌ وإن كان جليلاً في النفس، وعليه رحمة الله وبركاته.

وهذا حديث نذكره لِيتبَعَهُ ذِكرُه عليه السلام، ويعوذَ به عائذ، ويَأتمَّ به مُؤتمّ:

حدثني الرِّياشي العباس بن الفرج قال: أخبرنا أحمد بن شبيب قال: أخبرنا أبي عن رَوْح بن القاسم عن أبي جعفر الخطِّي المدنيّ عن أبي أمامة بن سهل بن حُنيف عن عمه بن حُنَيف أنّ رجلاً كان يختلف إلى عثمان بن عفان رحمة الله عليه في حاجة له، وكان عثمان لا ينظر إليه ولا يلتفت إلى حاجته. فلقي عثمانَ بنُ حنيف فشكا ذلك إليه، فقال له عثمان بنُ حُنيف: إيتِ الميضاة فتوضأ، ثم ائتِ المسجدَ فصلِّ ركعتين ثم قُلْ: اللهم إني أسألك بنبييّ محمد، نبيِّ الرحمة، يا محمد، إني أتوجه بك إلى ربي فيَقضي لي حاجتي - وتذكر حاجتك، ثم رُحْ حيث تروح.

فانطلق الرجل فصنع ذلك. ثم أتى باب عثمان بن عفان، رحمة الله عليه فأخذ البوّاب بيده، فأدخله على عثمان بن عفان رضي الله عنه فأجلسه معه على الطَّنفُسة، فقال له: حاجتك؟ فذكر له حاجته فقضاها، ثم قال: ما فهمتُ حاجتك حتى كانت الساعة. وقال: انظر ما كانت لك من حاجة.

ثم إن الرجل خرج فلقي عثمانَ بن حُنيف، فقال له: جزاك الله خيراً. ما كان ينظر في حاجتي ولا يلتفت إليّ حتى كلمتُه، فقال عثمان بن حنيف: ما كلمتَه، ولكني سمعت رسول الله ﷺ - وجاء ضرير فشكا إليه ذهابَ البصر، فقال رسول الله ﷺ: أَوْ تصبر؟ فقال: يا رسول الله، إنه ليس لي قائد، وقد شقَّ عليَّ. فقال النبي ﷺ: إيتِ الميضأة فتوضأ ثم صلِّ ركعتين، ثم قل: اللهم، إني أسألك وأتوجه إليك بنبيّي محمدٍ نبيِّ الرحمة ﷺ. يا محمد، إني أتوجه بك إلى ربي لِيَرُدَّ لي بصري. اللهم شفِّعْهُ فيّ، وشفِّعني في نفسي. قال عثمان بن حنيف: فوالله ما تفرَّقنا وطال بنا الحديث حتى دخل الرجل كأنه لم يكن به ضرر.

تم كتاب التعازي والمراثي بأسره، والحمد لله رب العالمين

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم

وكان الفراغ منه في العشر الأوسط من جمادى الآخرة

من سنة ثلاث وستين وخمس مائة

فهرس المحتويات